إلياس فركوح

# قامات الزبد



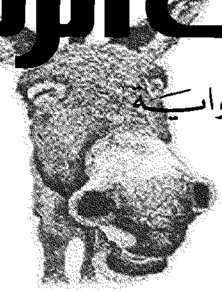
رواية

منارات

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ١٣-٥٠٥٧ (شوران) بيروت - لبنان

# إلياس فركوح

# قامات الزبد



رواية

منارات

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان

* الياس فركوح : قامات الزبد
* الطبعة الأولى، ١٩٨٧



* الناشران : ■ مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. ل.
بيروت ـ لبنان، ص . ب ٥٠٥٧/ ١٣ (شوران).
هاتف ٦/ ٨١٠٠٥٥، تلكس ٢٠٦٣٩، دلتا، لبنان.

- IAR (RAWAFID) Ltd.
- P. O. Box: 7047, Nicosia, Cyprus
Tel (357) 2 - 452670 Tlx: 5223 Rawafid - Cy.

■ دار منارات للنشر.
ص . ب ٩٢٥٠٦٢ عمان ـ الأردن
هاتف ٦٦١٣٢٨

* تصميم الغلاف : «منارات»
رسم الغلاف : تفصيل من «نبيل أليف»
خطوط الغلاف والداخل : «زهير أبو شايب».

إلى ليديا . . .

*« كان يا ما كان*
*كان ثمة حكاية*
*تأتي نهايتها*
*قبل بدايتها*
*وتأتي بدايتها*
*بعد نهايتها .*
*أبطالها يدخلون*
*بعد موتهم*
*ويغادرون*
*قبل ميلادهم .*
*تحدّث أبطالها عن أرضٍ ما ، عن سماءٍ ما*
*وقالوا أشياء كثيرة .*
*لكنهم لم يقولوا ما لم يعرفوه هُم أنفسهم .*
*لم يقولوا أنهم ليسوا غير أبطالٍ في حكاية ،*
*تأتي نهايتها*
*قبل بدايتها*
*وتأتي بدايتها*
*بعد نهايتها . »*

فاسكو بوبا

## إشارات:

- □ أيار ١٩٧٣. بدء اشتباكات الجيش اللبناني مع المقاومة الفلسطينية.
- □ النفائس العصرية: مجلة أدبية فكاهية تاريخية أنشئها خليل بيدس. السنة الخامسة ١٩١٣. مطبعة دار الأيتام السورية. القدس.
- □ محمود سعيد: أحد روّاد الفن التشكيلي الحديث في مصر. اسكندراني. ولد في الاسكندرية عام ١٨٩٧، وتوفي فيها عام ١٩٦٤. اول فنان تشكيلي ينال جائزة الدولة التقديرية.
- □ ١٣ نيسان ١٩٧٥: اطلاق النار على باص في منطقة «عين الرمانة» كان يحمل مجموعة محتفلين بمهرجان للمقاومة. وكانت حصيلة الحادث مقتل ثلاثين فلسطينياً ولبنانيين اثنين، واشعال الحرب الأهلية اثر مظاهرة صيادي السمك في صيدا ضد شركة بروتين في ٢٧ شباط/ فبراير، واغتيال وجه صيدا الوطني معروف سعد، ومظاهرة بيروت الشرقية تأييداً للجيش في ٥ آذار، مارس ١٩٧٥.
- □ سينما فرساي، سينما سان شارل، فندق هوليداي ان: كلها تقع فيما يسمى بمنطقة الفنادق المترفة في بيروت.
- □ ٧ كانون أول، ١٩٧٥: بداية معارك الفنادق الشرسة التي انتهت بتدميرها، وسيطرة القوى الفلسطينية والوطنية اللبنانية عليها.
- □ تشرين ثاني، ١٩٧٥: بدأت موجات السفن المحملة بالأسلحة والذخائر للأطراف المتصارعة بتفريغ حمولاتها في الموانيء اللبنانية الرسمية والخاصة.

□ تُقرأ الهوامش بالخط المائل كنص متكامل، صفحة تلو صفحة، عند اشاراتها. ثم تُستكمل متابعة الفصل.

# في البدء . . .

ثلاثة رجال.

تتخفّى المدينةُ بالمسافة من وراء ظهورهم، وبالوقت، وذاك الغباش الذي يشهد على الإبتعاد.

صاروا في منأى عن الرصاص. صاروا في متناول الأمان. صاروا في كونٍ لم يمتلىء بالجثث بعد.

الفضاء مُشرع. السماءُ حُرَّة الاّ من نُتف غيومٍ صيفية. وعيونهم تتقطرُ ببقايا نوم. . وحُمرة تشوبُ بياضها من أثر السهر القلق.

تشتعل السجائر. تعبقُ النفوسُ لهفة الى فنجان قهوة. أقرب مقهىً من مشارف صيدا.

تلتطمُ الأمواجُ وتصخب. تصدّها الصخور. يفورُ الشاطىء الصخري بزبدٍ من ماءٍ وملح. تلوكُ ألسنتهم كلاماً لا يقصد مرفأ ولا رصيفاً.

فكَّر الأول: إن وصلت إلى الاسكندرية طرتُ الى العاصمة. أول مرة بعد خمس سنوات. تعبت. أجل. فلأضعها هكذا: تعبت، وحان وقت استراحتي. طافحٌ بالكثير وفاقد للكثير.

ايه! . . لم يبق لي الاّ القليل. عمرٌ غير مؤهل لشيء ذي قيمة. ما عاد ثمة قيمة. حتى أنا لستُ بذي قيمة. بتُ أجد نفسي رتيباً مفرغاً من أية مفاجأة. ولكن؛ هي الاجازة. ربما يقول الغد حكمة تسعفني. ربما.

. . واستراح ماطّاً بدنه على مقعد السيارة.

تساءل الثاني: كيف ستنتهي هذه المهمة؟ خوفي من أن نبوءة العرّافة واقعة لا محالـة. وثـريا؟ . . هل سألتقي بها، أم هل ستـظل صورة تلوكهـا ذاكرتي وأحترق؟ . أهذا معقول أم ان الارهاق قد نال مني حتى الروح!

ثـم. الـرواية. روايتي التي تنتظر مني أن أنهيها. لست متأكداً إن كنتُ أستطيع المضـي فيها. الدفاتر الأوليّة تخطيطات لم تحدد شيئاً حتى الآن.

. . اختفت مرارته في دخان سيجارته.

أما الثالث: لي معكما الموعد. الوعد. غير أنكما تجهلان انني ما عدتُ محتاجاً لايضاحاتكما. اني أعرف لماذا غاب عمي منصور . . او أبو الحكم ـ كما هو معروف هنا ـ . غاب وترك في الشقة الذي لم يقله. شهادته غير المقروءة.

الاسكنـدرية قاعـة امتحـانـات بدلاً من مدينة أُغلقت بأكياس الرمل. أوصدت بيروت أبوابها، ورضيت الاسكندرية أن تكون البديل. الامتحانات لا تهمّني. نجحت أم رسبت. المهم عمي منصور. عمي شقيق أبي. أبي القابع في جليد خوفه. أبي المرتدّ. المولّـي ظهره الى الهاوية. وجهه المخطوف. المذهول بدرع نبيٍّ نحاسيّ محارب، وبسيفه المقدود من فولاذ!

. . تجاوزت سيارتهم شاحنة بطيئة، فغاب البحر لحظتها عن بصرهم.

قال السائق للأول: «هل رأيت ساحلاً بهذا الجمال والامتداد يا رفيق خالد؟».

خرق الصوت انغلاق خالد على أفكاره، فانفتح. بدأت الأشياء بلملمة وجـودها. كانت السيارة تزعق عند الانعطافات اليسيرة، فينعطف البحر معها ويميل. رفيقاه يثرثران في المقعد الخلفي. لا تصله الأصوات بوضوح. ما يزال العالم مشوشاً ومفككاً. أجاب:

«نعم.». لم يعنه إن كانت اجابته سليمة (. . .). لم يدرك إن كان قد أجاب على سؤال السائق أم لا. لكنه عاد وقال كلاماً بليداً: «لقدِ شردت. هل وصلنا إلى الزهراني؟».

«منذ عشر دقائق». أجابه زاهر النابلسي في المقعد الخلفي.

سلّ سيجارة من علبته، ونجح باشعالها بعد أن أغلق زجاج النافذة. ها قد عاد العالم الى تمام اكتماله. السماء زرقاء تمتدّ وتكبر، فيزداد امساكاً بيقين وجوده.

هو الآن على الطريق من بيروت الى صيدا. تفحّص الشاطىء الصخري الراكض الى الخلف كأنما لم يكن يراه طوال الوقت. كأنما يراه للمرة الأولى. قريب ويشمّ رائحته. بعيد لا ينتهي الاّ مع هاوية العالم. هناك في العمق النائي حيث تذوب السماء عند دخولها في البحر.

«انك تسرع كالمجنون!»: قال مخاطباً السائق.

«دعه. ما دمنا غادرنا بيروت، فليكن الوداع خاطفاً!». قال نذير الحلبي.

انخطف البحر بساحله الصخري، وركضت ملامح الدنيا عائدة الى بيروت. الى الوراء لتلقى المدينة في وهج الصباح الأول. تبدأ من شاطىء الفقراء والمتسكعين «سان بلاش»، وتتوقف في الشارع الهابط من مفترق «الاطفائية»، ثم تكون المساحة الخطرة من الشارع: مكشوفة للذين لطوا في منطقة «الكولا» معتمرين الخوذات الرصاصية، مُخفين بنادق تستدق فوهاتها فتكون حراباً تصيب لتميت، لا لتحدث ضجيجاً وحسب.

كان أيّار الـ٧٣.

**أم العبد تصرخ. لكن ابنتها تسكن الى الصمت. أم العبد «تهستر»: يقول أهل الحي. وابنتها لا تقول شيئاً. فقط تموت بصمت. كانت جميلة وشقراء. كانتا تتشاجران كثيراً. غير انهما الآن صامتتان. كفّت أم العبد عن الصراخ واستسلمت للحرائق الأكبر التي توالت.**

«هل ودّعت بيروت حقاً؟»: أسرّ خالد الطيّب لنفسه. انعطفت السيارة فجأة فمالوا معها.

ذاك المنعطف الخطر ينزلق يميناً نحو شارع عريض يلتقي بكورنيش المزرعة. ثم، إن عاودت السير فيه، قادك يساراً الى طريق عريض آخر، فيصل بك الى مفترق تكون الجامعة عند نهايته. قاعة جمال عبدالناصر. «ذاك اللون الرمادي واسم الزعيم البارز»: فكّر الطيّب. تنهض الأشياء، عند الوداع، لتزهو عذراء شامخة في حضور الذكرى. تعرّي نفسها كي تُرى من جديد. كي تُذكر. لا تخجل من عُريها ولا تبيحه.

ينسحب خالد الطيّب الى الوراء عائداً الى بيروت. يتخندق في مساحة الذكرى. تنقذف السيارة صوب صيدا. ثلاثة مسافرين راحلين ورفيق سائق. ينطلقون نحو صيدا. الى السفن. والملح. وفضاء باهت ينجذبُ الى البحر

فيتزاوجان في نقطة يغيّبها الغرق.

مطار بيروت مُغلق. أوصدته القذائف القادمة من التلال الشرقية للمدينة.
أما طريق البّر. فحقول ألغام.

«كُلّ ينزع جلده
كُلّ يكشفُ مجموعته النجمية
التي لم ترَ الليل أبداً.
كُلّ يملأ جلده بالأحجار
كُلّ يبدأ رقصته
على ضوء نجومه هو،
ومَن يستمر حتى الفجر
مَن لا يُغمضُ جفناً
مَن لا يسقط
يوقّرُ جلده.
(هذه اللعبة نادرة).»

فاسكو بوبا

# القسم الأول: وجوه للزبد

قبضتُ على اللحظة.

أنا خالد الطيّب ابن الأكارم وأبي يُدعى حسب شهادة الميلاد وجواز السفر ـ لا. ليس من نفعٍ من ذكر اسمه. قبضتُ على اللحظة التي سأقول فيها ما ليس بمقدوري أن أعرف الآن ما هو. انه يومي وها أنا ماضٍ فيه. لم يتبق شيء. انها آخر قطرة في خابية التجربة. هكذا أسمّيها. أجل. التجربة. ولكن: أهي مجرد تجربة؟. لن أدخل في دائرة التفلسف ولن أفصّل في المسائل. قلبي خاوٍ ورأسي مستودع بقايا العالم. تفتت العالم وسأنجو ومَنْ يقول بعكس هذا مخبولٌ أو جاهل أحمق. أما بيروت، فما عادت تعني لأحلامي، الآن، شيئاً أبعد من الأُفق. لا إضافة بعد اليوم. تكرارٌ للكتاب من الصفحة الأخيرة حتى الصفحة الأولى. ولا بأس إن بدأت من الصفحات الوسطى في منتصف الفصل الذي يقع في وسط رواية الكتاب. لا اضافة بعد اليوم، رتابة كأنما هي أنا. أو كأنما أنا الرتابة. لا فرق. لكنني سأنجو.

متى بدأ هذا؟. متى حدث؟. ليس اليوم. ليس أمس. ربما قبل شهر. ربما أكثر. ربما أعمق في الزمان. ولكن: هل بلغتُ مدى الأُفق حقاً، كي أنجو من حافته الهاوية؟!.

فلأعترف. ما عاد الرجال هم الرجال. ما عادت المدينة تستدعي أحلاماً. انطفأتْ في السماء نجومها القديمة. ليس ثمة نجوم تولد.

غريب!. منذ متى كانت الكلمات تقول الحقيقة؟. هل أكف عن ـ لا. هذا الكلام لي أنا. لا أحد سيتجسس على أفكاري ولن يفكر أحد بالذي أفكر

فيه سواي. فلأحاول الاقتراب أكثر، فربما يبتعدُ نذير ابن باسيل عني ويبقى ماكثاً في موته آمناً مطمئناً لا يخشى طعنات أخرى ولا يخشاني. ها أنا أضحك على نفسي وأقلبُ الصورة لأراها كما أريد أن أراها. ولكن، ماذا أريد؟. أن أفعل بنفسي قاصداً متعمداً ما فعله نذير بنفسه على غفلةٍ وجهل!. مرةً أخرى أدور في الدائرة والدائرة مرايا. أرى وجهي يضحك لي باستخفاف. يهزأ. يسخر من كل الكلام الذي أحاوله وإن لم يبارح رأسي. يقول وجهي انني أكذب. أضحك أنا أيضاً وأمدُّ لساني: أعرف أنني أكذب. أعرفُ أكثر منك فلا تستخف. أنتَ أنا فلا تدّعي الانفصال عني فلن تقدر. عليك أن تجرّب اللعبة. اذهبْ الى المرآة وقُلْ لها ان ابن باسيل، نذير بن باسيل، الرفيق نذير بن باسيل الحلبيّ قد قضىٰ علىٰ نفسه بنفسه وهو من يتحمّل مسؤولية موته. قلْ هذا واسترح، أرتَحْ أنا. حاولْ أن تلعب اللعبة فهو لن يأتي ليكذّبك أبداً. الموتى مغلولون بموتهم والموت نهاية. لا تدع ذكراه تزعزع ثقتك بنفسك وأنهار أنا. أنت تقضـي علـيّ بترددك الدائم. بخوفك الخروج من نقطة الوسط. أتعرف؟. . أنت في الوسط، وأنا. . أنا أريدك أن تقفز معي الى النقطة الأخرى. لكنك تكبّلني. فلا أقدر على المغادرة. أنت وأنا معاً في المكان الواحد والزمان الواحد ولكننا لسنا بواحد. عليك أن تقتنع. ما بك تعود للضحك؟. تسخر؟!. تقول لي أننا واحد؟ أجل. نحن واحد وإنما أنا أجرّد المحسوس كي تفهم. عليك أن تفهم. أنا لم أفعل شيئاً ضد نذير بن باسيل الحلبيّ. أنا لم أدفعه الى هناك كي يموت. ما كان الأمر بيدي وما كان لي الخيار. تضحك ثانية؟. . كل الخيارات لي ولا خيارٍ غير الموت له؟. حسناً. هذا أنت، ولكنني سأقتلك حتى لا اكونك. أتفهم؟. سألحقك برفيقك نذير بن باسيل الحلبيّ وأنجو أنا من لعنتك ولعنته. ليس هو وحده. هناك الآخر القديم. نذير الحلبي ومروان بن مهجة. رغم السنين الطويلة الاّ انه ما يزال موجوداً فيك. يا الهي!. ست سنوات على موته وها إنّك تحتفظ به في أدقّ خلايا ذاكرتك! كيف أنت؟. . ألم ترتو ذاكرتك العاهرة من ايلاج الوجوه التي تسبّبُ لي العذاب؟!. ألم تكتفِ؟. سحقـاً لك ولـذاكـرتـك العاهرة. سوف أقتلك أخيراً. أتسمع؟ أتسمعني؟. . لا تذهب. لا تذهب. أتهرب مني؟ تختفي في عتمة المرآة؟. . . سألاحقك وأقتلك عند نقطة جبنك،عند نقطة الوسط أيها الجبان. أيها الجبان. لن تفلت مني مهما هربت. وسوف أقبرك معه. معهما؛ فيختفي وجهك وصوتك

مثلما على وجهيهما وصوتيهما أن يختفيا. هذا وعد. فأنت لستَ بعيداً عني مهما ابتعدت. أتسمع؟. يا للعنة!.. أنت لست بعيداً مهما ابتعدت!!.

# 1

**لا شيء يعلو هامتي غير السماء.**

فكّر، ونظر الى السماء التي ما يزال يحسّ بها تطبقُ عليه وتنأى؛ كانت سقفاً كامداً ضربته خطوط من الرطوبة القديمة. عاد رأسه للسقوط على الوسادة، وأغلق عينيه على نجومٍ يراها وحده. نجوم بعيدة وبحر يموج وسريره يموج والعرق في التجويف بين رقبته وكتفه يدبقُ على العرق المتنزّي من جبينه. أين أنا؟. فكّر ثانية لكنه، هذه المرة، لم يفتح عينيه، إذ حاول متفلتاً من اهتزاز الدنيا، أن يُنشّط ذهنه: بحر يموج!. حثّ الذاكرة على أن تعمل: بحر يموج!. حثّها بعنادٍ فيما كانت أصابعه المتشنجة تنتقل من الضغط على قبضة من الملاءة، الى الامساك بمعدته العارية: بحر يموج. وانقلب على جنبه حابساً في حلقه انبجاسة قيءٍ لم تكتمل.

دارت الدنيا فجأة، وحطّتْ عند رأسه. عندها؛ تراخت يده، وتهدّلتْ في المسافة الخاوية بين السرير وأرض الغرفة العارية.

أطلقت احدى السفن صافرتها. لكن البحر الموّاج ظلّ موّاجاً، حتى عندما التأم جرح السكون في الغرفة، حيث اليد المتهدلة في الفراغ.

الجسد هامد والذاكرة تستعيد بعضاً من عافيتها: «الوصول. الشمس الكاوية عند الاقتراب من الميناء. الضجيج الآتي من اليابسة المكتظة بالحياة. وجوه سمراء معروقة. قوارب صغيرة تقترب. ملامح من الحياة المتصلة التي انقطعت طوال يومين وثلاث ليال. أصوات جديدة طازجة وملأى بالحياة... الحياة...

الحياة. تقترب السفينة من الميناء. تخرجُ من حلوق الركّاب نبراتٌ أخرى غير تلك التي سادت طوال اليومين والليالي الثلاث. نبرات الحيوية المستعادة. العافية العائدة الى عافيتها.

نظر حواليه وكان في عينيه، رغم الإجهاد الكبير، جذلٌ وبهجة. عيناه ترمقان العيون الأخرى، فتريان فيها لغةً لا يجيدها اللسان. اللسان المتيبّس من هواء عرض البحر. اللغة الأكثر اختصاراً، والأحذق ايجازاً، والأسرع في الوصول. وها قد وصلوا. كان قارب رجال الشرطة والجوازات قد التصقّ بجسم سفينتهم. بات هو في وسط الحشد المتوتّر. الحشد البشري العائم الذي لا يقول لغةً ويتحدث بأكثر من لهجة. ظلّ على صمته مكابراً أن يصرخ صرختيه: تلك الخارجة من قروح باطن قدميه المملحتين بهواء البحر ورذاذه. والأخرى الصادرة من وجع القلب: «البرّ! ها رسونا على البّر الآمن!».

كان البعض قد اشترى بضاعة القوارب الصغيرة من الفواكه.

شقّوا كرات البطيخ الخضراء. تقطّر شرابها الأحمر الثقيل على أصابعهم. قمصانهم مضمخة بالعرق. شواربهم كثّة. ذقونهم طالت وأحالت وجوههم الى ملامح مرتبكة ومُربكة في آن.

كان يتفرس فيهم بما يشبه المحبة والاشفاق على نفسه والضحك على المشهد. كم هذا غريب! هل اطفأوا ظمأهم؟.. سأل نفسه، وأشاح بعينيه باضطراب الرجل المتململ، التوّاق إلى وضع قدميه ـ وإن كانتا متقرّحتين ـ على أرض ثابتة لا تهتز. رأى من ناحية جؤجؤ السفينة الأيمن بارجة ضخمة راسية. عندما دنا وسط الحشد، نحو افريز الجؤجؤ، وصلت اليه أصوات الوجوه المتطلعة اليهم من فوق. من شرفات البارجة المرتفعة كأنما على علو خمسة طوابق. وجوه بيضاء وسوداء افريقية. يضحكون بأفواه تمضغ اللبان، ضاجّين وهارجين، وبعضهم يشيرون بأصابعهم وأذرعهم الممدودة بمرح. ظلّ محدقاً رافعاً رأسه نحو الأعلى. قرأ اسم البارجة بحروفه اللاتينية الكبيرة. ثم، الى جانب الاسم، رقماً يتذكر أن احدى خاناته تحتوي على الرقم ٧، الذي أخذ يبتعد رويداً رويداً، الى أن غاب عن عينيه، وبقي جسم البارجة الرمادي اللون.

توقف محرّك السفينة وخفت الضجيج.

سمع أحدهم يقول من وراء ظهره: «المارينز! انها من الأسطول

السادس!».

لم يعلّق على جملته. انه زاهر النابلسي المشدوه لضخامة البارجة. كان يخطط ويفكّر كيف يتخلص من رفقته على اليابسة. وتقدّم ضمن الطابور الواقف عند باب مقصورة القبطان. في روحه نـداء جاذب، قوي؛ ولا مندوحة من تلبيته!.

بلغه الدور.

سألـه الضابط الشاب: «لبنانيّ؟..»، وأخذ منه جواز سفره الأخضر. تفحصّه مقلباً صفحاته المختومة. توقف عند صورته، ثم وجّه نظراته الى وجهه. لم يبتسم. علّق: «ـ لستَ لبنانياً..».

«ـ كما ترى.».

«ـ كم أدخلت من نقود؟».

أخرج ما في حقيبة يده من أوراق نقدية. دولارات. بعض الليرات اللبنانية. عشرون جنيهاً مصرياً. ثم دسّ يديه في جيبيّ بنطاله،..

«ـ حسناً. اقامة لمدة شهر ثم تجددها.».

«ـ شكراً.».

تناول جواز سفره من يد الضابط ذي البزة البيضاء. كان النسران المجنحان يحطّان على كتفيه. واستدار معيداً النقود والجواز الى حقيبة اليد؛ عندما سمع صوته يهتف به: «زيارتك الأولى لمصر؟».

التفت الى الضابط، فرأى وجهه بلا تعابير. اضطرب لثوان، ثم تذكّر أن ختم (ميناء القاهرة الجوي) مدبوغ على الصفحة الخامسة في جواز سفره القديم الملغى؛ فهزّ رأسه موافقاً، وقال لنفسه: «.. لكنها الأولى عن طريق البحر.».

لم يدرك على وجه الدقة سبب نفيه لتلك الزيارة.».

**العاصمـــة: ١٧ شباط ١٩٧١**

ها اني أقبضُ اللحظة على فراغٍ كان يملؤه وجهي.

أين أذهبُ بوجهي؟.

لا أمسك سوى الماضـي. يستدعيني إليه واسترجعه فندخل في اشتباك مرير ويطلّ علـيّ وجه العجوز الناحل العظمي العظيم الصموت. فأصمت حياله،

وأطأطىء الرأس حين يخرج على طبيعته؛ اذ ينطق الصخر أخيراً، ليقول لي: «ذهاب العكروت الى بيروت»!.

مخلّفاً العاصمة ورائي، قاصداً بيروت الى الرحيل....

لكن العجوز أبي، بوجهه المدبر في الحياة، يقول لي بعد أن هجر سبعة وسبعين عاماً من الصمت، المشغول بنادر الكلام، وهو يشرئبُّ نحوي بعنقه نافر العروق: «اني أرى القادم، وأنت لا تنفع»!.

طأطأتُ رأسي، وقلتُ لنفسي إن العجوز يخرّف.

وسمعته يضيف: «هل ستهرب منها، في الوقت المناسب، أيضاً؟».

وزاد رأسي طأطأة، فسحبته مع قدميّ الى خارج غرفة العجوز البيضاء، الباردة، وغادرت المكان منفلتاً من رائحة الدواء والتعقيم. لا أذكر اني سألته إن كان يريد أن يوصي بشيء... أن يوصيني بفعل شيء... قال لي أنا لا أنفع. أنا لا أنفع. كنت أهبط نزلة مستشفى الهلال الأحمر نحو السوق. الاسفلت الأسود جداول من الماء الطينيّ. وأنا هو أنا الذي يندفع منحدراً الى السوق الشعبية بقوة الجاذبية الأرضية وثقل الجسم. أرفع رأسي الذي كان منخفضا، فأرى المدينة تذوب في انكماشها الذاتي، وفي شبه الضباب المنتشر كالغلالة على البنايات المرميّة في المدى البعيد، المُحدّب. لا لون لهذه المدينة ولا بحر فيها غير السيل المسقوف المحترق الحجارة. لا منفذ ولا نوافذ. جدرانها التي أراها تنحدر معي، بالاختراقات المفتوحة في صلادتها المتفحمة، حجارة. وكذلك الأرصفة حجارة. والوجوه الذاهلة المذهولة السائرة كالدمى المسيَّرة، أو السائرة في نومها. وأسير مقترباً من فسحة مكشوفة هي المقبرة المسوّرة. يصيبني ارهاق مفاجىء. تعب ما يتسلقني من داخل. ما زالت عافيتي فيّ.. انها الارهاق يقبض على القلب فأستند الى حجارة السور المدببة. أراني أمنح نفسي لأشياء المدينة. يطلع أذان الظهر من مسجد المقبرة، ويخرج بعض عمال الكراجات من عتمة محلاتهم، أراهم ينفضون مؤخراتهم المتربة الكامدة كيفما اتفق، يتوجهون الى الزقاق الموحل حيث باب المسجد الذي طُليت قبته بالاخضر الأبهتته شمس حزيران وايلول الماضي، وارى في استنادي الى السور نخلتين مكللتين بغبار لاصق رغم المطر والاسفلت النازل نحو نهاية شارع بلال، أنزل معه، وأخوض في لزوجة الناس وضجيجهم وتدافعهم وارتطامهم ببعضهم واعتذاراتهم البلهاء في عيونهم الذاهلة والنسوة الامهات والاخوات

العازبات والمتزوجات والجدات السافرات منهن والـمُحجبات والصبايا المحشورات في ازدحام أرتال ظهور الرجال المنحنية فوق الاحذية المستعملة طراز نيكسون والقمصـان والكنـزات الصـوفية غليظة النسيج المفـروشـة على الارصفة المبلّلة والشرطي الساهم عن الجميع والأصبع الذكرية المتنبهة الى سهوة الردفين الطريين الملامسين لوسطه فيلتصق بهما ويُمعن فيهما اكتشافاً وباحدى ركبتيه يرفعهما اليه وبـاليدين الاثنتـين الطافحتين بالطراوة الساخنة يضمهما اليه وتضيع في تراص الابدان المكفّنة بثقيل الثياب زعقة الفزع الهلعة الخارجة من قعر الرأس المصدوم على انتهاك العجيزة العزلاء وفي الفراغ الابيض لعيون الرجال وفي الثقوب السوداء التي احدثتها الطلقات في الابواب الصفيحية للمحلات المغلقة واتساءل ان كان هذا ما نويت الهروب منه ام ثمة ما لا قدرة لي على رؤيته وتمرّ دورية محمولة شاهرة رشاشها باتجاه السماء التي اختنقَ لونها وتلاشى في طبقات غيم رمادي رتيب لم تخفف منه ألوان النيونات المتسخة ليافطة دكّان الفلافل والبطاطا المقلية ولا اعلانات سينما الفردوس الورقية المتهدّلة بماء المطر عن فلمين بتذكرة واحدة احدهما من بطولة فريد الاطرش وسامية جمال والثاني عن هزيمة ثوار بوليفيا وموت غيفارا طبعة عمر الشريف وبتنا نقول اننا خارجون من هزيمة لم تكن في البال ولا في الخاطر انما ها المدينة تستعيدُ زخمها وتضمُّ في ازدحامها الجميع ولا أرى في الناس الاّ الذهول المتشاغل عن صدمته بالغوص في أشياء الحياة اليومية وتزعق سيارة أجفل لصوتها وأتطلّع لأرى سائقها يشتمُ رجلاً ويصفه بالعمى يبتعد بين الناس وهو يهزّ رأسه ويرفعه نحو السماء كأنما يخاطب الرب وأسمع عندما أتلفت كالمنوّم متلقياً ما أراه زعيق بائع الكبدة والطحال المفلفلة المبهّرة المملحة والقلوب النازّة دمها رغم الشواء في بطن الرغيف الابيض المقبوض عليه بالأصابع العشرة للمنادي على أجهزة الراديو الترانزستور اليابانية وبطاريات ايفر ريدي ماركة القطة ووصلات الأسـلاك الكهـربائية ذات الاستدارة، وكنت لحظتها مسمّراً بين رجلين توقفا ليتجادلا حول ثمن شيء اختلفا عليه، فانتبهت له يدني رغيف القلب من فمه الذي شرعه على آخره ليقضم القضمة الأولى حين دوىٰ صوت اطلاقات متتابعة علت على غيرها من أصوات الضجيج، فنظرت حولي، ورأيت العيون تتلوّن وتعبأ بالذعر، وتذهب باتجاه أزقة سوق الجزارين، الذي يقود الى ساحة سوق الخضار، حيث تدفقت من مساربه حشود الناس المتراكضة الساقطة فوق بعضها، فتسمّرت

بين الرجلين اكثر، وكانت رؤوس الناس ترتطم بالبسطات الخشبية فتتساقط رؤوس الملفوف واللفت والقرنبيط والبندورة على رؤوسهم المهتاجة ويتمرغون بوحل الأرض الـزلقـة المغطاة بقشور اليوسف أفندي وأرومات الخضار التالفة وثمار الشمندر العفنة. وكنت ما أزال مسمّراً بالرعب الهائج، عندما اندفع رجل هائل من غبشة زقاق الجزارين الثلاثة وقد تغطّت سترته البيضاء بالدم الذي جذب عينيّ لحمرته الداكنة الواضحة!. عند هذا هيمن هدوء مقبض، تخللته زعقات مجهولة متقطعة، في الزقاق.

وقف الرجل ماداً ذراعه اليسرى أمام عينيه. بوغت، ودققت، لكنني لم أُدرك للوهلة الأولى ماذا يحمل. كان رأسه ثابتاً، وكنت أميّز من مكاني ترسخ عينيه على ما في يده. لكن، فجأة، هالني ما رأيت!. وولدت على الفور همهمة صاخبة من حشد الناس. كان يقبض على رأسٍ آدمي مقطوع!.. لم أتبين ملامحه. لكنه رأس آدمي. اما الرجل، فلقد ظل محدقاً بالكتلة الدامية التي يرفعها بيده، ثم أخذ يترنح في مكانه. بدا لي وكأنه آخذ بالتشنج بينما فرّج ساقيه، ربما كي لا يقع، غير انه هوى على وجهه، محتفظاً بالرأس المقطوع، في اللحظة التي برز فيها من ورائه جنديان من الدوريات الخاصة، التصقا بالجدار، وهما يصوبان نحوه بندقيتيهما سريعتي الطلقات، ذاتي الجسم الأسود الطويل*.

□

---

* ـ *لم تذكر تقارير المخافر ومراكز الشرطة أي شيء عن الملابسات الخفية لهذه الجريمة، أو دافعها. واكتفت بتسجيل ما حدث ضمن احداثيات اليوم، الاربعاء، ١٩٧١/٢/١٧، مفيدة بأن المواطن (....) البالغ من العمر ٤٧ عاماً، والذي يعمل جزاراً في سوق الجزارين، مالك لصنعته وليس أجيراً، مستأجر محل الجزارة في مُلك المالك السيد (....) منذ عشر سنوات، وتحديداً بتاريخ ١٩٦١/٥/١٣. كما انه ذكر في تقرير مخفر المنطقة، المسؤول عن أمن منطقة السوق، اسم المغدور، ويدعى (....)، ٣٣ عاماً، ويعمل بائعاً للسقط. أما عن أسباب الجريمة، فلقد اكتفى التقرير: «بأن عملية القتل تمت، وفق أقوال الشهود، والمأخوذة دون ضغط أو اكراه، بسبب مشادة كلامية أثارت القاتل،*

تفلّتُ من الكتلة البشرية الآخـذة بالتفكـك. أضربُ شرقاً في الشارع العريض. أسلكُ طريقي صوب قلب المدينة. اكتشفُ خطواتي تدخل في الطين اللزج وتقودني الى منزل مروان بن مهجة. أصعد الدرجات الحجرية القليلة. أستردُ أنفاسي ـ ألهث. وأدقّ على الباب الحديدي المدهون والمتوّج بقنطرة عالية نما بين شقوقها نبات أخضر.

يمرُّ وقت. تلسعني برودة الهواء الصاقع. أرفع ياقة سترتي. أغطي أذنيّ. أسمعُ الوقْعَ البطيء لمشية أم مروان في الداخل. صقاعة الثلج، الذي انهمر قبل أربعة أيام، ما تزال في الأرض والهواء. أحسُّ بها في جلد حذائي. يُفتحُ الباب بصريرٍ مخنوق.

أدخلُ.

تسألني: «كيف حالك، وكيف أمك؟».

«بخير». تكون نظراتي قد انتقلت من صورة مروان، المعلّقة فوق رأسها، الى السجادة الحمراء على الأرض. أرى قدميها بالجوارب النسائية الثقيلة. أرى خُفيّها المنزليين ملتصقين ببعضهما. طرف الكنبة زيتية اللون، بالشراشيب التي تكاد تمسّ الأرض. الصمت ثقيل وأصابعي تفرك بعضها. لا أعرف كيف أقول لها. ستسـأل. لا بد انها سوف تسأل. هل اكذب؟ هل تنطلي الأكاذيب على الأمهات الثكلى؟. . ستعرف انني اكذب. سوف تعرف بالتأكيد. سأهرب من المكان.

---

*فضرب المغدور بساطور اللحمة الذي كان يحمله وقت الفعل.». أما فيما يختص ببقية الحادث، فلقد أفاد التقرير ايّاه بأن رجال الدورية الخاصة عندما صادف مرورهم في السوق سمعوا أصواتاً مذعورة فهرعوا الى مكان الحادث وشاهدوا فعل القتل في آخره. فما كان منهم الّا أن طلبوا من القاتل تسليم ساطوره وتسليم نفسه. الّا انه هاج أكثر واندفع نحوهم معترضاً طريقهم، مما دفعهم الى اطلاق الرصاص عليه دفاعاً عن النفس.*

*ـ بعض المطلعين أفادوا، أن السبب الحقيقي لفصل رأس بائع السقط عن جسمه إنما يتمثل بكون الأخير قام باستفزاز الجزّار وجرحه في أعز ما يملك وأغلى ما يدفعه لرفع رأسه عالياً بين الناس. . ألا وهو الشرف!. ولم يكتف بذلك، بل*

«هل رأيت تيسير؟».

ها هي تبدأ.

«قبل يومين. يسأل عنك.».

«تسأل عنه العافية. كيف هو؟ أما يزال يريدُ السفر؟».

«نعم. حصل على التأشيرة.».

تنّهدتْ: «اذن سيسافر. لا أعرف ماذا ستعطيه ألمانيا. وأنت...»، رنَّ جرس الهاتف، فنظرت صوبه حيث قامت تجرّ خطواتها الهادئة، البطيئة، على السجادة بلا صوت، حتى توقف الرنين، وطلع صوتها يقول: ألو؟...

رفعت وجهي الى الجدار المقابل حيث كانت تجلس. مروان. وجهه نصف الضاحك. شعره الجعدي القصير. عيناه بالألَقِ المحجوز وراء الزجاج. ذلك الامتداد الطولِي لجانب وجهه. إن هذا الجانب هو أول ما رأيته من مروان. لم أقُلْ هذا لأحد. لم أقله لأمه رغم جهدها لغرفِ وجمعِ كل تفصيل عنه. تريده أن يحضر في التفاصيل. التفاصيل تعيده اليها. تركّبه وتجمعه حيالها رغم غيابه. ونحن من التفاصيل في نظرها. رفاقه. أنا تفصيلٌ يحكي عن التفاصيل. لكنني لا أحكي كل شيء. هذا لي وذاك لها. أفكّر. يأتيني صوتها من المدخل: «سأعدُّ لك الشاي.».

يهتزُّ خيط التأمّل ثم يعاود الامتداد. أمتدُّ نحو الوجه القابع خلف الزجاج وأدخل فيه. لا يمانع. أنحشر معه فلا يحتجّ. الموتى لا يحتجون. الرفاق الأصدقاء

---

*بالغ في تجريسه والتشهير به وكشف المستور من سرّه على الملأ وبحضور غرباء!*

*ـ يضيف المطّلعون، أن الجزّار كان قد قطع وعداً للمغدور، منذ أكثر من سنة، أن يزوّجه ابنته الصغرى حال تخرجها من المدرسة وحصولها على الشهادة الثانوية. لكن أمراً ما طرأ، حال دون وفاء الجزّار بوعده لبائع السقط، مما أفقد الأخير صوابه ودفعه للالحاح المستمر اليومي في البداية، ثم طفق يتوعد الجزّار ويتهدده بالتشهير به؟!.*

*ـ يكشف مطّلع ـ فضّل عدم ذكر اسمه ـ عن الأمر الذي حال دون اتمام الوعد، فيقول: إن الفتاة موضوع الخلاف ليست بفتاة! انما هي امرأة. فلقد فرّطت بعفتها وعفافها إذ ذهبت مع أحدهم في سيارة مرسيدس ٢٠٠ موديل السنة وهي*

يصمتون ولا يشكون. لكنه احتجّ، خرج من صمته الخجول واشتكى لأنهم لم يُنظّموه. غضب وشتمنا. ضحكنا. لم نغضب. كان صغيراً. قال يومها: «أنتم تخطئون أيضاً.». وكان يقصد الكبار. ولم نكن أكبر منه بذلك القدر. لكننا لم نعلّق. فواصل غضبه دائراً في ساحة التدريب الحرجيّة. كنت أجد في عينيه سراً يتكشّف شيئاً فشيئاً. يتعرّى كلما ارتعش وجهه الأسمر. وجهه الأسمر المعروق. الامتداد الطويل لجانب وجهه المدبر عنّا. كانت رقبته الغليظة تلمع، بينما تخرج الكلمات الهائجة مبتلّة برذاذ فمه. كنت أرى السـرّ يتكشّف في عينيه شيئاً فشيئاً. . فيجفلُ قلبي. خفتُ، إذ لحظتُ، فجأةً، أن نظراته تتوزع المسافة بيننا وبين بندقية مركونة عند جذع شجرة. كانت شجرة صنوبر. أذكرها، كنا نتحلّق تحت ظلّها للتدرّب على معالجة جسم الأسلحة. خفتُ أن يقوم بعمل أهوج! خفتُ. لم أرَ أفكـاره، الاّ انني انتبهت الى نظرتـه تخطف البندقية، وتوجهها الينا. يسحب «أقسامها»، ويدع أخمصها الخشبي يغوص في الفجوة بين كتفه الأيمن وجانب ثندؤته. خفتُ لحظتها وانتقلت عيناي الى الآخرين. لم نقل شيئاً. ربما الخوف. لكننا لم نقل، تجمدنا في أماكننا. كنا مُحاطين بالحرش؛ في قلب الحرش، عندما مزّقتْ رصاصتان الهدوء، ففزعت طيور الأشجار. اصطفقت أجنحتها طائرة في السماء. تساقطت بعض الأوراق اليابسة. طلعت زوبعة غبار صغيرة في البعيد. خرجت صرخة وحشية تسأل عن الأمر. ثم تبعها سكون الحرش الموحش. تسلطت عيوننا على مروان الساهم والثابت في وقفته. رأيناه تمثالاً توقفت حركته عند نهاية

---

*بزيّ المـدرسة، وعادت الى بيت أبيها امرأة على يد صاحب المرسيدس (يقول بعضهم انهم رأوه في كثير من الأحيان يتمنطق بمسدس، وانه مكفول بحماية من جهة ما!).*

*- يستمر المطّلع الذي فضّل اخفاء اسمه ويستطرد قائلاً: لاحظت الأم التغيّـر الحاصل على ابنتها آخر العنقود، فضغطت عليها حتى أفضت لها بسـرّها. فما كان منها الاّ أن أخبرت الأب الذي جنّ جنونه، وهدد وتوعّد بذبح الرجل المجرم السافل وسلخه وتقطيعه ورميه لكلاب السيل وقطعه اذا لم يعترف بجريمته ويتزوج الابنة المسكينة قُرّة العين الطفلة التي لا تعرف الفرق بين أصبع النقانق وعضو الرجل!. «هكذا قال الأب الجزّار»، يوضح المطّلع. ثم تعترف الطفلة التي*

فعل! انسحب الغضب من وجهه. كأنما انزلق على الطول الممتد في جانب وجهه. غير أن عضلة تقلّصت عند زاوية فمه المطبق بابتسامة شاحبة. تجرأ احدنا، فالتفت الى الوراء. ثم نهض الى المكان، حيث انغرست الرصاصتان وسمعناه: «لقد تفتت العقرب!».

لم أكن أعرف عن العقارب.

«يستاهل!»، قال أحد الذين هرولوا من رأس التل. اقترب من ساق الشجرة، حيث التصق العقرب أشلاء، وقد انبجس منه سائل بنّي بعض الشيء؛ ثمة رائحة لصمغ محترق.

**اذكر هذا الرجل جيداً. ظلّ صامتاً الى أن انتهى الهرج، وردّات الفعل على حادثة الاطلاق. نفث دخان سيجارته غير مكترث بما يجري من تعليقات عن الانضباط، ومجّانية اطلاق النار. بدا لي كأن المشهد لا يهمه، لكنه بعد أن انفضّ الآخرون، وغاب الذهول عن وجه مروان، تنحنح برأس مطرق.**

**هيمن سكوت. حلّت روح هادئة، عميقة، في الموجودات. انتقلت الى** الرجال. جبلتهم في ما يشبه الوجوم. الوجوم المثقل باحساس الترقب لشيء ما سيصدر عن الرجل.

**ضحك مستهلاً حديثه. ثم قال: «يستاهل!». فتطلع الواحد منّا في الآخر. «العقرب»: استطرد: العقرب شيء بشع. نعم.. انه بشع. ولكن يا رفيق - متوجها الى مروان القريب منه -، أتعتقد أن رصاصتيك راحتا سُدى؟.**

---

*انتفخ بطنها وثقل نهداها الصغيران في كفّيها المتسللين تحت قميص نومها في الليالي الهادئة الخالية من تبادل الرصاص المتقطّع والانفجارات البعيدة الغامضة، تعترف لأبيها الهائج باسم صاحب المرسيدس ٢٠٠ موديل السنة وأين يقيم.*

*- تقول احدى الجارات الصديقات، وهي عانس، انها أفاقت ذات ليلة على أصوات غريبة تحت نافذة غرفة نومها. «خيريا رب الخير!»، ونظرت من نافذتها المطلّة على فم الحارة، فرأت سيارة مرسيدس كبيرة لونها غامق تقف وينزل منها رجلان. وتقول انها لم تستطع رؤية وجهيهما بسبب العتمة. وتضيف بأنها رأتهما يفتحان باب السيارة الخلفي ويحملان شيئاً كبيراً بدا ثقيلاً لكنه سرعان ما بدأ يتحرّك، «يا لطيف الطف! كنت أظنّ أنه من الأكياس الثقيلة التي صارت تُنقل*

وكأنه لم يكن ينتظر جواباً، أو تعليقاً، إذ تابع: «الرصاص رخيص. ثلاثة قروش الى خمسة. بسيطة. أتعرف؟.. أنت هدّاف جيد. قد تصلح لأن تكون قنّاصاً. لكنك صغير. لا تغضب من حديثي. لكن، هل سألت نفسك إن كانت العقرب تساوي ثمن الرصاصتين؟.».

رأيت مروان محرجاً. فتطوعت لأجيب عنه:

«لسعة العقرب تساوي حياة رفيق؛ يا رفيق.».

فجاء ردّه هادئاً: «كان بالامكان قتله بالحذاء. أو بكعب البندقية.».

فتوفزتُ: «هكذا شاء الرفيق مروان. أن يكون بالرصاص.».

فاستنتج الرجل بأدب: «وهذا ما أعطى للعقرب قيمة».

تراءى لي ان الرجل يناقض نفسه، فقلت مندفعاً: «لكنك قلت يستاهل!».

«نعم. يستاهل الموت. ثم ان النقطة التي أحاول..».

فقاطعته: «لا لوم على مروان. صغير ومتحمس!».

تملّاني طويلا. وسمعته: «ها أنت قلت. من الأفضل تنبيهه. ليست كل المسائل قابلة للحل بالرصاص. دعه يعالج المسائل الصغيرة بهدوء.».

اعترضت: «هذا زمان الصخب.».

كتم شيئاً شارف على قوله. صمت للحظة. ثم قال:

«زمان الفعل المتأني. الواثق. يا رفيق. الرصاص رخيص. إنما هو صعب جداً. وعندما تساوي بين رخصه وصعوبته، فانك تساوي بين الحياة والموت!».

---

*ليلاً في الحارات ويهرّبونها من البيوت مرات والى البيوت مرات!». قالت الجارة. لكنها فوجئت بأن في الكيس رجلا يزحف على أربع، ويئن، ثم يقف على قدميه بصعوبة، ثم يتقدم منه أحد الرجلين ويضربه على وجهه، ويصرخ فيه ـ انها تتذكر كلمات الرجل لأنها كانت ذات لكنة غريبة على لكنة أهل الحي، وواضحة في هدوء الليل ـ، قال له اذهب وجرّب ابنتك فهي «مفتوحة» الآن وطريقها سالكة!! ايّاك أن تأتي مرة ثانية والّا سأجعل منك مَرَه (امرأة) وسأدعهم يأخذونك من مؤخرتك ويعلقونك كالسخل من سقف محلك!! هل سمعت؟ أنا لا أتعامل مع بضاعة مستعملة وفاسدة!!.*

*ـ لم تقل الجارة العانس شيئاً عما حدث فيما بعد. غير أن الابن الأصغر*

«كيف؟».

«قتل العقرب باطلاق النار عليه. ألم يكن محتملاً أن تطيش الرصاصتان، فتكون أنت، مثلاً، مكان العقرب؟. ألم يكن سهلاً قتله بغير الرصاص؟.

ثم اقترب من مروان، باتراً الحديث معي، وقال:

«دعك من لعبة النار يا رفيق. ليست مناسبة لكل الأوقات. اذا جعلتها تأخذك فلن تعود منها أبداً. هل أقول لك اننا عشّاق حرية ولسنا بمحترفي بنادق؟. أظنّك تعرف هذا. النار عند الضرورة القصوى. والاّ، فانها سوف تحرق الجميع. وربما مضرمها قبل الجميع!.

استسلم مروان لحديث الرجل رغم حماسه. لا بل رأيته وديعاً لا يناكف. لم يعلّق. خلتهُ يتشرب المعاني حتى آخر صوت. يتخفف من هيجان مشاعره حيال تأجيل قبوله في التنظيم السياسي.

أذكر ان الرجل قال: «لكل أمر وقته. لا تسبق الأشياء والاّ..»، وأمعن فكره قبل أن يستكمل الجملة. بدا وكأنه يدرس الكلمات قبل التفوّه بها. «..والاّ سقطت كالثمرة في غير أوانها. أو قبل أوانها!».

وقام.

استند الى جسم بندقيته المائل كعصا منتصبة. ارتكز عليها وقام. لكنه، قبل أن يشرع بالابتعاد، رأيته يدقق النظر في وجه مروان. يتملاّه بعينين حانيتين تكادان تدمعان. رأيته يمتحُ من نضارة مروان قبل أن يغيب عنه. رأيته يكرّس

---

*(١٣ عاماً) قال لأصحابه أبناء الحي، انه صحا على صوت أبيه وهو يئن. وأنه لـمّا نهض من فراشه، رأى والده وقد تلطخ وجهه بالدم، وتعفّرت ثيابه، وكان يستند الى كتف أمه وهو يضغط بكفّيه على عينيه، وانه كان يصدر أصواتاً خافتة مخنوقة بدت له مثل صوت أمه عندما تبكي، كعادتها، في المطبخ والبيت خال الاّ منهما.*

*ـ أما الذين اطّلعوا على نتائج القصة، وهم الرجال أصحاب النخوة الذين سارعوا الى محاولة اصلاح «الخطأ»، والى التوفيق ما بين الخطيب الموعود بعروس بكر، وهو بائع السقط، وبين الأب الجريح في شرفه، فانهم يضربون كفاً بكف، ويتحسّرون على نقصان العقل والدين لدى الرجلين.*

في ذاكرته هذا البدن الوافر الفائر بالحياة.

إلهي!.

أكان يرى ما لم نره نحن!

أرى مروان ينفكُّ عني وينفصل. بيننا المسافة الخاوية الاّ من تيّار الهواء البارد المنسرب من تحت الباب وأظلاف النوافذ. المسافة الفارقة بين الميّت والحيّ. هذه المسافة الصعبة والهيّنة في الوقت نفسه. لقد اختار. اختار مروان ونفّذ اختياره. ذهب مع اختياره واجتاز المسافة. انتقل من حالة الى حالة وظللت قبالته أشخص اليه فأرى الألقَ المحجوز وراء الزجاج. الألقَ النافذ الـيّ ليذكّرني بالبرودة. برودة المكان وبرودتي الجسدية. أجدني أرتعش. قلبي يرتعش لا يخفق. أسمع خطوات أم مروان تأتي. أسمع اهتزاز الأكواب الزجاجية على الصينية. يعاود الألقُ تنبيهي الى الارتعاش. ترتعش الذاكرة ويهيّجها مروان الصامت القابع في اطاره الأسود. أتذكّر شيئاً قرأته. أقرأه الآن في المسافة الخاوية بيننا. أقرأه يقول لي في المسافة الفارقة بين حالته وحالتي اننا وإن ولدنا بطريقة واحدة، الاّ أن للموت أكثر من طريق، ولذا فان اختيارنا في أيدينا، وان الحياة ليست مزحة سمجة. ربما تكون مزحة؛ لكنها مزحة نعبئها بالحكمة التي نختار.

لقد اختار مروان وها أنا أجلس قبالته، في بيته البارد، وتدخل علـيّ أمه، فأنهض وآخذ منها الصينية السوداء المرسوم عليها بدهان برتقالي وأحمر، فلا يتوقف صوت الاهتزاز، فأسرع الى وضعها على الطاولة الواطئة في وسط الغرفة. اكتشفُ

---

*فالأول، وهو الخطيب، رفض أن «يستر» على خطيبته، وأن يتزوجها بما تحمل في بطنها المنتفخ. لا بل زاد الطين بلة في تقريعه المتكرر للجزّار والد الفتاة التي تحوّلت الى امرأة دون مقدمات شرعية، وفي تذكيره الدائم له بابن السفاح في بطن الفتاة، وعجزه عن مسح العار الذي لحق به!*

*والثـاني، الأب الجزّار، فانه تحيّـر ماذا يفعل. هل يذبح ابنته الحامل، وبذلك يمسح عارها وعاره. أم يتركها تعيش في كنفه رأفة بها وبالجنين الذي سيخرج الى الدنيا.. وهو حفيده على كل الأحوال؟؟.*

*ـ بعض هؤلاء الرجال أصحاب النخوة، قالوا ان الأب اصطحبَ ابنته ذات ليلة الى أحد المقالع المهجورة خارج المدينة، رغم حظر التجوّل الليلي وتعرضه*

أن أصابعي ترتعشُ أيضاً.

يبغتني الادراك: «اختار مروان دون أن يقرأ ما قرأت! مروان لا يقرأ. لم يكن مروان يحب الكتب لكنه اختار. قرّر أن يختار وقَدِرَ عليه! خاض في اختياره حتى النهاية. حتى الموت. رآه يتقدم من خلف الأفق، وسمع دبيبه الواثق تحت الأرض، فبقي، وغادرت أنا. غادرت أنا. . .

يضيقُ الوقت فجأةً. أضيقُ أنا. فلا يكون مُتّسعٌ لإكمال شرب الشاي.

تقول لي: «أكملْ شرب الشاي!».

فأقول واقفاً: «لا داعي. لا داعي.».

وعند الباب المفتوح على الشارع الرابض تحت مطرٍ ثقيل، تضيف: «لكنها تُمطر. إبق حتى يتوقف المطر.».

«لا. شكراً!».

وتسأل بينما أهبط الدرجات القليلة: «وأنت. هل ستسافر مثلهم؟».

أتوقف على الدرجة الثانية. ينحني رأسي وأرى المزراب يضخُّ دفقات الماء فيسيل على الجدار، ويرتطم على حجر الدرجات فينفلش ويهبط الى الشارع. أرى دودتين شريطتين سوداوين وقد التفّتا كالخاتم والتصقتا بالزاوية المحميّة عند التقاء الدرجة بالجدار المبلول.

أرفعُ رأسي اليها. يفصلنا المطر والسؤال. أُقرّر:

«أظنني سأسافر أيضاً. سألتحق بالآخرين! . .».

---

*لمشكلة الاستجواب والتشكيك، وأنه قام بذبحها، ودفنها تحت الأرض، بين الصخور الكبيرة!.*

*ـ أما البعض الثاني فلقد زادوا ايضاحاً للحقيقة اذ قالوا أن الأب تقصّد أن يخرج بابنته من الحي الذي يسكنون فيه، في ليلة جنّ فيها القتال بين آخر المسلّحين في المدينة وبين دورية محمولة، ودفع بها الى المنطقة الوسط بين الرصاص المتبادل واطلاقات القنص، وعمل على ان يدعها هناك كي تموت برصاص أحد الطرفين. ومنذ ذلك الحين اختفت الفتاة ـ المرأة ـ الحامل، ولم يعد يشاهدها أحد.*

*ـ لكن طرفاً ثالثاً، وهو الذي فضّل عدم ذكر اسمه، أفاد أن الفتاة استطاعت التخلّص من أبيها في تلك الليلة، وانها هربت، وانها عاشت الشهور*

ودون أن أنتظر تعليقها، أكملُ هبوط الدرجات، وألتصقُ بالجدران سائراً حذاء واجهات المحلات التي أضاءت أنوارها الداخلية.

غادر هو.

غادر عند تيقّنه من إشارات الموت القادمة من وراء الأُفق. سمع، هو أيضاً، دبيبه الواثق تحت الأرض.

غادر؛ إذ ارتجف قلبه، وهربت روحه الى حلقه تبغي الفرار. المغادرة. مغادرة بدنه الذي اطمأن خارج دائرة النار التي اشتعلت. خارج فضاء المدنية المتلوّن بالأحمر.

«ويلي!». هتف في داخله يومذاك. «أهربُ من النار الى التلظي، فأتعثر بروحي!».

«العاصمة تحترق»!. عناوين الصحف. يمارس عليها طقوس العذاب ومازوشية جلد الذات. تجتّره العاصمة قطعةً قطعة. تمتصّه قطرة قطرة. تتمرأى له بجبالها السبعة، كبراكين سبعة، وتنفث حُممها. يحجبُ الدخانُ السماءَ وبقية الصّور. يقرأُ تحتها: الجبل (. . .) يحترق. - صورة من رويتر - !. بعض الأشلاء والجثث في أوضاع كأنها مخلّفات مذبحة: الرأس على الرصيف. الذراعان نائمتان. ذراع ملتوية نحو الظهر. ذراع مشبوحة باتجاه الله في الفضاء المغبش. الأصابع مفرودة مفرودة منذ لحظة الموت. ما تزال مفرودة. وبقية الجسد مشلوح

---

*الأولى تتنقل، وعلى وجهها خمار أسود، من بيت عازب الى بيت عازب آخر، الى أن وضعت جنين بطنها، وكان ذكراً، وقد سمّته ذياب على اسم الرجل الغامض صاحب المرسيدس ٢٠٠ الذي اغتصبها وزرع فيها خليفته ذياب الثاني.*

*وأضاف هذا الطرف الثالث - مشدداً على كتمان اسمه - مفصحاً أن أم ذياب الثاني قد عملت كمنظّفة في أحد سجون المدينة، وانها تعيش الآن زوجة لشرطي مجهول الأصل والحَسَب والنّسب، قَبِلَ بها مع ابنها وهو في شهوره الثلاثة الأولى.*

مذبوح بين الرصيف المرتفع واسفلت الشارع الأسود . ـ صورة التقطها أحد المغادرين ـ ! .

ويدقُّ رأسهُ بالحائط .

يسأل : «أنادمٌ أنا؟!» . ثم يترنّح مشيحاً عن الحائط : «هل يجدي ندمي بعد دمار غرناطة؟ وأريحا؟ والقنطرة؟ وبحر البقر؟ . . وجميع المدن الخاسرة؟ . عليّ بالبكاء اذن!» .

ليس وحده الذي يبكي . ليس الوحيد الذي خرج من باب الشقة المفروشة في «مصر الجديدة» . نزل الى الشوارع . دخل في الجموع الغاطسة في دموعها، وذهولها، والأسى القابض على أرواحها . تداخل فيها علّ أنينها العظيم يخفف عنه عذابه . كيف؟ . . «أهرب من البلل الى لجةّ الغرق . ابكي مدينتي المتفحّمة . رفاقي الذين اغتالتهم الطرقات الملغومة . المفخخة بالهلاك . وفوهات الموت المغتّر بعافيته وفتوته . » .

فتوةٌ تأكل نضارة . موت يفترس الدنيا . حديد يهرس لحمًا . نار تلتهمُ قلوباً وأماني لم تنضج بعد . لم يحن قطافها بعد . لم تتخط الفرحة عتبة الفكرة . لم تكتمل .

يجهض الحلم في وضح النهار .

والموت لا يكلّ . أفلت من عقاله . لا يتعب . ألغى اجازاته وجعل يطوف في البيوت! يُلقي بظلّه الثقيل على جدران المدينة، وفي دخانها الفاحم يعبقُ نذير مقتلةٍ لا رادٍ لها .

تنكسر القاهرة على خبر يشيع . يقهرها الخبر . موت على موت . تهتزُّ الجسور وتترنحُ تحت هدير بحر البشر . تئن، وتغصُّ بالقيامة . يرتدي النيل صمته الأبدي الأزلي، وينحـدر في شرايين المـدينة جليلاً . يبعث بمويجاته الزلقة الى شواطئه العشبية . يبللها . ويتوارى في الليل الكبير .

يختفي الزعيم .

تظهر صورهُ مجرد صور . فوداه الأشيبان يدعان للرسام مجالاً لأن يتفنن . رأسه الكبير . أنفه الصقري . جبهته العريضة . وهناك الجبهة المشلولة على وقع الخبر . المستيقظة على مدافع الاستنزاف التي نامت .

«مات الناصر المخذول!» .

والبلاد خاسرة .

«أنا الخاسر! . متى يعود النصر من منفاه؟ . . والمدن الاخرى تعلي رايات السواد وليست هي بيارق التمرد، ولا أعلام خروجها على الطاعة! . »

موت فوق موت.

مدن فوق مدن.

« . . الحزن الفاجع صفائح صفائح تسوّينا. والأرض تقبل الجميع. لا ترفض احداً. ».

ينتر رأسه الضائع بين الآلاف. يقف على رؤوس أصابعه. يظلُّ النيل على يمين الجسر وعلى يساره غائباً مغيّباً وراء الحاجز البشري الهادر. من مصر الجديدة الى ميدان التحرير. من مدينة المعارض حتى آخر كوبري ومعبر يقود الى الدقي. الاسدان الامبراطوريان يرقبان المدّ البشري اللحمي بصمت الحجر. تنطبق السماء على الأرض سطحاً باهتاً على بشر مبهوتين! .

الجبهة شلّها الخبر. خار الرجال في الخنادق. خاروا في هياكل لحمهم، والنيل، أمامهم، في القناة. النيل مزْعٌ أفقيّ عمره أربع سنين. مزْعٌ ينتظر أن تنطبق ضفتاه بالتواصل كي يندمل.

«هل يندمل الجرح في لحمنا إن هو انفتح؟!».

دخل في الجموع البشرية والتحم بها.

«أرثي مدينتي هناك، أم الرجل هنا؟ . . »؛ وتذكّر ما كان يعرفه: «أم نفسي!».

□

السماءُ سقفٌ واطيءٌ، والأبعاد جدران صمّاء.

□

يذكر أن مروان تبسّم له في يوم، بعد الحرش والعقرب، وقال له:

«أظنني كنت متسرّعاً. ».

«بريء هذا الصغير. »: قال لنفسه: ورآه يشتعل بضحكة سالت على امتداد وجهه الطولي كأنما يعتذر. فانطفأ هو. اشتعل مروان، فانطفأ خالد.

كان متوهجاً بالتسامح. يرميه في وجهه دونما حساب. فيترك لدى خالد خسوفاً يخطف من روحه تألقها. يتوهج مروان، فينخسف خالد.

ثم بات يريد أن يكتسح وأن يطيح بهم. جميعاً. الكبار. كما قال يوم

الحرش. الكبار الذين فرّوا منذ اليوم الأول لاشتعال الحريق. الكبار الذين احتفى بهم، فاستضافهم في قائمته السوداء!.

«مجنون!»: هتفوا به، لن تصلح شيئاً بعد هذا.

«والحريق الذي أضرموه في قلوبنا؟»: هتف بالمقابل: «الجحيم الذي أودعونا فيه وولّوا؟!. كيف!».

«لن تُصفّي أحداً. مروان!»: قالوا جزعين. ربما على أنفسهم أيضاً. لكنه لم ينصع لكلامهم: **«أطردهم من قلبك، مروان. إنس. لهذه الأمور تدابيرها ومدبّروها!»**. الّا انه هاج: **«ليس بعد اليوم. قائمتي في جيبي. والمسدس. أعرف كيف أستخدمه. وستسمعون.»**.

انفلت مروان من الضوابط القديمة، والترسبات، وطحالب الأصول الهشّة. رفض المقاعد ذوات الدواليب والمساند المريحة. عاد الى بدويته وتفجراته الأولى. لكنهم ضيقوا عليه. حوصر. لم ينجُ. انهدّ. عيناه تبرقان وتشعّان بوميض الدهشة من أي أمر يصادفه. انه البدوي الصغير. يستقبل الموجودات بلهفة المقدم على عوالم جاذبة. مغرية. فيها حسّ اللذة ـ لذة من نوعٍ خاص ـ. وفجأة، كأنما مادت به الأرض، لمح ظهورهم وأقفيتهم الفالتة بعيداً عن الجحيم. فارتّجت به الدنيا. يضحكون. يصخبون بأشداقٍ واسعة. فينوس.

ناسَ وانطفأ، إذ غمرهُ ماء مثلج؛ فتبخّرت من مخيلته صور وكلمات جميلة.

راح يطاردهم باحساس المخدوع في سراديب الليل، وعلى الطرقات المحظورة بعيد الثامنة مساء. توارى في الصمت. ذاك الصمت المتجلبب بصوت كالفحيح الهاجم. كالهجوم الذي لا ينثني أبداً. كالقذيفة قبل انطلاقها. كالانطلاق بالقوة: يحترق الهواء بها فيفحّ. تظلّ سادرة نحو هدف أو لا هدف. لا شيء. قد يكون فراغاً بلا نهاية.

غارت عيناه في وجهه الذابل. اختفى الوميض وذهب الألق. تهدّل كتفاه. ما عاد بدنه وافراً. فائراً. فقدَ من وزنه الكثير. هرول كثيراً. تخطّى حواجز وحواجز صوب قرى ومدن صغيرة. تتبع آثارهم رغم المخاطر والمحظورات. لكنه لم يفلح مرة في شطب اسمٍ واحد من القائمة. هدّه الغيظ وأكل منه من كل ناحية. «هل ذابوا!». عوى كالذئب المدمى. ما عاد صغيراً. كبر في اليوم سنة. وفي شهور تحوّل الى صيّاد رؤوس حاذق. يجمع المعلومات. يفرزها. يربط ما بينها في شبكة

علاقات يحار المرء كيف يلملمها.

وفي مساء خريفيّ دخل على خالد.

ليس هو!.

مروان.

«صغيرك متعب يا خالد. أريد أن أنام!».

طلع شخيره مثل عجوز في المائة. أغفى وهو في جلسته على المقعد. أبى أن ينتقل الى السرير. نبتت له لحية ناعمة. «زغب الحمام!»: قالت أم خالد. ذابت رقبته الغليظة. جفّ وجهه وبرز أنفه كبيراً مثلما لم يكن في يوم.

ظلّ خالد جالساً على المقعد المقابل. يتفرس فيه. يذهب في ملامحه متعجباً كيف يكون التغيّـر. غير أن مسحة سريّة احتفظ بها الوجه. لم تقو على محوها أيام الاحتراق. والفحم. والمطاردة. مسحة سرّية تُفشي ما تحت القناع. مسحة تقول ان هذا الرجل صغير. أن هذا الفتى صغير. أن هذا الصغير هرم منذ الولادة.

تحرّك خالد، وأتى بغطاء قطنيّ. حمله، وكان البرد، والسكون، والليل المتسـرّب، أسياد المكان والدنيا الهاجعة. اقترب منه يبغي تدثيره. فالكنزة الخفيفة لا تردّ عنه المرض. اقترب أكثر. صار لوقع تقدمه على السجادة صوت عميق. وإذ بمروان يقفز كالملدوغ، وتُسرع يده لتقبض، بحركةٍ عفوية، على شيء تحت الكنزة. حينها لحظَ خالد المسدس الـمُخبّأ في المسافة بين لحمه والقميص!

رمشَ مروان طافياً من عمق النوم.

حدّق في عيني خالد.

لوى عنقه. ثم استسلم ثانية لهجمة النعاس الكاسحة.

ودثّره خالد قبل أن يشتدّ عليه بردُ الليل.

# 2

«لم تصل السفينة التي ستنقلكم الى الاسكندرية!».

قال الموظف المسؤول في مرفأ صيدا. وأتاح للحشد أن يخلقوا هرجهم المتوقع. نبتت الاحتجاجات من الحلوق تعلن يأساً. وجوه من «المصيطبة» و«المزرعة» و«الجبل» و«الشيّاح» و«الأوزاعي». رجال يتركون الزعيق وينسلّون خارج الحشد. تطلق النسوة المصريّات الآه المتشكّية بدراية أن لا طائل منها. شباب من «الاميركية» و«العربية». لبنانيون وعراقيون وأردنيون وفلسطينيون. رجل من «الكفاح المسلح» يحاول ضبط الموقف.

«يا أخوان. هذا ليس ذنب الرجل..».

كان كأنما يطفىء النار بالبنزين. ارتفع الهياج وتطايرت التعليقات:

«لا فائدة. نبقى عرباً!».

«لن نقوم أبداً حتى يوم القيامة!».

«بلا تنظيم لا نصر. والله..».

«دون فلسفة وكثرة كلام!»: صرخ الموظف: «مسألة يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر. يستحيل علينا ضبط الأمور تماماً. الزوارق الاسرائيلية تملأ البحر وتفتّش السفن. قدّروا الظروف. نحن في حرب يا جماعة!».

تبعثر الحشد. توزعت صيدا القادمين. ابتلعتهم مقاهيها ومساكن الأقرباء والمعارف. الشوارع وشمس بلا ظلال والرفاق الثلاثة. صيدا ليست غير محطة ولن ترسو السفن في صور قبل يومين.

تجاوز الوقت الظهر وارتفعت الشمس متوسطة سماء باهتة. تضرب سهامها المُحمّاة جلدة الرأس ولا من ملجأ. لا ظل. المساحات مُشرّعة على القيظ، أما الشواطىء فملح ورمل يتكدسان على عرق الجسم. ضاقت أنفاسهم، وأمضّهم الانتظار. يغالبون الوقت بالإمساك عن الكلام. لا يقولون. كأنما أحدهم يهرب من الآخر الى بؤرة خفية فيه. الى بؤرة هي بئره الخاصة. يسترطب في ماء يتوق اليه مثل حلم ناقص. كل المسائل ناقصة. هكذا تبدَّتْ لهم. كل الأمور مؤجلة الى إشعار آخر. تبيتُ على مواعيد لم تدوّن في سفر. قد تجيء وقد تبقى في الامكان. لا شيء منجز سوى الانتظار.

قال نذير الحلبيّ محاولاً أن يخرج من دائرة الانتظار:

«لم يغادر السائق صيدا. علينا به في مكتب الشاطىء. قد نجده.».

علّق زاهر: «ربما عاد الى بيروت.».

زفر الحلبي خانقاً لعنة تلوب في حلقه:

«وربما لم يعد. هيا بنا.».

أردف الطيّب: «حقائبنا هناك على أي حال.».

وتراصّت ظلال الثلاثة فكانت مثل غيمة ثقيلة نهدت تزحف صوب الشاطىء. تتكسّر على تصدعات الأرصفة. وتعاود توحيد هيئتها فوق استقامة الشارع.

كل الأشياء تتثاءب في صهد الظهيرة. كل الأشياء تلوذ بالصمت.

إلاّ البحر.

تلاطمت أمواجه وغارت في طراوة الرمل.

في مكتب الشاطىء عبّر خالد الطيّب عن ضيقه بتأجيل السفر:

«نعم. ثمة خطأ في ترتيب الأمور. أو لنقل ثمة خلل في فهمنا لكيفية تنظيم الجماهير.». ثم واصل، بعد ان رأى السكوت وعدم الردّ، ساحباً فكرته الى أرض الواقع: «كان لا بد من لجان شعبية تتدبر الأمور اليومية. الحرب أذهلت الناس. كسرت حياتهم وابتلعتها. انهم يفتقدون أشياء كثيرة أهّمها الأمن. كيف تريدونهم أن يتدبروا حياتهم؟. اللجان الشعبية كما قلت لكم.».

لكن الصمت تواصل بعد كلمته الأخيرة. التفت الى نذير الحلبيّ فألفاه يمسح على شاربيه الكثين. في عينيه الهزء الذي يعرفه فيه إن استخفّ بأحد. «المقنعون عملة نادرة!». جملة من جُمل الحلبي. المعظم سواء. هراء. تساءل: «هل ضمّني الى المعظم؟».

رشف من شايه وودّ لو يخوض في سجالٍ مع هذا النذير الحلبيّ الهازيء. أن يقول له: وما أدراك أنت؟ مثالياتك لن تنفعك. ولن تنفعنا. ما رأيته أنا قبل ست سنوات لم تره أنت. لا جدوى. التركيبة هي هي. أفهمت؟ التركيبة مهتزة.

رأى ان الحلبي يتململ في جلسته. ثم سمعه:

«هذا لا خلاف عليه. ولكن، بربك يا خالد، قُلْ لي؛ من أي كوكب سقطت؟!».

«من ذاك الذي احترق قبل ست سنوات.». سارع الطيّب الى الردّ.

بادله الحلبيّ الكلمات الموحية حسب طريقته:

«وهل احترقت معه؟».

«ربما..». ردّ محرجاً. ثم أشار صوب نافذة المكتب العريضة المطلّة على البحر من الطابق الثاني في البناء الصيداني القديم: «وها هو البحر يكفي لاخماد النار. ويكفي لأن...».

قاطعه الحلبيّ: «لن أشربه يا خالد. وأيضاً لن أقتنع بكلامك.».

وكـان وجهـه معتمًا، وعلى ملامحه طفرت حبيبات العرق. مسحها بردن قميصه، وتوجّه بحديثه الى زاهر النابلسي:

«هل شربت شايك؟».

«أجل.».

«اذن. هل سيغيب السائق طويلًا يا رفيق؟». موجهاً سؤاله الى مسؤول المكتب.

«لا. سيصل بعد قليل.»، وأردف: «لقد تم التأكيد على سفركم في الباخرة القادمة. تمَ الاتصال بمسؤول مكتب «البص» في صور.».

«ومَن هو؟»: سأل الحلبيّ.

«الرفيق علاء.».

«علاء!..»: هتف خالد الطيّب. «انه صديق قديم.».

وران صمت اثر انتهاء التوتر. ثم جاء أزيز مروحة السقف وهواء البحر ليجلبا شيئاً كالهدنة. ذهبت عينا نذير الحلبيّ الى الجدران تنقبان في الملصقات. انفرد رجل بملصقٍ يخصّه، بينما اجتمع شهداء في ملصقٍ واحد. الأسماء مختلفة. وكذلك الأعمار والجنسيات وأماكن العمليات التي استشهدوا بها. غير ان الشعار واحد. يتوّجهم جيمعاً. و«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون». بعضهم يبتسمون. بعضهم يبدون وكأنهم ساهون في حلم ما. أو رؤيا لا تتعداهم. بعضهم يعبسون. والبعض يحتلٌ وجوههم رجاء لا يعرفه سواهم.

تناهى الى سمعهم وقع خطوات تصعد الدرج. فانتهز مسؤول المكتب هذا، وقال كاسراً الصمت الثقيل:

«ها قد جاء السائق.».

كان البحر، عندما خرجوا، يغطسُ في بدايات غبشته المسائية. الهواء يبعث بنسيمه الطريّ. والثلاثة يهمّون بركوب السيارة عندما قال الحلبيّ، ناظراً الى البحر، وقد لطمته الخاطرة:

«وهل يكفي هذا البحر لأن يحملك الى خارج الحريق؟».

التفت الطيّب مفاجأً. فكّر للحظة. وقال:

«ربما.».

«ربما؟».

«أنا متأكد من أن كوكبي صار رماداً الآن. لقد انطفأ الحريق، فلا خوف عليّ.».

# 3

أراكَ مسافراً بين بحرٍ وبحر، ولن تدوس يوماً على أرض!

«تلك هي النبوءة. أتذكرها. وهل أقوى على نسيانها؟!. ستظلّ ترنّ في داخلي مهما ابتعدت وابتعدت. والآن؟. أين أنا؟. بعيدٌ بعيد. حلب قصية. أكثر بُعداً من الواق الواق. أما صور؛ فأقصر الى القلب من خطوة الطلقة.».

يتحرّك الأفق الجهم ويتشكّل مع تمايل أشجار البساتين على الجانبين. تختلط رائحة البرتقال بنكهة الفواكه العابقة في الفضاء النظيف. الخارجة من التراب. على اليمين، يختفي البحر فلا يكون منه غير صوت ورائحة. تعلو الأشجار حاجزاً ممتداً يحجب الماء ويفضي الى مدخل المدينة.

على اليسار، تنهض المرتفعات ومراصد الوطنيين والفلسطينيين. من هناك يتكشّفُ البحر حتى أُفق الاندغام. تنبسط مساحة البساتين وأجمات الخضار الواطئة. تظهر خنادق المسلحين تواجه البحر، ومن خلفها ترتمي الريح الرخية على بساط المزروعات.

كل الأشياء ساكنة. قابعة في تمام سكونها.

تطوي السيارة الخط الأسود الهارب الى الخلف. تقبلُ على محطة جديدة. يحدّث السائق نفسه: «ليلة أُخرى مع الرفاق. ليلة ثانية خارج البيت دون أم الأولاد.». لا يزفر. يواصل قيادته للسيارة، ممنيّاً النفس بأن لا مهمة غير هذه هذا اليوم.

تساءل زاهر النابلسي: «هل سنجد سفينة في صور؟».

لم يُجب خالد الطيّب ولا نذير الحلبي ظلا، في عمقهما، يواصلان التنقيب والغور. ثمة أشياء كثيرة. الماضي كله. المستقبل المعلّق بأكثر من سؤال، أو تساؤل. ستكون سفينة. آجلاً أو عاجلاً سترسو سفينة ما. باسمٍ ما. بهويةٍ ما. بوزنٍ ولونٍ ما. سينتظرونها على رصيف صور. لكن الانتظار زمن. وقت قد يمتدّ ويطول. يثقل ويثقل الى حدّ لا يقدرون فيه على الاحتمال. وتبقى المعلّقات المؤجلة ماثلة. جميع هذه المسائل المعلّقة. يرونها ولا يرونها. انها جليّة وغاطسة في السرّ المخبوء. جميع المعلّقات ماثلة لم تستقم بعد. هم لم يستقيموا بعد. يتطوحون بين المحطات والبحر. بين الأرصفة ومواعيد السفر. بين تلك التي يعرفونها ـ ويعرفها نذير بن باسيل سمعان الحلبي تحديداً ـ مثل باطن الكف: بيروت، وحلب. وتلك المختفية تحت جلد الكف (.. ولن تدوس يوماً على أرض)!.

«ليتها أعطتني اشارة. علامة أستدلّ بها على أوّل الملامح. ليتها كشفت لي عن أول حرف من الاسم. قد أعرفه. قد أعرف صاحبه. أهي مدينة؟ قد تكون وقد لا تكون. ليست الأرض دائمًا بأرض. ليس البحر دائمًا بماء. لغز رمته لي، تلك المرأة الساكنة في ليل عباءة، وجعلتني أتلظّى بناره ولا أحترق. يعذّبني ولا أموت. فتحت لي عينيها على الأخضر الساحر، فتموّجتُ على احتمالات التفسير المفضي الى تفسير المموّه بتفسير.

أخضر: صدأ النحاس لصنوج مكنوزة لساعة القيامة.

أخضر: امتزاج الماء بالسماء في بحر تائه لا يرسو على شاطىء.

أخضر: عشب الصخور الذي قد يخبّىء إبحاراً زلقاً يُفضي الى تهلكة.

أخضر: فضاء حقول استوائية تعصف بها الريح، فأستوي عند نقطة تحطّم الرماح لمعارك أشهرت جولتها الأخيرة.

أستمريءُ الانتقال من بحر الى بحر، وأقول: انها مغامرة التجربة. طريق الحكمة! حياة مُعطاة كي نحرثها بكل عضوٍ فينا. كي نلج دفائنها. كي نسبر باطنها ونسبر الى أن نجد حجر الفلاسفة. ليست فلسفة خالد الطيّب طبعاً. ذاك الحجر الصلد المتوهّج من ذاته. المُضيء بذاته. الكامن من تلقائه يخزن قوة الفعل فيه، وينتظر. يوماً سيجيء رجل يخرجه الى النور. يستنطق فيه قوة الفعل. يستنهضها ويُطلقها من عقالها، ويقول: هذا يوم الكشف فاعلني لنا الحق. فجرّي الذهب في كل شيء خسيس. اكنسي العادم فينا، وخلّدي الدائم في رحم الأزمنة.

يوماً سيجيء رجل. يستخرج الحجر. ويأمره: قُلْ للخفيّ أن اظهر!.. فينجل. قُلْ للظاهر أن انخسف!.. فيغر. تغور الأيام السالفة في الماضـي. تهرع الى الوراء مع كل غروب فأكبر يوماً. سنةً. سنين. وها أنا ممعن في الابحار بين بحر وبحر والبحر ليس دائمًا بماء. لم أدس حتى اليوم على أرض والأرض ليست دائمًا بأرض. وحلب بعيدة وما فتئت تنأى. أكبر بمعزل عنها. أتقادم خارج مدارها وزمانها. عجيبة حلب! رهيبة!. كانت تقفز أمامي بين كل طلقة وطلقة. تفزُّ. تستقرّ في دائرة التهديف والأمام عدو. أطلق من فوق برج الدبابة على الجولان؛ فتذهب حلب مع الطلقة. تسافر. تتكاثر مع الطلقات وتعود لتصوّب لي الهدف. هناك. هنا. إلى أعلى. نحو اليمين. أطلق. احترقت دبابتي. انتقلت الى أُخرى. الى ثالثة. الى رابعة. وكانت حلب في كمالها تتجسّم لدى اعتلائي لكل برج. تتجدد كلما استبدلت برجاً أو موقعاً بآخر وآخر. هل كانت تفعل هذا على كل أبراج الرتل؟!...

احترق الجولان والتهب.

كانت الأرتـال المتعـاقبة تهدر أمواجاً. تزحف. تقصف وتنكفيء. تهدر وتهرس الأرض. تتراجع ملتفّة على محاورها ويصير المدفع الجحيم. ينقلب الليل إلى نهار قائظ. تنتظم. تعاود التقدم. يتلظّىٰ الحديد. يحيل التراب أرضاً من جهنم. تنصهر الكتل المجنزرة بالأحمر الذائب، فيخرج الرجال منها. من المطهر. سلاحهم الفردي وصدورهم تلطم صدر الأرض. تلك التي ترضى. ذاك الحضن لا يتأبى. يزحف الرجل منّا نحو خندق أو حفرة، ويهبط. يرى صخرة تلتمع تحت القمر الشاهد وبين الحريق. يسمعُ صوت الصخرة. يرهف سمعه. يلتقط النداء: ـ هوذا عدو الله وعدوك خلفي فاقتله!.

وقفٌ لاطلاق النار.

قالوا: قفي يا نار. قفي.

تمنّعت النار، فحبسوها في المخازن. خنقوها في المواسير التي أحالت الحديد جحيمًا.

أعلنوا: كوني برداً وسلاماً! برداً وسلاماً!.. رداً وسلا.. سلاماً!

لا!

ليس هذا بأمر الصخرة. ليست هذه بحكمة الحجر.

□

ـ ملازم نذير الحلبي .

ـ سيدي .

(انطفأت النجوم فوق كتفيه) .

ـ اطّلعتُ على كفاءتك . أنت مثقف . .

(ينبش في أوراق أمامه) .

ـ حوّلناك الى دائرة التوجيه .

ـ سيدي .

(دائم الانتصاب والاستعداد مثل حرف الألف) .

ـ تعود غداً الى دمشق . تلتحق بالدائرة . مهمتك مهمة مثل القتال في الجبهة!

ـ سيدي .

(يخبط بكعبيه أرض الغرفة . يمنحه ظهره!) .

□

انفجرتُ ضاحكاً كما لم أنفجر يوماً .

أحبُّ دمشق . أُمنية كل سوري . مقاهي المثقفين . ملتقىٰ الكتّاب والشعراء . الصحف والمجلات . الشوارع التي بلا نهايات مسدودة . البنايات المتعالية . النساء المعجونات بالدلال والجرأة . الجلسات الأغنىٰ . العاصمة . الدوائر . السفارات . المعارض . اتحاد الكتّاب . السهرات حتى الفجر . نقاشات الغرف المائجة على سحب الدخان الناغل في الرأس . ثرثرات الكسل خلف المكاتب . الوظيفة . العمل الروتيني . الكتابة لساعات . توجيهات . توضيحات التوجيهات . تبريرات التوضيحات . موجبات التبريرات .

كلمات . كلمات . كلمات .

معانٍ تنزلق على الكلمات وتتلاشى . كلمات تتحايل على معانيها بكلمات تقول ولا تقول . تجفّ الكلمات على الورق . تمحل المعاني في ذاكرة المعاجم . تختلط

المعاني بالمعاني. تمتزج المعاني بالدلالات بالتشبيهات بالصور بالعري بالمجلات الملوّنة بالأوراق المحظورة بالأوراق المكشوفة بالقصائد المسطورة على أوراق مدسوسة في الجيوب بالطرقات الموهوبة للتسكّع الليلي بالوجوه الوافدة التي لفحتها شموس اللاذقية وحمص والرقة والسلمية ونصرة والفان الجنوبي والقنية الشرقية وناحية الرغاما وأرياف التعاونيات الانتاجية التي يبست فاحترقت واشتاقت الى البرية فزحفت اليها وتمرّغت بالصحراء عائدة إليها رغم أنفها وأنوف الرجال والتمديد الأول لذوي الخوذات الزرقاء. . والثاني. . والجولان. . والكتب. . والسياسيين المنفيين عن طوع وعن إكراه. . ودمشق المقاهي التي قال عنها رجل أخطأ اختيار حياته فانتهى إلى كتابة نقلتها إلى مسودّة روايتي التي لن تنتهي إذ كتب: «أنا مقهى دمشقيّ أحمله معي أنّى طوّحت بي ريح الرحيل، همسه، وإطلاله الساخر على الطريق أصبحا من تقاليد منفاي. طباعي من طبعه. أجلس فأسترخي وأحشد حوالي الكراسي حتى يأتي النادل فينبّهني إلى أني تجاوزت حدودي. تعلّمت فيه النقد السياسي وحرارة العواطف. .

أنا بعيد عنه ولكنه يحمي ضلوعي والحشا من أن تقفر من الحنين.

همسه في أذني دائماً. ما الأخبار؟ ثم تعليق ساخر ينتقل من فمٍ الى فم ومن مقهى الى مقهى حتى يغدو شعاراً سياسياً»(١).

أحبُّ دمشق.

هبطت اليها. من الجبهة. أمرٌ عسكري. ولجت سراديبها المكتظّة بالكلمات المتقاطعة. المزدحمة بهامات وهامات. مدنية وعسكرية. غصتُ. ضعتُ وما ضيّعتُ نفسي.

تعود الى دمشق. تلتحق. مهمتك مهمة. أنت مثقف!

وانفجرت ضاحكاً كما لم أنفجر يوماً.

انفجرت.

ضاحكاً.

وانتثرت بعدها أرتحل من بحر الى بحر، ولم تدس قدماي حتى اليوم على

---

(١) سامي الجندي.

أي أرض.

أي أرض؟!

كيف ترتسم البدايات؟.

وحدها، أم يخطُّ نذير بن باسيل سمعان الحلبي اشاراتها؛ فتأخذه معها، ويسير في التشعبات حتى يصل؟.

ولكن: أين يصل؟. هل وصل؟.

والنبوءة؟. وذاك المرسوم في باطن الكف تحت الجلد؟. الذي ما ان لمسته ذات السواد والعينين الخضراوين، حتى ارتعش الجسد بكامله، وتاقت الروح للمغادرة الى الأقاصـي!.

يبحث عن بداية.

بداية جديدة بعـد الاحـتراق الكبـير. الـدبابات التي اشتعلت. الجنود المسكونون بالنيران حتى الانطفاء على تخوم الخنادق مثل نيازك ترمّدت. الرماد الفاتر المحلّق فوق السهل والبحيرة. ها هي طبريا حيث كانت. انهم على المرتفعات أسياد الأعالي والصخور. سرعان ما يعتلونها وينفرشون ليغطوا وجهها. تهرس كتل الفولاذ الصخر وتتقدم. يتقدمون. يصير الاكتشاف للذي لم يكن يوماً. الحاسة الوليدة: أن يحلو لهم القتال تحت نجوم ارتفعت وتسلقت هاربة نحو الله عالياً.. عالياً.

تتراقص الـدُّشم على جنـون الحـرائق وخيالاتهـا اللاهبة. وسط الليل. خيالات شياطين قامت تحصد العالم. تتمزع الحلكة بالأحمر السارح كالشهب. تُضاء بالأحمر المتميّع كأنه سائل بركاني ينصهر على الموجودات ويصهرها. أصوات. أصوات. وتفرُّ الصخور الى الأمام. تفرُّ. تختفي البحيرة عميقاً في قاع المنحدرات حيث لا يطالها الرصاص. يقوم سدٌّ جديد. تنكمش دمشق على نفسها وتطلع أصواتها بخفر.

يغادر ثرثرات المقاهي وأحاديث البيانات السرية. يخرج الى الشارع. خرج من المهمة الهامة كالقتال. حرّاً وخالي الوفاض. لا مهمة بعد اليوم. كالآخرين صغير يذوب على الاسفلت السائح تحت وهج أيّار. يقرأ الصحف المعلّقة على

الجدران وأبواب المحلّات الـمُغلقة بملاقط الغسيل. يحدّق في صور الطائرات الحربية. ليست بطائرات حقيقية. كانت نقطاً دقيقة في السماء وحولها دوائر مخطوطة بالقلم. ينظر في الشمس فتهزمه. يعود ببصره الى الأرض. ترمش عيناه فيبتلُّ جفناه بقطرة عرق إنزلقت على جبينه. الصهد، والاسفلت السائح، ومُنادٍ على مشروب مرطّب عند (السبع بحرات). يخفُّ اليه. يصل فيرى الرجل. يرمقه بنظرات متفحّصة. كان يقف رافعاً كوب العصير الى فمه. يشرب. يشرب هو أيضاً. لباسه المرقّط يوقظ في ذاكرته صوراً ليست قديمة: الصخور. البحيرة. الخنادق. الأحمر المتشهّب في حلكة الليل المنتهك بالأصوات المجنونة. خوذة رفيقه الذي صمت تاركاً إيّاها وقد تعفّرت بدمه والتراب والندى. يحدث انفجار في أعماقه لا يسمعه سواه. يرتعش وكأن أصابع المرأة صاحبة النبوءة قد مسّته. النبوءة. أراك مسافراً بين بحر وبحر ولن تدوس يوماً على أرض. يلحظهُ الرجل بينما هو يتفحّصه. يبتسم. يبتسم متردّداً. ويمدّ له يده مصافحاً. يطوّقها الآخر ويضغط ضغطة خاطفة. يلتمع شعاره النحاسي في جبين قبعته الحمراء. ترتجف شفتاه. يقول:

«لي خبرة في القتال.». ويكتم البقية: «والكتابة ليست إحترافاً!».

أهذه هي البداية؟

حلب، أم بيروت؟

«متى؟»: سأله الأب.

«غداً.»: أجاب بالاختصار ذاته. ثم أطرق الى جانبه ولم يتفوّه بحرف. شعوره متضارب، موزع. رفع رأسه نحو أبيه، فألفاه ينظر الى النافذة. ألفاه في النافذة وقد انكسر!. شيء ما انحدر من جبينه العريض، ثقيلاً لا بد، فتهدّم الفكّان وارتعش الفم المزموم.

هكذا هما. متفقان على المختصر الوامض. أما الانتشار والتشعّب، فليس هنا مكانهما ولا زمانهما. إثر الافتراق تنبض الأرض وتتزعزع القشرة اليابسة وتميد. أما الآن. هذا الأوان...

واصل توزعه ذاهباً في الصمت قوي الحضور. أبوه صامت. أما هو: نذير بن باسيل سمعان الحلبيّ: فورقة نُحيت جانباً إذ قبضت بيدها على مصيرها. قد تكون النبوءة. لم يفكر بهذا أبداً تلك اللحظة. سمعه:

«اذهب وجهّز ما تحتاج. سأنام.».

عندها، عرف أن الموضوع انتهى عند هذا الحدّ المعلن بينهما. ما عاد للكلام من حاجة. لم يقل حرفاً، وقام من جواره. غير انه قبل أن يغادر دائرة الحضور القوي رأى، في النافذة الفاضحة، انعكاساً مثلما الضباب أو التكسّر، يواري وجه أبيه ويطمسه. سار خطوة، خطوتين، وعند الثالثة وصلَهُ بوضوحٍ كالتجلّي في صوت هزتّه الرجفة:

«أعطِ لأمك وقتاً عسىٰ أن تبلل تعطشها التعس!».

توقف للحظة. ثم أغلق عليه الباب.

□

انفتح له بحر بيروت على وسعه. كان بحجم الدنيا. أزرق يندغم بالسماء ويغرق فيها. هذا هو بحرها اذن! هذه زرقته، وهذه ريحه تلعب بوجهه، وتتغلغل في مسام بشرته، فيتشـرّب الدنيا.

البداية! لا. لا لزوم لأل التعريف. مَن قال؟.. هو لم يفعل. وما دار في خلده يوماً حذف هذه الأل. البداية. بيروت. البحر. وها هي الروشة: الصخرة ـ الانتحار.

«لا انتحار بعد الآن!». قال هذا هذه المرة في هذا المكان. غير أن صوتاً في أعماقه شكك فلم يعد متيقناً.

ينحني على السور الحديدي ويطلّ على البحر ـ الدنيا.

«أول مرة يا نذير الحلبي. أول مرة تتجابهان. وجهاً لوجه للمرة الأولى. الفاتحة. أمامك البحر، ومن خلفك مهرجان الناس والسيارات وألوان الكورنيش. أما السفن: فانظر: ساكن سطح الأزرق لا سفن عليه. لا تثنيات تطويه ويطويها. لا تبحث عن السفن هنا. لن تجدها. فالسفن: سفنك انت: في القحط الجبليّ الصخريّ المحروق تلتهب، ومن فوقها سديم يشتعل، ومن أسفلها صلادة تكوي فيطقطق الخشب، تنغل القوارض، تتكوّن طبقات الصدأ، وتنمو أعشاب ليست من المرجانيات في شيء، ولا من الطحلبيات كذلك.

تذكرها. أنت تذكرها يا نذير الحلبيّ. أنت هنا، وهي هناك. أتركتها، وجئت تبحث عن أخرى بدلاً منها؟. تفحّصت سفنك عند أفواه الخنادق المترمدة.

وها أنت تنأى عنها فارّاً من مواتها مثلما أسطورة تشهد على أن قوماً عاشوا وماتوا. أن بحراً كان ولم يعد. جفّ، أم جففوه؟. في قلبك صوت يفحُّ كريح ناشفة يبوس تلطم ريحاً وتتوه في ريح. فأذهب في الريح وسافر.».

«قبلَ أن تطأ أرض بيروت قُلْ: أعوذ برب الخَلقِ من شرّ الخَلق.».

قالت أمه. وبكت خوفاً ولد في صدرها ولم تخرجه.

نظرت في وجهه قليلاً. تلمّست صفحته قليلاً. أفصحت عيناها بعض الكثير. ثم فاضت كثيراً لـمّا هوى وجهها على كتفه.

ظلّت كلمات الأب تتواصل في المكان. تمتدُّ في الزمان. تعبُر فضاء حلب، ودمشق، والهضبة الصخرية، ثم تجيء معه الى بيروت لتستقرّ في صيوان الأذنين: «.. بلل تعطش أمك التعس!».

«سأفعل.»: قال هذا في حلب.

ضرب يده فوق الحديد المسوّر بحر بيروت. تولّدت مويجة على رمل الشاطىء، أسفل قدميه حيث يقف، ما لبثت أن ذابت في الزبد الحليبيّ. غارت في الأرض المالحة. ملح على ملح يذوب في رمل الملح. استنكر وصف أبيه لتعطش أمه: «لماذا تعس؟!». وعَبَّ من هواء إطلالته وعَبَّ فلم تكذبه الحواس: رطباً بليلاً كان الهواء. اذن: هي بيروت كما قالوا عنها. قال هذا ولم يسمعه غيره. قال لنفسه، ورمى للاحتمالات اختبار الزمن يدقّها أو تدقّه. يقرعها أو تقرعه. يأخذها، أو تذهب به كما جاءت به في الريح عبر الريح الى الريح حيث لا قرار ولا قاع.

لا يسقط.

لا يهوي.

سقطَ جسم كالخطفِ في البحر أمامه. بدا صغيراً ثم غاص. غطس ولم يخرج من مكان ثان. رآه كالخطف يسقط. ويذكر أنه رآه كالخطف يلتمع. تسقط سمكة أو أكثر. الالتماع. في البحر ومن البحر. بزوغ وانطفاء. مهرجان الأصوات من خلف، وسكون الدنيا من أمام. سقطت الملتمعة بلا صوت. كأنما الماء هواء دون نهاية!. لعب النسيم بشعره ثانية فاهتزّت الرؤية، واعتكر البصر للحظة. لكن..

تبرق النبوءة وترعد: «من بحر إلى بحر!».

الرؤيةُ لا ترى! العينان شيء والذاكرة شيء آخر.

«إمرأة تدخل بيتنا في أوقات متباعدة. تتردد على أمي. ساعة. أقل. وتخرج كما دخلت: ملفّعة بملاءة سوداء. رأسها. وجهها. الرقبة أيضاً. كل شيء فيها ملفّع في السواد. مرة، دلفتُ ملهوجاً الى البيت لأشرب. قصدت المطبخ. واذ بالمرأتين ـ كأنهما جسمان في جسم ـ في صدر الصالة. صمتنا لحظة أن كسرت سلام البيت. لم أدرِ كيف بغتني شعور بأن شيئاً يحدث. شيئاً غير عادي. قد أكون مبالغاً. لكن تلك اللحظات كانت أشبه بالسحر. أشبه بطقوس تجري على نقر دفوفٍ في الخفاء، ورقص، ودروشة، وأمواج بخور تكتسح المكان. لا. لم يكن شيء من هذا. أبداً. مجرد امرأتين تسرّان لبعضهما بأشيائهما الصغيرة. نادت أمي عليّ. تقدمت نحوهما يسبقني لهاثي. لحظتُ لمعان شيء في فم المرأة.اقتربت حتى صرتُ في متناول أيديهما. صار اللمعان أوضح. صارت السن الذهبية في مقدمة فم المرأة أوضح. ضحكت بلا صوت! يا إلهي!. رأيتها تضحك ولم أسمع صوتاً! فقط، نبضتان أو ثلاث اهتزّت لها ملاءتها عند البطن. ثم: تعال يا ولد!. قالت. دنوتُ منها وأنا أرمقُ أمي. كانت صامتة ووجهها مكسوٌّ بصفاء غريب. دنوتُ. دنوتُ. وأخذتني. أخذتني إليها من يدي. سحبتني فارتعشت أصابعي في قبضتها. كانت قوية. ليست مثل أصابع أمي الناعمة. أذكر انها لم تُزحْ عينيها عن وجهي. ما شاء الله. اضطربتُ. ما شاء الله. أمي الى جانبي أمامي واضطربتُ. بسطتْ لي كفّي وتحسّستْ باطنه. ارتجفتُ. ما زالت نظراتها تنفذُ الى عينيّ. تُغللان وجهي بما يشبه ملمس حرير ثوبها الأسود. امتداد له ولتغضناته الهابطة حتى قدميها على الأرض. تجمّدتُ واقفاً وراعني ما رأيت: عينان خضراوان وكنز من التوهّجات تخطفُ البصر!. تلك النظرة الخارجة من عينين تحترفان البكاء ضمن ما تحترفان. أعرفهما من عيون النسوة الآتيات الى أمي. لماذا تبكي النساء؟.. كنت صغيراً أسأل. وكان الجواب أكبر مني. كنت صغيراً الّا أن سكوناً لطيفاً ـ كأنما انتقاعُ الجسد في ماء ساخن ـ غلّفني، وحوّم في داخلي، فهدأت. زال ارتجافي، وتوقف لهاثي، وراحت أصابعها تجوس في كفّي. خضتُ للحظات، خلتها دهراً، تجربة مذهلة. ركبتُ بحراً موّاجاً من لذة جديدة. تقاذفتني أحاسيس شتّى. ضعفت ركبتاي فجأة. نفضتني الرجفة من كتفيّ، وسرت الى أعلى رأسي، فترنحت. اطلقتني ذات السن الذهبية والعينين الخضراوين. قالت: اذهب.

تراجعت فارّاً من لذة كاللغز. ركضت في حارة باتت أصغر من بذرة لابت ونمت في قلبي.».

وفي يوم لاحق. بعد أعوام. أمسكت به أمه. صارت قامته في طول قامتها. تحسست رأسه بحنوٍ يعود الى أيام الطفولة. تملته. قالت: «أراك مسافراً بين بحر وبحر ولن تدوس يوماً عل أرض!».

لم يفهم. لكنه نما، مثل قامته، على السؤال والتشكّك.

أما هي، فلقد أطلقته بدورها، مثلها مثل امرأة النبوءة، مختنقة بحصاة حزن. لا هي بقادرة على لفظها. ولا الحصاة تذوب.

# 4

نجوم الليل. ظلمةُ البحر. والهدير الذي يرتقي طبقات السكون.

تململُ الترقّب. الاحتمالات. الزفرات المخنوقة في مضيق الحلق. تلوب. ليس هذا أوانها. تبقى حيث كان لزاماً عليها أن تظل. في الليل، تعود الكائنات الى انغلاقها على ذواتها. تختفي بين طيّات براعمها لتمارس طقوس الحوار السري. تلتطمُ الأحاديث الداخلية وتتشعّب. لا تتعدّى الواحد. يسافرون معاً وكل في يده حقيبته الخاصة. أشياؤه الخاصة. أسراره المخبوءة. تتجمع الوجوه، والقامات، والعيون المشتعلة بشرارات الروح.

يرتمي البحر على اليابسة. يهجم من مداه غير المنظور وينطرح. جباراً هائلاً بلا حدّ. ينسفحُ ويتوغّل بلا رقيب سوى ضوء القمر في السماء العالية المطفأة. يزمجر. يتقدم. يقترب. يصطدم بالبّر فيكون التفتت. على الصخور المسننة ينتثر. يحلّق عالياً ويهوي فتاتاً على الناس والحقائب. فوق الرصيف الاسمنتي الخشن. يغمر حدود التماس وينسحب دون هزيمة. يواصل. يكرّ. سيزيف. يتفتت. الاّ ان جحافله لا تنضب. لا يلوي على شيء حتى طلوع النهار.

الليل في بكارته.

تتجمع الحقائب كُتلاً متفرّقة، كالجزر، حول أصحابها. لا تسترهم. تبتلّ بالرذاذ المالح. يبتلّون. تعصف ريح الليل في شعورهم فتهيّجها. يحتملون هذا العبث المتأخر ويرسلون جحوظهم في العتمة. يحرثون جسد الماء المهتاج بنظراتهم، علّ جسماً ينبت. يعلو. يُعلن عن اقتراب الرحيل. يبعثون بنظراتهم شباكاً كي تصطدم بحديد طاف يأتي اليهم. تظلُّ الشباك طافية. خاوية.

لا رحيل في الليل. فالبحر يجافي بداية مغطّاة بستارٍ أسود. لا سفينة.

تلتقطُ عيون الثلاثة تفاصيل المشهد وهم في أمكنتهم لا يقتربون. على مبعدة من الناس والحقائب. في منأى من رذاذ البحر. يرقبون ويسمعون. يتساءل كل حسب طريقته ولغته الجوّانية: لماذا هذا العبث؟ لماذا تتأجّل المواعيد؟ لماذا تتأخّر عن وقتها؟ وتركن المنتظرين مع انتظارهم على أرصفة البحر؟ تُمرّر لهم تمنعها، وتترك فيهم ريقاً ناشفاً؟.

الملـح.

الليـل.

وريح تشقق الوجوه وتُمعن في إحرار العيون.

تورّمت الجفون من نوم جافاهم وزامنوه حتى يكون الموعد. حتى يتحقق. أجلّوه وربطوه بجسد آخر لا جسد له. فالزمن لا يُمسك. لا يُرى. يحيونه في مداراتهم الداخلية. في دوائر لا تنتمي الى التقويم المعلّق على الجدران. أو في خانات ساعاتهم الفسفورية. يتفلّتُ من قبضاتهم، ويُبحر في الماء العائم تحت الليل.

تتبقّى لهم حقائبهم وثرثرات المكابرة والمكابدة.

يوحّدهم عصفُ الريح وخشونة الرصيف الاسمنتي البليل.

تجمعهم الحقائب. يجتمعون فيها ويلتئمون. يكثفون ذواتهم بين دفتيها ويعزمون على السفر. يتهيأون لمبارحة الساحات المتفجرة الى أرض بلا ألغام.

بيروت موت مبعث. سراط لا تجتازه غير الطلقات العمياء. مقاتلون يطوون الجثث ويخرجون ليملأوا الليل. يخلّفون وراءهم صدأ صفائح القمامة وأصوات ارتـطامها. ثمة عفونة ونتانة راكدة في تلال القاذورات التي تنفث دخاناً كريهاً أبيض. تسودها الجرذان طوال النهار. وفي الليل، عندما تتكثّف العتمة وتتهدّل أجساد البشر المكدودة؛ تنغلُ الأشياء في الأشياء بذاك الصمت المشحون بكل التفاصيل الصغيرة لليوم الميّت.

تئـز طلقـة. تتبعها مئات. تبقى المتاريس وحدها في الشوارع تحرسها، وإنارات بلا ناس. منارات بلا سفن.

الطريق الجديدة مأوى البنادق. هدف الاطلاقات المعادية. وجوه الشهداء المسمّـرين على جدران تشبّعت بالمـطر. تجففت بالشمس. تحوّلت ألوانهم الى

أخرى، مثلما تحلّلت أجسادهم الى عناصر ليست هي.

يهربون من موت لا يعرف المواعيد. يلملمهم البحر وحقائبهم على رصيف الميناء. يجمعهم، ويمررهم الى شمس لا تتعاطى مهام بيروت.

صور.

يرى خالد الطيّب الناس على رصيف الميناء الاسمنتي غيرهم على مقاهي الرصيف. هذه صور البعيدة. البحر فيها دون تجميل. تلك بيروت. البحر مُسيّج بالألـوان، والباعة، والعشّاق، وكازينوهات مقاعد المواعيد المضبوطة. المواعيد المتحقّقة في مواعيدها.

فات موعد الاسكندرية. جاء زمنه ولم ترس السفينة. من بيروت الى صيدا الى صور ولم ترس سفينة. من الفاكهاني الى مكتب الشاطىء المطلّ على البحر، الى مخيّم «البص» على الرمل. قاعدة للمقاتلين في الجوار. الماء وفير هنا. السماء مفتوحة ما تزال. البحر يحبل بالسمك، والبضائع الأهلية، والسلاح المهرّب.

عاد الـرفيق العسكـري، مسؤول المكتب في مخيم «البص»، من جولته الليلية. دخل محدثاً هرجاً في الحراس. تبادل معهم بضعة كلمات. ثم دلف الى الداخل. كان نحيفاً، ضامراً، تتبدّى الصلابة في عظام وجهه البارزة. حدّق بعينين زرقاوين ـ كانتا تومضان ـ وهتف:

«الطيّب المثقف!».

ثم هاج بضحكة صاخبة، واندفع صوبه فاتحاً ذراعيه على وسعهما. بادله خالد الطيّب التهليل وكلمات الترحيب، الاّ انه أوقفه باشارة من يده.

«ابتعد. المثقفون لا يحبّون السلاح!».

تكيّف العسكري مع المداعبة. ركن سلاحه على سطح المكتب المُغطّى ببعض المجـلات، ورزمة بيانات، وظلف طلقة رشاش ٥٠٠. ثم هجمَ على الطيّب. ظلّ الرفيقان الآخران ينظران صامتين.

«أعرّفك على رفيقيّ. نذير الحلبيّ. وزاهر النابلسي.».

صافحهما الرجل ذو العينين الزرقاوين.

«الرفيق نذير، الذي يكتب في المجلة. أليس كذلك؟».

أومأ الحلبيّ صوب رف المكتبة في زاوية الغرفة:

«أجل. التي لا يقرؤها أحد، على ما يبدو.».

تحرّج العسكري. غير انه سرعان ما استعاد تبسّطه.

«أتابع فيها الدراسات العسكرية. انت تكتب في الثقافة. وأحياناً في مواضيع سياسية.».

فألمحَ نذير نابشاً في جرح قديم:

«حتى في الثورة!.. عداوة العسكرتاريا للثقافة!».

لكن خالد الطيّب سارع الى التدخّل. ربّت على كتف الرجل. وتوجّه بحديثه الى الحلبيّ وزاهر:

«الرفيق علاء عسكري فذّ. انه هو مَن طالب بتحويلي الى قاعدته في «معدّي» في الأغوار، كموجه سياسي. صدّقوني. كان يحرجني بأسئلته فأتلعثم كالأبله. أتفلّتُ خالطاً غيفارا بلينين بخالد بن الوليد بماركس بساطع الحصري بتروتسكي بالقسّام بماو.».

فغمز نذير الحلبيّ:

«وهل كففت؟».

ابتلع الطيّب الملاحظة التي آلمته، وأتبعَ:

«المهم. إن الرفيق علاء سياسي متخفٍّ بثوب عسكري.». لكن وخزة نذير الحلبيّ لم تبرحه.

شعرَ العسكري بما وراء الكلمات، فحاول تمييع الموقف:

«الطيّب ثعلب. في ساعة من الليل مثل هذه كان يطلب عقد جلسة تثقيفية. تصوّروا!».

طوى الطيّب وجع وخزة نذير الحلبيّ:

«حان وقت الاعتراف. ونذير مسيحيٌّ يصلح لأن يكون راهباً. سأفشي سرّي. كنت أتشفّىٰ من كل العسكريين. تعرفون جميعكم حكاية طابور الازعاج الليلي فترة التدريب. يفجّرون القنابل حول القاعدة او المعسكر ويوقظوننا من نومنا. ولا يكتفون بهذا. بل يقتحمون علينا أماكن نومنا لايهامنا بأن العدو قد احتلّ المكان! يقولون عن هذه الفعلة الشنيعة انها تطعيم وكشف للعناصر المتخاذلة والتي لا تتحلّى بالشجاعة واليقظة. تصوّروا!».

غرقوا جميعهم في موجة ضحك أذابت التوتر. شربوا وجبة شاي. قرأ الرفيق علاء كتاب مسؤول مكتب الشاطىء في صيدا، والذي كانوا يحملونه. هزّ رأسه:

«تريدون الانتقال الى الاسكندرية اذن . » .

«أجل . » ، قال خالد الطيّب : «الرفيق زاهر سيجري امتحاناته هناك . سنة أولى تجارة أو محاسبة لست أدري . والرفيق نذير مكلّف بمهمة . » . وصمت .

«وأنت؟» . سأل العسكري بعفوية صديق قديم .

تردّد خالد الطيّب . فكّر بملاحظة نذير الحلبيّ الأخيرة . ما سبب سفره هو؟ . لكنه أجاب بكلمات سريعة :

«أنا في إجازة . » .

لم يتوقف العسكري حيال إجابة الطيّب . وقال :

«حسناً . لن تصل السفينة قبل يومين . الوقت الآن متأخر . منتصف الليل تقريباً . أنتم مرهقون وبحاجة الى النوم . » .

علّق نذير الحلبيّ :

«الاستحمام أولاً . الماء . بيروت بلا ماء منتظم . أنت تعرف . » .

«أعرف . أعرف . ستنتقلون الى قاعدة قريبة من هنا . تقيمون فيها وتستريحون . الماء مؤمّن . هيا بنا . » .

وعندما كانوا يخترقون جسد الليل، وبستاناً يعبق برائحة الليمون النفّاذة ؛ كان خالد الطيّب يتفرّس في البعيد المعتم ، ويتذكّر جملة العجوز الأخيرة لـمّا غادره في المستشفى .

توقفت السيارة العسكرية عند سلاح أُشْهِر بغتةً :

«قف . مَنْ أنت؟» .

«الرفيق علاء . ليلة مقمرة . » .

«تقدّم رفيق . » .

وتكشّف المكان عن ثلاث حجرات اسمنتية عارية .

ومن مسافة قريبة ، بلغهم صوت مويجات هادئة تنسفح على رمل غير مرئي .

# 5

امتدّ ذراعه الأيمن على طوله، بوهنٍ ورخاوة، ثم ركد على غطاء السرير. لم تعد اليد متهدّلة في الفراغ. استراحت على ملمس القماش الأبيض الذي غضّنه رشحُ العرق خلال الساعات الأخيرة. لم يحسب كم من الوقت انقضى عليه وهو نائم. لم يكن نائماً. كان غائباً. كان يموج على طوف طوال الوقت. طوف يتماوج به صعداً وهبوطاً؛ فيموج صاعداً معه الى زمن ليس هو الحاضر. ويهبط نحو كوابيس فرَّ منها زمناً طويلاً. كان قد انقلب على ظهره بعد أن وخزه التعب في الجنب. دبيبُ ألمٍ يتسلّقه من باطن قدميه. يحسّ به يصدر من طبقة في لحمه متورّمة. تورّمٌ كبير وليّـن بحجم برتقالة، أو بطيخة! تذكر الوصول، والميناء، وكرات البطيخ الخضراء التي شُقّتْ، فتدفّق سائلها الأحمر. انتفضت قدماه على الخاطر، مثلما الصعقة الخاطفة، وعادتا الى استرخائهما السابق.

دهمه الانقباض في الحلق. دهمه، فجأة، وتفجّرت انبجاسةُ القيء المؤجلة في معدته كأنها خروج الروح!.. فسارع الى المغسلة، في الزاوية، وقد جحظت عيناه. تحدّب ظهـره عند الحوض وطفحت الدنيا بالقرف، القرف، القرف، والعرق ينزّ من جبينه على صدغيه، ويستقرّ بين ذقنه وأسفل فمه.

مكث على هذا الوضع دقائق بطيئة، ثقيلة.

يحرقه الألم في باطن قدميه الحافيتين.

يصل اليه صوت، من النافذة، ينادي على شيءٍ لم يلتقط معناه. لا يزال مغمضـاً عينيه يأبىٰ رؤية ما قذفته معدته. قرف!. يحسُّ به. برائحته الحادة،

الحامضيّة، المتغلغلة في أنفه، اللاصقة بحلقه الناشف المرّ. تسقط بعض قطرات من العَرَق على ظهر يديه المتمسكتين بحافة الحوض. ينتعش. يخرج منه سُمّ الجسم والمعدة. من جوفه ومن مسام جلده. ينتعش، ويتراخى جسده!. يفتح عينيه باعياء، فيرى حبّات العرق تستقرّ على شعيرات يديه. تنزلق على الأصابع. باردة باردة، وتصطكُّ أسنانه، مصطدمةً ببقايا السائل الكثيف الحامضي القابض. يرجع بظهره الى الوراء، مكابداً ألـمَ قدميه المتقرّحتين، ويُلقي بجسده على السرير.

يكتشفُ أنه كان يرشح عرقاً طوال الوقت. يغمضُ عينيه ثانية.

**لا شيء يعلو هامتي غير السماء.**

فكّر، ونظر الى الأعلى الهابط عليه كجدار يتهاوى؛ كان سقفاً كامداً، معتمًا، ضربته خطوط من الرطوبة القديمة. خيالات ترتسم وتنداح بتشكيلات عجيبة. ضجيج مخنوق يقتحم السكون، ويحتلّ عُري الغرفة الداخلة في العتمة. النافذة عالية ومفتوحة. تهبُّ نسمةٌ رخيّة، آتية من البحر، فيستقبلها الجسد العاري في جزئه العلوي. همودٌ وارتخاءٌ والجوع يبدأ دورته.

يتذكّر: انه الفندق.

فتتيقّظ حواسه. يتلفّت حواليه، فيميّز، رغم غلالة العتمة، أشياء الغرفة. بياض حوض المغسلة في الزاوية. مرآة صغيرة فوق الحوض. صورة باهتة على الحائط الذي يقابله. ركّز بصره عليها الاّ انها لم تكشف له عن فحواها. هبط بنظره الى الأسفل. حقيبته الكبيرة على كرسي من الخيزران. تملاّها، وتبيّن له انها لم تُفتح. الحقيبة كبيرة ورابضة على الكرسي مثل شيء مهجور ومنسي. الجوع مرة أخرى. حقيبته كبيرة مثل نعش.

تتحرّك أصابعه وتقبض على قماش الملاءة: رطب. يدفع ذراعه الى الأعلى، فوق رأسه، فتصطدم أظافره بحديد السرير: فاتر وأملس ومستدير.

يتوقُ الى فنجان قهوة ينشله من رخاوة الغثيان.

**صور: ٢٤ تموز ١٩٧٦**

«قهوة وَسَط»: قال نذير بن باسيل الحلبي. ووضع علبة سجائره والولاعة أمامه.

هذا هو المقهى العربي. أقواس مطليّة بالكلس الأصفر الباهت. أو ربما كان اللون من فعل هواء الملح. رواقٌ طوليّ تناثرت فيه المقاعد والطاولات. دلفوا الى داخله. هنا الرطوبة. أحسّوا بها.

«هنا الدبَق!»: قال الحلبيّ، وطفق يتفحّص موجودات المكان. رؤوس وأكتاف لو سُئِلَ عـمّا رأى منها لأقسم، حقيقة، أنه شاهد لغَطَها وأحاديثها على شكل غيمة ثقيلة متمعّجة. تماماً مثل دخانها الساكن في تدليه فوقها، رغم تيّار الهواء البحري. وصلت الى سمعه كلمات الرؤوس متنافرة كأصوات سوق سرسق. منها ما أصاب فيه سمعاً، ومنها لم يُصب؛ فعبرتْ قربه، وذابت في الضجيج خارج المقهى.

بدا زجاج النوافذ الطولية، في نهاياتها العليا، وكأنه مرشوق بغبشة الملح ورياح السنين. فلا ينفذ من الضوء الّا قدر ما يفضحُ وجوده السميك الـمُزرقّ البلّور. أمّا النوافذ الواطئة، المتوازية مع مستوى الطاولات اللصيقة بحوافها، فبلا زجاج. نوافذ صيفية تُشرع على البحر مباشرة. بلا تكلّف. بلا زيادة في الزخرفة الاحتفالية، أو نقصان في أهمية المشهد.

أعتم وجهُ نذير الحلبيّ، وانطوىٰ على شريط أفكاره: «ها أنا أُطلّ على الماء كما أنا. أرى الماء كما هو الماء. صقيلاً، زيتياً، غاية في الثقل وغموض الأعماق. انه زمن الحرب. ساكنٍ مسترخٍ في امتداده. لا هو بالأزرق ولا بالأخضر. عكرٌ. ردماديّ!. يزحف اليه وليس هو. يحمل على سطحه البّراق، في البُعد المرئي، قطعة معدنٍ مسطحة. ساكنة في نقطتها. موجودة منذ يومين والجميع يراها. موجودة، كأنها تنتظر أمراً لتبدأ الاقتراب. بعيدة ومرئيّة. لكنها ليست السفينة التي ننتظر. انها قطعةٌ بحريّة...

«ما هذه؟». سأل ثالثهم. زاهر النابلسي.

«قطعة بحرية حربية.». أجاب نذير الحلبيّ.

«وما أدراك؟». قال خالد الطيّب.

«تبدو من شكلها انها ناقلة عسكرية عائمة. ثم ان خبرتي في الخدمة العسكرية..».

قاطعه الطيّب غامزاً، بين الجدّ والمزاح، وضحك:

«خبرتك العسكرية؟. هل تؤهلك خبرتك العسكرية أن تؤكد انها قطعة

حربية؟ كيف؟». ورشف من فنجـان قهوته الذي برد، وأضاف: «أذكر أنك خدمت في سلاح المدرعات، وليس في البحرية. أم تراني نسيت؟!».

طفحت السخرية. الهزء. كأنما التدرّن تقيّحَ، في نفس خالد الطيّب، كي ينفثيء على هذا النحو. في وجه أي كان. بلغ الضيقُ به حدّ أن ينفث مكبوتاته باتجاه رفيقه الصديق. وتابع، مصعّداً وتيرة الاستفزاز دون أن يعي السبب:

«ثم، يا أخي، إذا كنت على هذه الدرجة من اليقين، فقلْ لي عن نهاية هذه الحرب. هل تستطيع؟».

ردَّ الحلبي مُستفزّاً:

«أنـا لم أدّعِ اليقـين في شيء، . .»، وأكمل وقد اشتعلت عيناه بوميض عسلـيّ: «حسناً. ماذا عن نهايتها؟ حدد سؤالك ولا تسخر.».

تراجعت نبرة الاستفزاز في صوت الطيّب، الاّ انه قال:

«لصالح مَن؟. مَن سينتصر بها ومَن الطرف الذي ستهزمه؟ عسكرياً.».

«الجميع مهزومون.».

فآحتجَّ خالد الطيّب:

«لا. هذِهِ فلسفة وليست بعسكريات أبداً. ولا حتى سياسة!. قلْ لي: أكانت مثل هذه الأشياء. . هذه الأشياء عن الجميع مهزومين والحرب هي المنتصر الدائم الى آخره. . هذه الأشياء، أكانت ضمن دورتك العسكرية!. أكنت تتلقى تدريبك في السوربون قسم الفلسفة، أم في كلية لانسنغ آند هرتفورد في اكسفورد؟.».

زعقَ نذير الحلبيّ: «وهل تعتقد أن هذه حرباً عسكرية؟».

«ماذا تسمّيها اذن؟. تراشق بالمفرقعات الملوّنة؟ ها؟. أم هي قصف الورد بالزهور؟. .».

«أي شيء. أتعرف؟. انها أي شيء يسبب القتل ما عدا انها حرب عسكرية!».

«واسرائيل؟»، قال خالد الطيّب، «واسرائيل؟. مع مَنْ من الأشياء هي؟ هذا الشيء أم ذاك الشيء أم الشيء الآخر أم الشيء الأول أم الشيء العاشر؟؟. .».

وضحكَ.

الاّ ان نذير الحلبيّ لم يضحك. حافظ على عبوسه، وصوّب ابهامه نحو خالد الطيّب، وقال:

«انها - إن أردت المسألة هكذا -، انها مع الشيء ككل!».

«ماذا تعني؟».

فأشاح الحلبيّ بكفّه مثلما يُلقي من وراء ظهره: «إنسَ!».

□

يومـان على هذا التاريخ والسفينة في الغيب. وراء المدى. وراء الحدبة الشفيفة الملتصقة بالسماء، والتي من الصعب تعيينها عند خط الفضاء. قد تقترب اليوم من المياه الآمنة، فتنفرج القلوب المتقبضة وتستريح النفوس. قد تتأخر، فلا يكون سوى المزيد من الاحتراق للرغبات اللائبة، المطحونة. الرغبات الخفية التي تفضح نفسها في العيون الشاردة، السابحة في لونها المحمرّ.

لا فرق بين لون الميناء ولون البحر.

لا مسافة بين ضجيج الصدور وصخب المكان الساحلي عند الساعة العاشرة.

ينسفحُ الكلُّ في الكلِّ، ويتداخل، فيكون لهيب التقى وطغى على أنفاس المدينة من أزقتها المالحة حتى أقصى نقطة على رمل شاطئها المقفر. وفي مكان ما، بين الأزقة المكتظة، ونقطة الشاطىء القصوى، كان الثلاثة. اشتروا حقائب يد صغيرة ليحفظوا فيها جوازات سفرهم، ونقودهم، وبعض العناوين. راحوا يدبّون تحت سماء خطفت الشمس لونها.

وجوه لا تعرف بعضها، الاّ انها تدرك مساعيها. هناك الرصاص، وهنا السلامة. هنا، على الشاطىء الصامت الآمن، امكانية الانفجار. وهناك، وراء البحر، ضمانات النجاة.

النجاة.

وتذكر: «هل ستهرب منها، في الوقت المناسب، أيضاً؟».

استدار الى اليابسة التي ما عادت يابسة، وهجر الذين ارتضوا أن يتزلزلوا معها. بات الماء أكثر استقراراً وثباتاً. صار البحر هو الطوق.

الطوفان الثاني. الرحيل الثاني.

الطوفان الأول صار وانتهى. أما هذا؛ فطاغٍ هادر لا يعلم الاّ الله متى ينتهي، أو كيف. «الله!»: فكّر الطيّب، ثم سرعانَ ما وصل الى حياديّة الله في هذا الطوفان. «سيفه غائب في الوقت الذي أُشهرت فيه كل السيوف!».

حقاً؟.

هو لا يوقن. ينغلُ الشكُّ في قلبه فيجرّه الى التذكّر. يجترّ من ركام قراءاته: (فـالله ليس جالسـاً على عرشه فوق الغيوم. انه يصارع هنا على الأرض والى جانبنا*). لا يوقن. يترك نفسه للنهب: «هذا صحيح. ولكن أين هو؟ يقولون أن مَن يحارب ونصيره الله فانه الخاسر حتماً!. نكتة يطلقونها. ورغم هذا، وعند الشعور بدنو خسارة أو هزيمة، يتطلعون اليه في عرشه الشاهق فوق الغيوم. ويطلبون النجدة. صوتٌ ما في عمق الروح يطلع إثر الصمت الطويل. يرتفع بالغوث. تسقط الايمانات الجديدة، ويرتمون في حضن الذي أنكروه زمن القوة. زمن قوتهم... آه يا أبا الحَكَم؛ كم يذكرني هذا بك، وأنت، بارادتك، تتحرك في ظلّهم كأنك سيزيف آخر. ينكرونك في زمن ضعفهم وعند صياح الديك، فيقوون عليك. أنت يا أبا الحكم. أنت ايمانهم الـمُنكر والـمُستَنكر!».

ويتذكر.

بيروت.

والمطر الساحلي ثقيل الانهمار يصفع النوافذ المغلقة. رؤوسهم تتحرك في الداخل. يبدون من خلف الزجاج المندّى بلا تحديدات. بعض الألوان المغبشة تسيل من أشكالهم وتنداح بتداخل وانفصال ولا صوت الاّ المطر الذي يضرب النوافذ. المطر الذي ينقر وينقر ولا يدخل. الشهر في آخر أيامه. والمكتب: ورشة العمل التي تسبق اصدار العدد الجديد. مدير التحرير يخابر الخطّاط الذي لم يحضر للآن. الـرفيق رجـل الأرشيف يفـرد الصُّـور أمـامـه، ويفـرزها، لينتقي منها الشخصيات المطلوبة. يتقبّل مزاح المخرج العراقي، ويردّ عليه بلهجته السودانية. ينحشر العم زيدان وهو يحمل طلبات الشاي والقهوة. لفائف مواد العدد على

---

(*) نيكوس كازانتزاكيس.

الطاولات، وبعضها يتدلّى وقد ألصقوه على الجدار. يدلف الحارس بسلاحه. يخطف كأس شاي، وينثرها مازحاً: «للمقاتلين نصيب يا رفاق». فيعلّقون: «نصيبك الجنّة وأجمل ملصق. ما عليك سوى أن تستشهد!». فيناكفهم قبل ان يخرج من الباب: «باطل! المثقفون والمتعلمون أولاً!». ويستغرق الجميع في الضحك، وتتوالى الجمل المفكّكة الذاهبة الى أصحابها: احذر الصمغ. لقد علّق شيء منه على كنزتك. ـ ملتصق بالكلمة حتى طلوع الروح!.. قهقهة... ـ كيسنجر رايح كيسنجر جاي. ـ الزعتر ما زال محاصراً. ـ هاك صورة هاني جوهرية. ـ أليس هناك من غيرها يا رفيق أبو النجوم؟. ـ لا. هذه وتلك التي يصوّب فيها كاميرته مثل بندقية. ـ لكنها نُشرت في كل المجلات!. ـ هل أرسمه لك؟ ـ. ويهتزّون بضحكاتهم المجلجلة ويرتجّ زجاج النوافذ على صوت قذيفة هاون قريبة. الموقف حرج. المعارك في الجبل. في عينطورة. الطلبة يسقطون على الثلوج والملصقات تحتشد بوجوههم. شيّعت بيروت جوهرية الاسبوع الماضي. أفاق مجهولاً ومات مشهوراً. سقطت كاميرا مقاتلة. صمدت مواقع وطنية وفلسطينية. كتبوا على صخر الجبل: لن يمرّوا. يرنّ جرس الهاتف. يسقط زجاج ما. ربما كوب، أو صحن صغير في المطبخ. يتكسّر شيء. تهدأ الأصوات. تهدأ. ثم يرين صمت عميق مثل انتهاء عاصفة. ينظرون الى بعضهم، وتتوجه عيونهم صوب الباب.

أبو الحكم، والى جانبه يقف رئيس التحرير.

يطغى وجوم. يتسمّر أبو النجوم حذاء طاولته فارعاً مديداً. عيناه مزيج من ثلج ودم. بشرة سوداء وقلب أبيض. ينظر خالد الطيّب الى نذير الحلبيّ. ينظر لذير الحلبيّ الى زاهر النابلسي، ابن أخ أبي الحكم: ما يزال ممسكاً بورقة «ماكيت» يراجعها للمرة الأخيرة. عيناه تسألان وكأنهما استغاثة ضائعة. لا يعرف العراقي بأي شيء يتلهّى ليتقي حرج الموقف الآتي. الجميع يعرفون. كانوا يعرفون، ويتهامسون، ويتوقعون. لا أسرار في بيروت. يبتسم أبو الحكم. يسيطر رئيس التحرير على ملامح وجهه، ويحاول إنهاء الموقف بسرعة. يتنحنح:

«جاء الرفيق أبو الحكم ليودعكم!».

اتسعت ابتسامة أبي الحكم. زادت ترسخاً في وجهه. ازدادت ايغالاً في الذاكرة.

يتذكر:

«أذكر أنه تكلم بايجاز. قال: «يعطيكم العافية.». وصمت. تنقّل بعينيه، وصافح وجوهنا واحداً واحداً. توقفت نظراته عند الزجاج المتعرّق. فتح فمه، الّا انه لم ينطق. أبقى على بداية ما داخل صوته الذي لم يطلع. ظلّ الصوت محبوساً في إسار وجهه الحاضر. المشهود. الكامل. المتعيّـن. الـمُكهرب. تنحنح رئيس التحرير ولم يقل شيئاً. أطرق أبو الحكم لوهلة. بزغت ابتسامات وتوارت على الفور. رفع رأسه، وصوّب نظره نحو زاهر. تملّاه لوقت تعدّىٰ الدقيقة، ولم يستطع زاهر خلالها أن يتخلّـىٰ عن انشداهه المفضوح.

خطا خارج الغرفة.

لحق به رئيس التحرير.

لكن سؤال أبي النجوم أوقفهما، : «هل نراك؟.. متى؟».

جمدا في مكانيهما. مال أبو الحكم برقبته قليلاً. تفرّس في الأرض قليلاً. ثم قال موجّهاً نظرته الى السوداني الطويل ـ وكانت عيناه بلون الدم ـ:

«لا أعرف،..»؛ وأضاف بعد أن شخص الى رئيس التحرير: «ربما، يا رفيقي، ربما بعد أن تنتهي مهمتي السريّة!».

واختفى.

بانَ العم زيدان بقامته النحيلة. تمتم بشيء غصَّ به.. فتراجع الى مطبخه.

توارى بعد أن علّق لنا سؤالاً كالجرس. حضوراً حافلاً، صامتاً، أتلمّسه الآن. ابتسـامـة وشمت الذاكرة. عدداً من المجلة بدأ منه غياباً عن الكتابة. والمكاتب. وشارع الفاكهاني. وطُرقات بيروت. وعتبات البيوت المتفصّدة مطراً، وعرقاً، ودماً، واحتمالات

وتساءلت: «مَن يكون بديله في كتابة المقالة السياسية؟».

عندها، حضر مروان؛ فتراجعت هارباً الى المدام.

لا شيء يطفر في الروح مثلما تطفر المدام. تشوّش وجه بحيرتي الساكنة. أرقب نجماً قد يولد. لا شيء يولد. فتستقرُّ في عمقي راسخة واثقة. أستولد صوتها الذي أسمعه وحدي. يأتي بلا ممانعة. لا يتأبى. هكذا هي دائماً. لا تتأبى. تستجيب المرأة للذي أبدأه وترضى.

تيسٌ كبيـرٌ أنا. كبشٌ ينطحُ غبار حوافره. يسجّل انتصارات في الهواء.

يتعب منها. يلوّح بذراعيه مهوّشاً. يذروها نحو الجفاف المستقر في الصدر.

لم أنجز شيئاً.

أنظر في الوجوه التي ليست معي. تقول الوجوه لي: «صحيح!». فأخرج على هدوء اللحظة، وأصرخ في الجرف الذي ينجرف وينجرف: «مَن منكم أنجز شيئاً؟.. لا أحد.»!

أتيقّنُ من أني تيسٌ لم يعرف أن يستفيد من قرنيه. هذا يقيني اليتيم.

تنهض جبال الليل الغارق بالمطر. أتحقق من الأرض تحت قدميّ، وأغادر عتبة المكتب. تكتمل الدورة. يُنفى الصوت النشاز. الشاذ. ودّعنا واختفى. أُغلق المدار. أنا في قلب المدار. في الوسط. الاّ انني أختنق! عجباً!.».

□

وجوه.

تعاوده بلا ضجيج. لا يستقدمها غير انها تأتي. لا يقوى على ازاحتها. تقترب. تلتصق به. يمسحها من على وجهه.. فتتبدد، بلا ضجيج أيضاً، وتذوب في الطيّات التي تتوهمها عيناه.

الماء. وجه المدام رائق كوجه الماء. قال. ثم قال عـمّا قاله انها انشائية فجّة لا تتناسب وما يريد. ماذا يريد؟. لم يُجب. لم يجد الجواب. وبقيت المدام وجهاً يحفظ الأسئلة. أما هو: فعاقر لا ينبت اجابات.

تضحك. هي تضحك وهو يتلهّى نابشاً في الفراغ. يتوقف. يدرك فجأة أن في الفراغ فراغاً لا يحوي جواباً. يكفُّ عن النبش والمحاولة. يستعيض عن الضائع بأصابعها. تدعها له. المدام ترضى ولا تتأبى - كما يقول؛ فينهض غبار الحوافر ويتوّج رأسه. ينطحه وينطحه. فتضحك وتضحك!

□

«تقول لي: أحبك.

أُصدّقها ولا أُصدّقها.

ثمة صوت لم يطلع، إذ بُتر الوتر منذ الولادة.».

□

يقرأ الوجوه، فتأتيه مثل الكلمة الأولى.

يأتيه وجهها دون استدعاء. يدخل عليه. لا فرق بين الآن والأمس. ليست ثمة فروق. الأمكنة تحتلّ الأمكنة والزمن فوضى. تأتيه دون استدعاء ودون عتاب إذ قرأت نهايته منذ المرة الأولى على جسده! انتظرها حتى أتت. انتظرها، في الزمن الأول، وخنق الوقت وشربه حتى آخر قطرة في الزجاجة. الزجاجة التي أحضرها بديلاً عن لغته الخرساء. لتكون لغة الكلام المتكبّر. المعاند.

جاء صوت خطواتها أولاً. اقترب. فتح الباب فدخلت. تلاشى الانتظار وحضر الجسم.

سألته، وما كان جسداهما قد تعارفا بعد: «من أنت؟».

فقال: «خالد الطيّب. هوذا اسمي.».

فضحكت. ضحكت المرأة ـ المدام، ودخلا، معاً، نفق الوقت والتعارف.

# 6

**من دفاتر زاهر عيسى النابلسي*.**
**الوثائق التي لم ينشرها.**
**الكتابات المحفوظة حتى اليوم دون تحقيق.**

أنا زاهر عيسى النابلسي من نابلس. أسكن نابلس لكن والدي من قرية قريبة منها. فلّاح. أبوه فلّاح. . أعني جدي، وهو يعمل بائعاً بالكومسيون لبضائع أصحاب الوكالات في عمّـان. كان أبي يبيع بالكومسيون جميع أنواع وأشكال

---

* ـ *إن عدد الدفاتر التي تم العثور عليها هو ستة دفاتر.*
*ـ لقد وصلت الينا هذه الدفاتر عن طريق صديق صادف أن سكن في الشقة ذاتها التي كان المدعو زاهر عيسى النابلسي يسكنها قبل سفره الى الاسكندرية ـ كما يبدو ـ، ولم يعد اليها. والسبب غير معروف حتى الآن.*
*ـ لقد كتب اسمه على غلاف كل دفتر من الدفاتر الستة، مع عنوان بخط كبير بالحبر الأحمر هو: (أنا إشارة إستفهام)!.*
*ـ إن المدقق في هذه الدفاتر يلاحظ فوراً أن صاحبها لم يكن يخطط سلفاً لكتابة نوع معيّـن من السيرة الذاتية، أو الأدب النثري. فمجمل محتويات الدفاتر الستة عبارة عن خليط مشوش وفوضوي من المذكرات والانطباعات حول أشخاص*

البضائع. وكان يربح جيداً. كان هذا قبل احتلال «اسرائيل» للضفة والقطاع والجولان. النابلسي ليس اسم العائلة لكنه لقب صرنا نعرف به لأن تجّار عـمّان اصطلحوا عليه كتسمية سهلة لأبي.

أما عمّي منصور فان اسمه لم يتغيّـر وظلّ محتفظاً بلقب العائلة الأصلي. قد يكون السبب في هذا هو العمل الذي مارسه عمّـي في تلك الفترة. كان أُستاذاً يدرّس مادة العلوم والرياضيات. للمرحلة الثانوية. عمّـي منصور أصغر من أبي بأربع أو خمس سنوات. وكان يختلف عن أبي في كثير من الأشياء ويختلف معه حول كثير من الأمور أيضاً وبالذات السياسة.

أبي ما زال يعيش في نابلس. وعمّـي منصور، أو أبو الحكم، كما صار يُلقّب، أعيش معه هنا في هذه الشقة في بيروت.

**ـ من الدفتر الأول ـ.**

□

(القديم قديم. والحاضر يتواصل. الزمن يتوالد دون توقف. لا أنت بإله حتى توقفه. ولا هو بأداة حتى تسخّرها. معطيات الوجود وأنت موجود. فعشْ.).

.. هذا ما كان يقوله لي عمّـي. هكذا كان يحدّثني ويتكلّم معي عن أشياء لم أكن أستطيع تجميعها. لست مطّلعاً عليها. وللغرابة فقد أضحت الكثير من مفرداته مفرداتي. بلا فهم كامل. بلا تجربة حقيقية عشتها. أأنا ببّغاء العائلة!؟

---

*كان يعرفهم المدعو زاهر، وعن عائلته، وتسجيل لأحداث مرّت به، فدوّنها كما هي أحيانـاً. واحياناً أُخرى لم يكتفـ بالتدوين، وإنما عمل على اضافة تعليق مسهب، أو سؤال يحمل في جوهره مطلقاً كالفلسفة. جاء هذا ضمن حدود إطّلاعه وثقافته غير الواسعة.*

*ـ لقد تم اختيار ما يناسب من الكتابات المدوّنة في الدفاتر، وهي تلك التي تفسّـر لنا بعض الملابسات غير الواضحة وإن كانت غير وافية، والتي تلقي الضوء على تفاصيل ساعدت في بناء الحدَث، أو في تصوّره ليقترب ما أمكن من الواقع الحقيقي الـمُفترض.*

*ـ استبعدنا صفحات كثيرة من الدفاتر الستة لأننا لم نجد فيها ما هو مفيد*

ما يقوله أبي كنت أقوله (القرش في زمن الزفت نِعمة). وما يردده عمّـي صرتُ أردّده (أعرف قانون الحياة تتغلّب عليها).

لكنهما متناقضان. على النقيض تماماً. وأنا في الوسط.

لماذا في الوسط دائمًا؟

ها هو خالـد الـطيّب. وهـا هو نذير الحلبي. وهـا أنا. انهما يتناقضان ويختلفان. انهما يملكان قناعات تبدو راسخة. لكنني بينهما مثل إشارة الاستفهام المغلقة.

يتناحران بصورة خفية ولا يأبهان لي.

هذا شأنهما. لكنهما يجهلان انني أخزن حقائق لا يعرفانها. أنا زاهر عيسى النابلسي ابن أخ رفيقهما منصور أبي الحكم. صحيح انني أصغرهما سنّاً ولا أتحدّث مثلهـما، لكنني أملك كنـوزاً. كنـوزاً؟! أنا أملك كنوزاً! مسخرة. انها بعض المعلومات الصغيرة التي ربما تكون غير ذات قيمة. أخاف من أن اكتشف أن كنوزي جواهر زائفة. لا أحد يدري. أنا لا أدري.

**ـ من الدفتر الخامس ـ .**

□

إن المقتل هو في أن نعيش الوهم بحيث يحكم قبضته على حياتنا، وأن يسيّـرنـا في أكثر المضائق صعوبة ووعورة، بينما نعتقد بأنها ساحات تقودنا الى

---

*وصالح للهدف والغاية. فعشرات الصفحات لم تخرج عن كونها عذابات مكرّرة لشاب يفتقد الوضوح والفهم لما يحيط به. شاب يتلمّس طريق معرفته. كما أن صفحات عديدة أخرى كان يشوبها اقتباسات شتّى، فكرية وسياسية، وأحياناً أدبية شعرية، طابعها الخلط وانتفاء التسلسل ذي المنهج المتكامل، مما يدلّ بشكل دقيق على أن المدعو زاهر عيسى النابلسي إنما هو مبتدىء يحاول أن يفهم العالم المحيط به.*

*ـ يقول الصديق الذي عثر على الدفاتر الستة، أنه وجد، أيضاً، في دُرج خزانة الملابس، بعض الكتب المهمة والتي ـ كما قال هو ـ تعتبر تأسيساً خطيراً لمذهب فكري سياسي جديد!.*

الوضوح. ينقصنا الوضوح. ينقصنا الوضوح؟. . انها من عبارات عمي منصور. سأستخدمها. ينقصني الوضوح بالتأكيد. لكنني قبلت نصيحته ودخلت في التنظيم الطلابي التابع لجماعته وما زال الوضوح ينقصني. قلت هذا له فقال لي لست وحدك فلم أفهم. ليست الأشياء واضحة الوضوح الذي أريده. الثورة حسم. لا شيء محسوم. هكذا أراه. أعيش في فوضى وأسير بقوة دفع من خارج إرادتي. أنا مسلوب من الداخل. لست حرّاً. أتأرجح مثل بندول الساعة. الثورة حسم وأنا في الثورة ولا شيء محسوم فيها. أنا مسلوب. أرى انني أنا اشارة الاستفهام تصير إشارات وتملؤني بالخوف.

**ـ من الدفتر الرابع، النصف الثاني ـ.**

□

لم أقل لعمي اني خائف. واني أحفظ درس أبي. وأني منذور للخليج وللقرش الذي سأفقأ به عيون العالم واللصوص والتجّار.

قال لي (ما عليك. ستتعلّم. سأدبّر لك مكاناً في مكتب الإعلام. مصحّح بروفات. بداية جيدة.). ولما رآني أحدّق به لا أتكلّم، تابع يقول (تتعرّف العالم والثورة. تكتسب خبرة فريدة.).

كنت مثل الذي يؤخذ من يده الى بحر يخشاه إذ لا أعرف السباحة. أرى

---

*ـ أما كيف اهتدى هذا الصديق الى هذا الاستنتاج المدهش، فقد شرع قائلاً: (إن الكتب بحد ذاتها، التي عثرتُ عليها في الخزانة، ليست هي التأسيس للمذهب الفكري والسياسي الجديد. كلا. إنما هي مجرد كتب متوفرة في أي مكتبة تتعاطى بيع كتب الأيدولوجيات اليسارية بقديمها الكلاسيكي وجديدها على مختلف اتجاهاته. لكن الملاحظ انه لم تخل صفحة واحدة من صفحات تلك الكتب من تقويسات وأسهم تشير الى كتابات على هوامش الصفحة، حيث دوّن بخط دقيق وصارم جُملة ملاحظات احتجاجية أو استنتاجية غاية في العمق والذكاء. كما انك إن أعدت قراءتها ككل، ضمن تسلسل معيّن اهتديت اليه أنا، فانك ستذهل كل الذهول أمام النتيجة!. أشبه بنظرية متكاملة!).*

البحر ولا أجرؤ عليه. ومشيت كما شاء.

**ـ من الدفتر الثاني ـ .**

□

عدتُ الى الشقة التي أسكن فيها مع عمي منصور. رأسي مليء بآلاف الكلمات والجُمل الناقصة وتشطيبات التصحيح والتهميشات على صفحات كراريس الجامعة. ملاحظات الدكتور المحاضر. كان الوقت ليلاً وكنت متعباً أُريد أن آكل وأنام. عندما وصلت الى باب الشقة تناولت المفتاح لكنني سمعت أصواتاً في الداخل. سمعت الأصوات بالرغم من ارادتي. لم أكن أقصد ذلك. سمعت صوتاً يقول (ثوابت أزلية أبدية). سمعت هذا فاحترت هل أدخل أم أعود أدراجي الى المكتب. كنت أُريد أن أنام. تردّدت أمام الباب ووضعت أصبعي على جرسه الكهربائي وسمعت نفس الصوت يقول (حياة. نظرة الى الحياة. انه موقف قد نختلف معه لا بل نتناقض وايّاه الى حد الاشتباك!). انتفضتُ على صوت الجرس يرنّ في رأسي وانتبهت الى انني ضغطت عليه دون أن أشعر. كنت متعباً. انفتح الباب وأطلّ وجه عمي. نظرت الى الداخل وأنا في مكاني لم أدخل. قال عمي (أدخل). وكان وجهه متعباً وغير حليق. دخلتُ ورأيتُ آخرين أعرف معظمهم فهم من أصدقاء عمي ومن الرفاق. كانت عيونهم تلمع في اضاءة غرفة الصالون الخفيفة. كانت الانارة شحيحة وكانوا يجلسون حول الطاولة المربعة التي في

---

*ـ هذا ما قاله الصديق. وعندما سألناه عن جوهر النظرية، أو شبه النظرية تلك، قال:*

*(النقيض السياسي التام والكامل لكل ما كان مطروحاً في ساحاتنا بلا استثناء. والرفض الجذري للتيارات الكبيرة ذات الشأن والوزن والخطورة والتأثير!).*

*ـ استغربنا المسألة برمتها، وأفصحنا عن ذلك بقولنا ان كتابات كهذه، والتي هي بين أيدينا في دفاترها الستة، لا تنبىء أبداً عمّا يقوله الصديق. غير أنه أوضح قائلاً:*

*(لا. بالطبع لا. عيسى النابلسي، أو زاهر عيسى النابلسي ليس هو صاحب*

الوسط. رأيت أكواب الشاي وفناجين القهوة ومنافض السجائر طافحة بالأعقاب المهروسة. شعرت بأن الجو مشحون بكلام لم ينتهوا منه. أصابني الحرج واعتقدت انني تطفّلت عليهم. لكنني كنت متعباً أريد أن أنام. فكّرت ان هذا المكان ليس مكاني. اعتذرت بكلام نسيته الآن. اعتذرت منهم عن خطأ لا أدري ما هو لكنني شعرت بتطفلي. اعتذرتُ واستدرتُ أريد الرجوع الى الخارج لكن عمي نادى عليّ (زاهر). توقفتُ ونظرتُ اليه فرأيته ورأيت ابتسامة في عينيه. كان يبتسم غير ان ابتسامته كانت ابتسامة متعبة. كيف يبتسم وهو مُتعب؟!. سألني (هل تعشيت؟). فكذبت عليه وكانت المرة الأولى التي اكذب فيها عليه ولا أعرف لماذا (نعم). لم أستطع اخفاء تعبي اذ يبدو أن هيئتي فضحتني. أحسست بدمعة تحرق حلقي. سمعت عمي يقول بصوت حاسم (حسناً. نلتقي غداً يا رفاق.). تحرك الرجال. تحرّكت رؤوسهم أولاً ثم رأيتهم ينسحبون بهدوء ويربّتون على كتفي ويقولون (تصبح على خير يا زاهر. السلام عليكم.). كنت متعباً عندما أغلق عمي الباب ولا أدري لماذا شعرت بنفسي صغيراً أكاد أن أستند الى كتفه وأن أبكي. لكنني لم أبك بل هربت بعينيّ عن عمي الى الكتب المرصوصة الى جدار الصالون الكبير. لقد سمعت كلاماً لم أفهم منه شيئاً محدداً لكنهم كانوا يجلسون جلسة مهمة. أنا متأكد. كان هواء الصالون عابقاً بالدخان الأزرق. دخان السجائر ورائحتها القوية. قال لي عمي (هل سمعت شيئاً؟). وسمعت في صوته ما هو غريب عليه. شيء من التبسط المبالغ به والخوف. لا ليس الخوف بل التوجس أو القلق. لست أدري. كانوا واقفين في النور الضعيف وكانت الطاولة المربعة في

---

*الكتب قطعاً. بلا أي شك. فالخط مختلف، واللغة ليست لغته. لا بد من أن شخصاً آخر غير زاهر النابلسي كان يسكن معه. أو ربما بعده. مَنْ يدري؟).*

*- ضحكنا في سرّنا من الصديق الذي لم يتمهّل، ولم يُعطِ أهمّية للدفاتر الستة. إذ لو أنه قرأ الكتابات جيداً لاكتشف مَنْ هو صاحب الكتب بالتأكيد.*

*- ولكن: هل هو حقاً من نعتقد أنه هو؟!.*

*- إن التضمينات المنتقاة لم تأت، في أصولها الدفترية، حسب الترتيب المنشور هنا. إنما عملنا على تنسيقها حسبما يقتضي سياق النَص وانسجامات أجزائه مع بعضها البعض.*

الوسط ممتلئة بأكواب الشاي وفناجين القهوة ومنافض السجائر وعلى الأرائك المحيطة بالطاولة رأيت أوراقاً بيضاء ملفوفة ومربوطة بحلقة مطاط. كانت بقايا دخان السجائر مثل الضباب المحروق. وكانت تغطي الجدار الكبير وسألني عمي (هل سمعت ما قلناه عن التناقض الى حد الاشتباك؟). فقلت له (نعم) وسألت نفسي أهذا هو السر؟. ولكن أي سر هذا فانا لم أفهم. سكت عمي طويلا مما زاد من تعبي، وأنا واقف، ومن حدسي بأن في الموضوع لغز ما. وسألني عمي (هل تمانع في أن نتمشى قليلا على الكورنيش؟ سنأكل في أحد الكازونوهات هناك.). ولـمّا لم أردّ عليه قال (اذاً نذهب. هيا يا زاهر، إن هواء البحر في الليل يغسل عنك تعبك).

- من الدفتر الرابع - .

□

أنا أتذكر كل شيء. فالذي حدث حدث بسرعة كبيرة. في خمس دقائق أو أقل. لا أعرف بالضبط لكنه حدث بسرعة كبيرة وكان الوداع. لم أودّعه بكل معنى الكلمة لكن الوداع حصل بطريقة غريبة مثل الحلم. اذا كان حلمًا فانه كابوس. هل نسيت؟. لا لم أنسَ. أنا أتذكّر كل شيء. حدث كل شيء وكأنه حدث أمس. كم مضى على ما حدث؟. نسيت. شهور. شهور بالتأكيد. لم يقل الاّ كلمات قليلة وذهب. سمعه الجميع وكنت مع الجميع ولم أقل له شيئاً مثلي مثل الجميع.

---

*- لاحظنا أن صاحب الدفاتر قد تغيّـر أسلوب كتابته واختلفت لغته وذلك على نحوٍ تدريجي، من الدفتر الأول الى الدفتر السادس. وكذلك خلت بعض كتاباته من التأريخ.*

الآن فقط أتذكّر كلاماً قاله في وقت مضى. أتذكّره الآن لأنه تطابق مع ما حصل. قال لي لست وحدك الذي ينقصه الوضوح. نعم قال لي هذا وعندما غاب نسيه الجميع. أنا متأكد أنهم نسوه تماماً والآ كيف أفسّر سكوتهم وكأن شيئاً لم يكن؟!.

لم يعودوا يذكرون اسمه على لسانهم وكأنه لم يكن واحداً منهم. كأنه لم يكن هو الذي يكتب لهم في المجلة التحليل السياسي المركزي. عجيب!. غير سؤال أبي النجوم عن موعد عودته لم يذكره أحد. كأنه مات ويريدون نسيانه. حتى الطيّب ونذير لا يذكرانه أمامي. أشعر أنهما يتحاشيان ذكره وكفّا عن زيارتي في الشقة والأطمئنان علـيّ كالسابق. الشقة التي كان يسكن فيها معي. لا بل الشقة التي أتيت وشاركته السكن فيها. ترك لي كل شيء. ترك كل شيء كأنه في سفر قصير وسيعود غداً. كل شيء بقي على حاله. ولم يعد حتى اليوم. ترك لي كتبه المصفوفة الآن أمامي على ستة رفوف عريضة. هل أقرأها؟ من أين أبدأ؟ من التاريخ أم السياسة أم الاقتصاد السياسي أم علم الإجتماع أم الفكر والفلسفة أم أم أم؟!.

وترك لي الى جانب الكتب هذا الـمُلصق على الحائط. الفدائي الراكض الى الأمام مصوّباً الكلاشينكوف. ملصق الفنان شموط. ملصق اسماعيل شموط المشهور والمبروز والمعلّق في جميع المكاتب. لماذا نقلوه بعيداً؟. لا أحد يقول. لكن في الجو كتمان مقصود. اذاً ففي الجو شيء غَلَط. غَلَط؟!. ما هو الغَلَط؟. شعرت به ولم أستطع أن أحدّده، فأبقيتُ عينيّ مفتوحتين على كل شيء. تسجّلان كل شيء. ذاكرتي تختزن كل شيء. الكلمات والوجوه والأماكن. كل شيء. أمرّ بتجارب صغيرة. أقرأ صفحات الجامعة وبروفات المجلة لأُصحّح الأخطاء المطبعية. أمشي في الشـوارع والمخيمات وألتقي بالرفاق في مكتب الإعلام وفي التنظيم الطلابي فأختلف معهم وأتشاجر وأقول أنا لا أحب العنف مع الزملاء فيقولون انه مطلوب أحياناً يا رفيق. صرت رفيقاً ورميت بنصائح أبي عن بطش اليهود اذا عرفوا وعن القرش الأبيض في زمن الزفت في البحر، وصرت أحرس في بعض الليالي وأُناقش علناً في بعض الأحيان. وعندما أُخطىء أتمنّى أن أعود الى الشقة لأجد عمي هناك ليصحح لي كالعادة ولا يضحك أو يسخر مني. يقول جملته وكأنه يقولها لأول مرة (الثورة مصنع الرجال. لا تخف يا زاهر. الجميع يخطئون.). فأستعيد ثقتي التي هربت مني واختفت كأنها تمارس معي لعبة الاختباء والظهور.

عمي ليس مثل خالد الطيّب وليس مثل نذير الحلبيّ. انه يحبهما فهما رفيقاه.

لكنهما يختلفان عنه كثيراً. سألته في مرة فقال لي (الدوافع للإنخراط في الثورة تختلف من رجل الى رجل. تماماً مثل أصابع اليد. الدوافع تختلف بينهم لكنها تجمعهم ولا تصفيق الاّ بها جميعاً. المثقفون يقولون عن ذلك انها الوحدة في التنوّع. صدّقني يا زاهر. إن وعيت هذا الكلام واذا استوعبت الناس كما هم، فلن تقف مشكلة أمامك أبداً). هكذا قال. لكنه الآن في مشكلة وأنا لا أعرف ما هي ولا كيف أساعده. عمي ليس كاذباً وأنا أُصدّقه. ولكن لم يصدّقه الآخرون. أرسلوه في مهمة أجهلها تماما. قال البعض (أبعدوه)!. وعلّق البعض الآخر (عقاب مؤدب)!. بينما أصرّ الآخرون (لقد ذهب بعيداً في الاجتهاد)!!. هذا ليس تفسيراً أفهم منه الحقيقة. هذا ليس كلاماً. تدور بي الدنيا مثل الزوبعة ولا أجد جواباً. لجأت الى خالد الطيّب ونذير الحلبي فهما القريبان مني ويحترمان عمي. لم يضحكا ولم يسخرا. لكنهما صمتا ونظرا الى بعضهما بعيون تقول شيئاً ولا تقول ما أفهمه. وعندما ألححتُ عليهما تحرّجا. ألححتُ فقال الطيّب (سنسافر معاً بعد مدة الى الاسكندرية. فأنت ستقدّم امتحاناتك هناك. يستحيل اجراء الامتحانات هنا والمنطقة تُقصف يومياً. الطلاب أمانة في عنق ادارة الجامعة. وسأقول لك كيف أفهم المسألة)!. لكن الحلبيّ قال لي (لا تُصغِ اليه. سأحدّثك أنا). فثرتُ فيهما لأنهما يدّعيان المعرفة ويبخلان بها (ماذا تظنان؟ لست صغيراً ولا غافلاً. اذا كنتما تريدان الحديث فهيّا قولا الآن. ولكن يبدو لي أنكما لا تملكان ما تقولانه). حاول الطيّب تهدئتي فقال (لا تستعجل الأمور يا زاهر. سنسبب لك التشوش والامتحانات قريبة.). فصرختُ فيه (طز في كل الامتحانات يا أخي. عمي أهم من كل الشهادات)!. عادا الى صمتهما وكأنني لم أصرخ أو أغضب، قلت لنفسي ما كان عليّ أن أنفعل. وتذكّرت ان هذه واحدة من نصائح عمي منصور، اذ انه حذّرني من أن الصراخ والغضب يؤديان الى خسارة أكثر القضايا عدالة. عمي منصور لم ينفعل أمام مشكلته وظلّ هادئاً ولم يقل شيئاً.

أنا أتذكّر كل شيء. فالذي حدث حدث بسرعة عجيبة. قال وداعاً على طريقته الخاصة وغاب. ذهب. ظلّ الجميع في أماكنهم وأنا في مكاني أنظر الى الباب الذي خرج منه ولم أتفوّه بكلمة. كنت مندهشاً ومشلولاً وبقيت صامتاً مثلهم. أنا أتذكّر كل شيء. كان بين يديّ موضوع ثقافي كتبه نذير الحلبيّ وكنتُ أُدقّق فيه الأخطاء المطبعية لآخر مرة. لم يتحرّك أحد. ولكن بعد وقت رأيت خالد

الطيّب يسير الى الباب دون أن يكلّم أحداً. ورأيته يذهب ويهبط الدرجات. عند ذلك انتبهت الى أن المطر كان يهطل بغزارة شديدة وسمعت صوته على النافذة. فنظرتُ الى الخارج، لكن شيئاً لم يتضح لي إذ كان الليل، وكانت بعض الأضواء في البناية القريبة.

**ـ من الدفتر الخامس، النصف الثاني ـ .**

# 7

استيقظ على الهدوء الشامل للغرفة. العتمة السائدة. دقات ساعة يده خافتة كالنبض. نظر الى الوقت فيها؛ فكان الواحدة واثنتين وعشرين دقيقة. اختفى العقربان الفسفوريان وراء رأسه؛ إذ رفع ذراعيه ودسّهما تحت الوسادة.

بعد منتصف الليل. نصف اليوم المعتم.

أحسّ بتيّار الهواء المندفع، رقيقاً وناعمًا، من مصراعي النافذة المفتوحين. لا صوت يأتي من الخارج. سكتت ضربات الضجيج المخنوق في الردهات خلف الباب. رطوبة الوسادة. الوسادة الرطبة ورائحة العرق. ما تزال رائحة العرق في أنفه. تحت ابطيه. على كامل السرير. زال دوار الرأس بعد أن أفرغت معدته سمّ الجسم. طفحت في حلقه مرارة المذاق الحامضي القابض، فاشتهى فنجان القهوة أكثر. لا صوت. ظلمة وسكون. الجميع نيام. وهو المستيقظ الوحيد.

لم يكن نومه الثاني مضطرباً. لم تأته الكوابيس، ولم يوقظه غثيان القيء. تسلل وعيه من وهدة النوم بهدوء، وها هو يرقد على ظهره العاري. بغتته فكرة، فأمسك بها، وراح يحاورها. ـ لا. ليس السرير الأول وليس السرير الوحيد. ليس هذا أول سرير غريب ينام عليه. ليس بسريره، وليس بسرير أحد!. وتوقف عند هذا الحد. أمعن في المفارقة: ليس بسرير أحد، لكنه يحمل الجميع الى النوم أو الى.. الى ـ الموت!. نبتت في جوفه ضحكة سوداء.

الغرفة داكنة السواد والنافذة هي الفضة. طبقة من نور فضـي تكسو خشبها المتشقّق. قد تكون إضاءة الشارع، أو نور ساهر ما وراء نافذة قريبة!. هل يكون

في طابق واطىء، أم في طابق أعلى؟.

**لا شيء يعلو هامتي غير السماء.**

فكّر، ونظر الى الأعلى؛ فكان سقفاً بلا نجوم ولا نوافذ. وحيد في عتمته الضيّقة، ومن حول جسده يهمس حفيف الملاءة البيضاء. عاودته رائحة العرق قوية نافذة. سحب الملاءة الى أعلى، وغطّى بطنه المكشوف. خمّن أن تيّار الهواء حرّك الرائحة في مكامنها. لم يقم من رقدته. ظلّ ينظر الى الطبقة الفضية على خشب النافذة، ولحظ، لحظتها، نجمة أو أكثر، في الفضاء المُعتم. نافذة وفضاء. فكّر. نافذة مفتوحة، وفضاء معتم، وسرير ليس سريره. كم من المرّات رقد على أسرّة غريبة؟. ليالٍ لا تُحصى. جدران عارية وجدران اكتست بملصقات وصور. أسرّة بملاءات نظيفة وأسرّة اكتفت بحشوة القطن أو الاسفنج الخفيف. سقوف ملساء بيضاء ناعمة الاضاءة، وسقوف كامدة خشنة ساطعة الوهج والقذارة. كم من مرّة هاجمه الحنين الى سقفه الهادىء، المرتفع، الأبيض والنظيف؟.. ـ أخرج تنهيدة صريحة لأنه وحده. بلا رقيب يحاسب. يأتيه فنجان قهوته في العاشرة، على يدي أمه المجهدتين. قهوة الصباح الكسول والمتثائب. الملاءات المتغيرة دائماً. السرير دائم الترتيب والدفء. صوت أمه المُتعب الذي لا يتعب من حلب خير الصباحات ـ حتى المكفهرّة منها ـ، وتوفير ذلك له. لا تأبه لتعليقات العجوز الواخزة، ولا لسخريته من هذا الابن الذي «لا ينفع». لا ينفع. لا ينفع. ابنك لا ينفع الاّ للكسل، والكتب المكدّسة، وثرثرات الصحاب الذين على شاكلته. يحدّق في قعر الفنجان، فلا يرى غير الترسّب الأسود. الخميس عطلة واليوم هو الاربعاء. محاضرة الساعة الواحدة وجلسة المقصف تنتظرانه. يهمُّ بالنهوض. يتذكّر: سوف تخرج مسيرة شهيد أول أمس، الذي حملوه من موقع الاشتباك مع العدو، من الجامع الكبير، الى مقبرة المدينة. وتذكّر: لقد وافقت على حضور الاجتماع والمشاركة فيه. (ـ مجرد اجتماع بسيط. ـ لكن؟.. ـ لا تخف. نحلّل الأحداث الأخيرة ومعارك الحدود! أأنت خائف؟!. انتفض على فكرة كونهم يظنون انه خائف. خائف؟. أأنا خائف؟!. ـ حسناً، ولكن من سيحضر الاجتماع غيرنا؟. سأل. ـ الرجل الكبير! ـ حقاً!. تعجب: سيجتمع بالرجل الكبير! ـ هل ستأتي، أم تراك تخشى..، قاطعهم وقد شعر انهم ينضمّون الى العجوز في رأيه فيه. ـ ماذا تقولون!.. سآتي. ـ اتفقنا اذن.

نلتقي في المسيرة ونذهب معاً!).

**العاصمة: ٢٢ آب ١٩٦٨**

كانت العاصمة هامدة تحت هواء المساء الرخيّ.

الحديقة، في باحة المنزل الخلفية، قفراء الاّ من عشب قصير أطفأت الشمس خضرته. كلب العائلة الأسود يلطي تحت شجرة الجميز الكبيرة. هناك، عند الكلب، ظلّ مشوّش. توزّعت المقاعد خفيفة الوزن، والتي تنطوي، على شكل دائرة عفوية. أحسّوا ببقايا حريق الظهر في الأرض تحت أقدامهم. شهر الاشتعال.

فكّر خالد الطيّب، بينما كانوا ينتظرون قدوم الرجل الكبير، وفي قدميه تنغل حرارة الأرض: «انـه آب. آب اللهّاب. ولكن: معظم شهور الصيف عندنا حارقة. تموز. حزيران. لا. لحزيران دلالة مختلفة. دلالة لا تبعد كثيراً عن لهيب آب. حزيران لّهاب الأمة. ألهب الأمة وأشعلها. بينما يلهب آب الرؤوس. التهب رأسي وأنا في المسيرة. ألهبته الشمس وهتافات السائرين فيها. كنا كثيرين، وكنت محشوراً بينهم وقد ضممت كتفيّ وخطواتي تتعثّر في الملليمترات القليلة!. كانت المسيرة هائلة والهتافات تملأ رأسي. لأول مرة أشعر ببدني يقشعرّ تلك القشعريرة. قشعريرة شعر البدن وهو ينهض منتصباً كالشوك. شيء ما حرّكه. الأصوات الهادرة كالبحر. كنت في وسط الهدير وحلقي ناشف. شيء ما منعني من الهتاف معهم! ليست ارادتي. كما ان ليست ارادتي ما حرّك القشعريرة في بدني. لكنني وسط البحر الهادر. أخذنا عرض الشارع، وسرنا نحو المقبرة بعد الصلاة. وقف الناس على أبواب المحلات يراقبوننا ونحن نمرّ بهم. كانوا صامتين. وكانت اليافطات البيضاء المكتـوب عليهـا بالـدهان الأحمر والأسود تتراقص فوق رؤوسنا. انضمّ بعض الصامتين الى المسيرة. تحرّكوا من أبواب المحلات. دخلوا في الصفوف الملتصقة ببعضها. رأيت أحدهم يندّسُ ويدخل ويصير قريبا مني. تطلّع حوله وكان العرق يلمع على جبينه. ثم رأيته يفتح فمه وينضمّ هاتفاً مع الهاتفين. لماذا لم أهتف أنا؟. كأن صوتي مات. ماذا سيقول العجوز لو رآني؟. هل أنفع؟. لم أهتف، غير اني مع الآخرين في المسيرة. أنا أنفع. وسيرى العجوز!».

كان الهواء رخياً، وأكواب العصير البارد تتحرّك في أيديهم. جاء الرجل الكبير ورحّب بالجميع. الرجل الكبير ليس كبيراً! صغير الجسم. هادىء الوجه. رحّب بخالد الطيّب بعد أن عرّفوا باسمه.

«أهلاً بالشباب». قال الرجل الكبير.

أبقى الطيّب عينيه على وجه الرجل. أهذا هو؟! وتساءل وهو يتفحّص قسماته الهادئة، العادية، عن سر الصيت الذائع والشهرة الواسعة التي تحلّى بهما!. لا يختلف عن الرجال العاديين الذين في مثل سنه!. ربما في الخمسين. لماذا الاسم الكبير؟!. لا يشبه عبدالناصر. لا يشبه عبدالناصر في شيء. قامته عادية. ويبتسم كثيراً. لاحظ ان الرجل الكبير يكثر من الابتسامات السريعة والخاطفة. وكان الشباب يهزّون أكوابهم بأيديهم. كانوا مُحرجين. ربما لهذا السبب يبتسم الرجل الكبير. فكّر خالد الطيّب. ربما. ليس في عينيه قسوة العجوز. لاحظ هذا ايضاً، لكنه رأى فيهما شيئاً جاذباً دفعه لأن يفكّر!. شيء أبعد من اللونين الأبيض والأسود. شيء عميق تخيّل انه يصل ما بين العينين والرأس. كأنها ومضات خاطفة لا تُرى.

كان الرجل الكبير يرتدي قميصاً صيفياً أبيض، كشف عن ساعدين رقيقين مكسوّين بالشعر. امتدّ الصمت لوقت ولّد وجوماً وحرجاً لا يُطاقان. بادر أحدهم بطرح الأسئلة. أسئلة كبيرة. ماذا بعد الهزيمة؟.. وعبدالناصر؟.. هل سيتجرع السقوط ويقبل. أم سيخطط لشيء ما؟. والفدائيون؟. هل يستطيعون؟. ماذا عن المستقبل؟.

خلط العالم أمام الرجل الكبير. ثم صمت بعد أن أفرغ ما في جعبته.

قال الرجل الكبير رقيق الساعدين:

«كنّا نحذّر من الآتي. وها قد جاء.».

«صحيح.»، قال السائل: «وماذا بعد؟».

«كنّا نقول ان الجماهير هي الأساس.». اكمل وكأنه لم ينته من كلامه.

فعلّق أحدهم، وكان اكبر الموجودين سناً؛ وقد وضع كوبه على طاولة الخيزران أمامه: «لقد جئت على ذكر هذا، وأنا أتذكّر المناسبة التي حدتك لقوله، أو بالأصح لكتابته. ففي كتابك الأخير الذي انتهيت من صياغته، حسب ما أذكر، قبل أن تقع الهزيمة بشهور، وكنت في المنفى، ذكرت عن الخلل الأساسي

في العمل السياسي، وأشرت الى أنه في تغييب الجماهير عن قضاياها.».

هزّ الرجل الكبير رأسه، وقال:

«أجل. ولكن، وللدقة، قلت ان خلل العمل السياسي الرسمي في أساسه، إنما يتمثّل في تغييب الجماهير عن ممارسة دورها فيما يختص بقضاياها المصيرية.».

لم يكن خالد الطيّب قد قرأ الكتاب الذي يشيران اليه. فلم يتكلّم. كانت المرة الأولى التي يستمع فيها الى هذا النمط من الحوار. يتكلّم الرجل فيصمت الجميع يستمعون الى ان ينتهي. خلاف أحاديثهم في مقصف الجامعة، ومحاوراتهم المتقاطعة عالية الصوت، حادّة النبرة.

كان يختلف معهم دائماً، ولا يتفق وإيّاهم على نقطة واحدة. كانت طبيعته أن يقاطع لينقض دون أن يعطي تفسيراً مُمثّلاً في الواقع الذي يعيشون فيه. يذهب بهم الى مقدمات فكرية، ثم يقودهم الى مسالك نظرية تتسق معها، ليؤدي الى نتائج تغيظهم. يغضبون لتملصه من احتجاجهم واستنكارهم نفي الواقع عنده. فيضطرون الى مناداته بـ«السفسطائي المناكف»، ويصرخون في وجهه: «أنت أعمى! تعيش ولا ترى. أين أنت؟ منظومة أفكار وحسب؟!». فيضحك، ويردّ عليهم: «مملكتي ليست في عالمكم هذا»!.

كان يخطّط لأن يكون محاضراً في الفلسفة. أن يسافر ويحصل على درجة الدكتوراه.

وجاء الوقت، وها هو وجهاً لوجه مع العالم. سمع أحدهم يسأل:

«والفدائيون؟».

فقال الرجل الكبير: «على كاهلهم تقع مسؤولية الأمة في هذه المرحلة. انهم رأس الحربة، بينما الجماهير الذراع والإمتداد.».

اعترض أكبرهم سنّاً، إنما باستحياء وتردد:

«إذا سمحت لي. أنت من الذين ركّزوا على دور الأيدولوجي في العمل السياسي وأكّدوا على وجوبه. والفدائيون، كما تعرف، لم يبلوروا فكراً، أو أيدولوجية واضحة، حتى الآن.».

ابتسم الرجل الكبير:

«صحيح. انهم مقاتلون يخوضون حربهم وحرب الآخرين!».

«أجل. يناضلون بفدائية عالية. إنما النضال دون فكر..»،

قاطعه الرجل الكبير ـ للمرة الأولى يقاطع ـ :

«أعطهم الوقت والفرصة. فبينهم أصحاب تجارب وأيدولوجيات. سوف تتبلور أيدولوجيتهم . لا بد.».

احتجّ الآخر، محافظاً على هدوئه، وعلى استحيائه:

«ولكن، هل سيعطيهم الآخرون هذا الوقت وهذه الفرصة؟!».

لاحظ خالد الطيّب في عيني الرجل الكبير، الشيء الجاذب، العميق، وقد ومض كالرعشة، حين أجاب على السؤال الأخير:

«أنا لم أنس انني قلت بأن الجماهير هي الذراع والامتداد. طلائع الجماهير. لا غنى عن هذا الإلتحام!».

وسكت.

ولم يزد الآخر شيئاً.

تململ خالد الطيّب في مقعده. جالت في رأسه فكرة أن يسأل هو الآخر. تنحنح، وتوجّه الى الرجل الكبير، قائلاً:

«ما دورنا نحن الذين بلا شيء. هل صحيح أننا لا ننفع؟».

ضحك الرجل الكبير ضحكة سريعة. ضحكة طيّبة. وتلوّنتْ عيناه بمحبة أفصحت عن نفسها بصراحة. قال:

«لا ننفع!».. ورفع عينيه في وجه الطيّب:

دعك من هذا الهراء. هاك فرصة أن لا تكون بغير ذي نفع.»!

سمع خالد الطيّب هذا؛ وكان العجوز ماثلاً أمامه وهو يضحك. كان العجوز يضحك. يضحك وفي عينيه قسوة صارخة. فصرخ بدوره، وكانت خطوته الأولى.

يتذكّر.

ـ اسمك؟

ـ خالد.

وصفعهُ بيده الكبيرة، فانكتم العالم في أُذنيه.

ـ اسمك الكامل؟

- . . . . . . !!

عادت الأصابع الكبيرة تلطمُ وجهه، وزعق العالم بالسؤال من فم المعلّم الهائل؛ فجاء الصوت مخنوقاً:

- اسمك الكامل؟.

- خالد الطيّب.

- عُدْ الى مكانك ولا تفتح فمك وأنا حاضر. مفهوم؟

- نعم.

لكن الأصابع الكبيرة لطمتْ الوجه الصغير ثانية، فهدر الصوت في أُذنيه، وولد السؤال!

- قُلْ: حاضر، ياولد. (الصوت مخنوق).

- حاضر.

ومشىٰ الولدُ الى مكانه في الصف. كانت ركبتاه المكشوفتين تحت طرفيّ البنطال قصير الساقين، ترتجفان، فيهتزّ عوده الطريّ ويهتز.

صوته مخنوق، أم كانت أُذناه تضجّان بصوت الموج المتسرّب من عمق المحيطات.؟. ضعْ هذه الصّدَفة على أُذنك واستمعْ. كانت صَدَفة كبيرة زلقة عند ظهرها. ملساء في جوفها. حوافها ناتئة وخشنة. كانت مغسولة للتو بين يديّ أُمه، وهي تخطو بها بتثاقل، من باب المطبخ. لمح أثراً شاحباً لرماد السجائر ما زال عالقاً في خرومها. أتسمع؟.. انها الأمواج.

الأمواج؟.

لا بحر عندهم. لذا؛ صدّق انه صوت الأمواج. رأى بحاراً كثيرة على الورق. في السينما المقابلة لمنزلهم. في اللوحة العريضة، المعلّقة في صدر غرفة الجلوس. فوق الأريكة محفورة الخشب ذات المقاعد الأربعة. إطارها خشبيٌّ بلون الصندل. وعلى حوافها بُراز الذباب وقد يبسّ فوق الزجاج. يذكرُ أن البحر، في الصورة، كان جميلاً. جميلاً في شيء لا يقدر الآن على تحديده. نسىٰ. لكنه كان بحراً جامداً. لم يـرَ فيه أمواجاً. شراع رهيف تطاول في البعيد كأنه سراب. أو طيف.

قالت عمته: في يافا بحر كبير وشاطيء كالذهب. نسيمه ناعم مثل الحرير على الخدود.

تزوّجت عمته فلسطينياً يافاوياً. ثم عادت لتعيش معهم بعد أن مات زوجها وهو في الأربعين. «قتلهُ اليهود!»: قالت. مات عام الهجرة. عام مولده. لم تُنجب العمة منه لا ذكراً ولا أُنثى.

«في يافا أجمل البحار»: قالت له عمته. وكان صغيراً يحب قصصها.

ولكن؛ لا يرى بحراً هنا ولا شواطيء ولا أصدافاً. سوى تلك الموسومة بأثر رماد السجائر وأعقابها. على منضدة الضيوف (أبوه لا يدخّن). وتقول أُمه إنّ صوت الموج يسكن فيها. يقرّبها من أُذنه، ويلتصق بزلاقتها وملاستها، فيسمع شيئاً، فيقول: هو الموج!.

يتذكّر.

ثلج ١٩٤٨: روتْ له أُمه.

صرخة امتزجت مع صقيع الليل الأبيض، المخترق من قبل جحافل المهاجرين. وُلد في سنة كانت الأسوار التاريخية للقدس الواحدة قد تحوّلت الى خطٍّ سياسي وعسكري. خط فصل بين عالمين متضادين طفقا، منذ تلك اللحظات، بالتكوّن على نحوين متغايرين.

عبرت عمته بوابة «باب الجديد» الى جهتها الشرقية، وأُغلقت من بعدها المعابر. استمرت السنون بالتوالد. لم توقف قانونها. نما خالد الطيّب على حكاياتها. يفيقُ في دروب مدنٍ لم يرها. يمشي في شوارع بعيدة، لكنه يتحسسها على نحوٍ غامض. ربما الكلمات التي تقولها العمة، وهي تشرب قهوتها، مسندةً ظهرها الى وسادة السرير، ما أدّى به الى تجسيم الصُّور. وربما خياله الخصب ما ساعده على رؤية هذا كله، في حين كانت عينا عمته تغيبان في محاولة دؤوبة للنفاذ. فمها الآخذ بالتغضن، بينما تروي، علّ ذلك يشفي غليل توقها المتحوّل الى ما يشبه الحلم المتأصل.

بين الحكايات وساحاتها نما خالد الطيّب.

والعاصمة: نقطة الما بين.

مثل التورّم الذي لا يني يكبر ويكبر، اقتربت المدن الممنوعة منه، وحاذته

الى درجة قدرة أصابعه على الامساك بها!.. لكنها تنبض وتضربه كالعقاب!. قوة غاشمة، خفية، تحولُ دونه والانتقال بجسمه الى الحكايات. لا أحد في المنزل يلتفت الى سرد العمة إلاّه. وحده الذي ينصتُ وينصت. أما الآخرون: أبوه وأمه وأختاه؛ ففي الحاضر اليومي المعيش يتحركون. يلوذ بالسينما المقابلة ليرى البحر. قروش التذكرة من أبيه. ثمن صحن «المهلبيّة» من العمة. ينتهي العرض. ينحسر البحر. ينطفيء ويتلاشى في شاشة القاعة البيضاء. فيهبط خالد الطيّب درجات السينما، المؤدية الى الشارع، وخدرٌ يلفُّ رأسه من الداخل. تلك الليلة: يأوي الى فراشه مبكّراً، ويشرّع عينيه على السقف الـمُحتلّ بخيالات متداخلة. يتتبعها بغير ما هدف. مجرد المتابعة؛ إذ يتداخل بالخيالات المتداخلة، منشدّاً اليها، يشكّل منها حكايات جديدة هو بطلها، ينمّيها، يحدّق بها، ويسقطُ في وهدة النوم.

الآن: تبدو الأحداث كتلك الخيالات.

متداخلة. متحركة. تطفو على سطح الذاكرة بصمتها المشبوه. ذاك الصمت المختفي في باطنه، والمتواري بين جدرانه السميكة، ضجيج الماضي وأصواته الصارخة*. كان خالد الطيّب يتأرجح بين هذا وذاك، بينما الضجيج يلفُّ المدينة والعالم. في أذنيه كلمات الرجل الكبير الأخيرة: «.. هاكَ فرصة أن لا تكون بغير نفع!»، وفي عينيه صوّر المواكب السائرة في الشوارع.

يرى وينفعل.

يقدم ويتراجع.

---

** ـ بعض الذين يمتلكون ذاكرة قوية تحفظ أشياء الماضي، ولا تنسى احداثه الصغيرة، يقولون بأنهم شاهدوا في فترة ما من الزمن القديم ـ الذي هو ليس قديمًا جداً ـ؛ يقولون أنهم شاهدوا الرجال من أعمار مختلفة ومشارب شتّى، يهرعون الى شاحنات صغيرة كانت تقف في بعض شوارع العاصمة خصيصاً لجمع هؤلاء المدنيين المتحمسين، ونقلهم الى مراكز أخرى خارج المدينة، حيث يتم هناك فرزهم، وتوزيعهم على معسكرات خاصة بالتدريب العسكري.*

*ـ ويزيد هؤلاء بقولهم، ان ذلك جرى تحديداً بعد الشهر الثالث من عام ١٩٦٨.*

يخطو الى الأمام باتجاه الحكايات خطوة. وينفتلُ الى الخلف بوحيٍ من توجساته، وطموحه الفلسفي، خطوتين. ماتت العمّة منذ زمن. لم يعد لحكاياتها مطرح. صارت الأيام تمضي على المنزل معبأة بأحاديث النهار العادية. يتنبهون الى شروده، فيتهامسون، حين يُغلق على نفسه باب غرفته: ماذا به؟.. ليس معنا!. نخشى عليه. فيقول العجوز حاسمًا قاطعاً: هذا هو طوال عمره. لا ينفع!. لكنه يخطط لأمر ما. قد يقوم بعمل أخرق. مثل ماذا؟. قد يكون الرجال المسلحون. ويضحك العجوز هازئاً: انه أليـنُ من أن يذهب مذهبهم. ان كانت تلك مخاوفكم فاستريحوا. انه لا ينفع. لا أحد بمقدوره أن يجزم. مؤكد أن في رأسه شيئاً لم يكتمل. من الأفضل والأجدى أن ينتبه لدروسه. سنته الثانية في الجامعة. تقول أُمه: وهل الجامعة أفضل؟.. أُراهن أن الفوضى تبدأ من هناك. ما هذه الأيام الصعبة! يقولون مظاهرة تأييد. نسمع بمسيرة شهيد. هياج واستنكار. فوضى!. يقولون ان «سيسكو» استفزّ الطلبة. من سيسكو هذا؟. زمن عجيب وأسماء لا تخطر ببال!.

وكان قابعاً في حالة المابين.

غير انه، أخيراً، حسم وذهب.

لم يقل شيئاً. خرج ولم يعد. ارتقى احدى الشاحنات، وشخص مع الآخرين الى الطريق بينما الهواء يصفعُ وجهه ويعبثُ بشعره. أحسّ لحظتها انه يفارق عالماً، أو شخصاً ليس هو. يدنو من عالم جديد ذي بريق. عالم مثير ليس

---

*ـ ولكي يفسّروا لنا ذلك المفصل الغامض الذي يبدو أنه بدأ يتلاشى من الذاكرة الجماعية شيئاً فشيئاً، وذلك بسبب انشغالات الناس بهموم واهتمامات ومخاوف من الآتي؛ فانهم يوضّحون ان معركة حامية الوطيس وقعت ابان تلك الأيام بين العدو ورجال مسلحين وجنود؛ كانت نتائجها مفاجئة للطرفين!.. اذ اندحر العدو رغم انتصاره الكبير السابق، وثقته المطلقة بقدراته العسكرية. بينما كانت مجموعات المسلحين والجنود قليلة العدد وبلا تجهيزات ثقيلة تمكّنهم من صدّ وردّ هجمة العدو المدججة بثقيل السلاح.*

*ـ يصوّر لنا أصحاب الذاكرة القوية التي لا تنسى، بعض التفاصيل الصغيرة*

من طبيعة الفلسفة وإثارتها. عالم يوحي بشعور كالولادة!.

المعسكر هناك.

تتوالى ضربات قلبه وتتسارع.

في حرشٍ يغلّف هضبة سامقة.

الوجوه جديدة. الألفة ما تزال بعيدة. تعب الجسد يضني الجسد ولا خيار سوى المكابرة. يتراجع؟.. والولادة؟.. وأحاديث العمّة وحكاياتها؟.

اليوم الأول: عافت نفسه الطعام. تشمم «الشيء» المحفوظ في العلبة القصديرية. ما هذا؟. طغى الغثيان ودار برأسه. ظلّ ممسكاً بعلبته، وعالج جوعه بلوك رغيف الخبز.

«ألم يعجبك الباذنجان؟»: علّق المدرّب.

«أهذا باذنجان!»: حائراً.

«نعم. كُلْ حتى تتأكد. كُلْ!».

اختلفت نبرة المدرّب. صارت أحدّ وأعنف. تطلّع خالد الطيّب حواليه. كل العيون ترمقه. الوجوه التي لم تقرّبها الألفة بعد. أفواه تلوك ما في داخلها، وترمقه. ينتظرون. نبرة المدرّب القاسية. الصارمة. لهجته الآمرة مثل سطوة السكين!.

لم يتريث طويلاً. حسب المسألة بسرعة، دون أي يرفع بصره، وأخذ شيئاً مما في العلبة. لاكها، فهاجمه شعور كالقهر. ازدردها كالغصّة. تولّدت دمعة.

---

*عمّا رأوه في ذلك الزمن بقولهم:*

*(كان الناس يهرعون الى الشاحنات الصغيرة. يركبونها ويهزجون. كانت فورة حماس لانتصار الرجال المسلحين والجنود على آلة العدو الرهيبة. كانت الأفئدة تخفق والعيون تلمع. صارت هموم الناس صغيرة وهامشية حيال الحدث الكبير. بانت في الشوارع مجموعات صغيرة من هؤلاء الرجال وهم يحملون بنادقهم الصغيرة والخفيفة. كانوا يرتدون ثياباً مرقطة وخاكية. تخلّوا عن السريّة والحذر. ألصقوا على جدران المدينة شعارات واعلانات وملصقات لوجوه الذين ماتوا منهم في معاركهم الاخيرة خلف حدود الماء ضد العدو.).*

أجهضها. دهمه الغثيان أشد وطأة. ابتعد عن المجموعة بضعة أمتار، وترك لتخبّط ما في معدته فرصة الإفلات. تقيأ. ووصلت اليه الضحكات مرتفعة من وراء الصخرة.

«الليلة نوبة حراستك»! : سمع المدرّب يقول.

مزيدٌ من الإذلال؟!.

الحرش في الليل بارد على نحو خاص. على نحوٍ «حُرشيّ»، ليس فيه من برد العاصمة شبه. ولا من أنوارها ضوء. ولا من ضجيجها صوت. سكون مباغت كالسكتة المفاجئة. ظلام ممتدٌّ بحجم العالم. كأن الخليقة ظُلمة وصمت. سوى بضعة نجوم صغيرة، ترتعش في سواد السماء، لا بياض. قمر فضيٌّ يقارب البدر يسمو في عليائه، معلّق بخيوط ربّانية لا تُرى، وعتمة دامسة تذهب بالمرء في حرية بلا حدود. عتمة تأخذ الروح خفيةً؛ فيشفُّ الساهر ويشفُّ حتى يتحوّل الى جسم لا تقيّده أثقال أو جاذبية. الرأس منكفيء على ذراع البندقية. والعينان مفتوحتان على أشباح الأشجار المهتزة.

من عمق الأرض المترطبة، النفّاذة الرائحة، ينمو صوت العمّة ويتغلغل. من عمق خالد الطيّب يطلع صوتها ممتزجاً بعبق التراب الطريّ. هناك حيث لا تعب ولا هم. شواطىء كالذهب ورمل كالحرير. تساءل الطيّب: تُرى، هل سيُفرح العمّة ما أفعل؟. ربما. لكن الأهل سيقلقون. العجوز!. ماذا يقول العجوز؟ هل سيعترف بأنني أنفع؟. أخيراً، خالد الطيّب، ابنه الوحيد،

---

*ـ وزاد هؤلاء في تصوير أحاسيس الناس بكل هذا، فقالوا:*

*(سرت في نفوس الناس روح جديدة. كان الجو يبدو مثل حدوث قيامة!. كان هناك ترقب. وتوجس. وفي نفس الوقت كان هناك تخلٍّ عن حساباتهم القديمة حول الربح والخسارة.).*

*ـ وعند الرجوع الى أرشيف الصحف والمجلات التي صدرت وقتذاك، يمكن للمرء ان يستدل من عناوينها، وافتتاحياتها، وجملة المقالات والقصائد المنشورة فيها، على أن الجو العام، منذ ذلك الوقت، قد أخذ بالتغير نحو اتجاهات تدعو الى الصمود والقتال وحشد جميع الطاقات خلف الرجال المسلحين وقتالهم*

سينفـع؟!. لا أعتقد. انه عنيد في رأيه حولي. ولكن لماذا؟!. وما أدراه ماذا سأكون!. أنا أعرف أمي. ستخاف. ستقلق وتموت رعباً!. أنا أعرفها حق المعرفة. أما أختاي، فسيثرن على تصرفي. لا بد. سيقلن لأمي: هذا نتيجة دلالك الزائد. حسناً؛ فيلثرن ولو لمرة واحدة. لطالما رددوا، جميعهم، ان للسياسة رجالاً نحن لسنا منهم. نحن بسطاء. همّنا توفير حياة رغدة، طيبة، لا يعكّرها العالم بسفالات السياسة، ولا دنَس الناس الذين على شاكلتهم. انهم أحرار. يقولون لي. انها مشاكلهم وليست مشاكلنا. فليعالجوها بعيداً عنّا. تكفينا مشاكلنا. أليست عمتك بدليل كاف؟.. جاءت بها النكبة بعد ان خطفت زوجها. والآن؟. والنكبة الجديدة؟!. هل تؤمن حقاً أن بضعة مسلحين ـ ماذا؟.. ثوّار. ثوّار. حسناً؛ هل تعتقد أن بضعة ثوّار قادرون عل ردّ البلاد؟. كل شيء مرسوم يا خالد. كل شيء متفق عليه، والناس أعجز من أن يتفادوه. ولن يخسر الاّ هؤلاء الذين يقتلون!. اقنع بهذا، وعش حياتك!...

هسيسُ الريح في الأشجار وأجمات الوادي الواطئة. عليق، وشربين، وشوك، وأوراق شجر يابسة. جمرة سيجارة حارس آخر، في الجهة المقابلة من المعسكر، رغم التحذير. وقع أقدام. بضعة خطوات. ويرين صمت مكتنف بأزيز صراصير الليل الممتدّ. يبدو مثل معزوفة لا تنتهي. معزوفة لا يملّها عازفوها!.

«لكن العمة كانت تقول الكثير»؛ فكّر خالد الطيّب. «كانت تقول ان الناس حاولوا وحاربوا. إنما الكبار هم الأنذال. الكبار. لم أسألها عن الكبار.

---

*المسلح.*

*ـ هذا، ولقد برزت في تلك الصحف والمجلات صور عديدة لقادة، وصحفيين، ومفكّرين عرب وأجانب، زاروا مواقع عمليات القتال، وشاهدوا حطام الآلة العسكرية العادية، المعتدية، وبداخلها وجدوا جثث أفراد العدو وقد تفحّمت.*

*ـ وهنا تجدر الاشارة الى أن عدداً من المصوّرين الصحفيين قد أثبتوا عبر لقطات فوتوغرافية غير مزيفة، جُبن أفراد العدو، اذ كانت جثثهم المتفحّمة مغلولة بالأصفاد المثبتة داخل هياكل دباباتهم التي أُعطبت!.*

كنت صغيراً حينذاك. قسّمت الناس الى قسمين. تماماً مثل ألعاب الحارة. عسكر وحرامية. الناس هم العسكر. والكبار هم الحرامية. هكذا. كبرت وتعلّمت أشياء كثيرة. فوجئت يوماً بأن لعبة الحارة ليست دقيقة. ليست صحيحة. لعبة للصغار فقط. فوجئت ان العسكر والحرامية فريق واحد! ان العسكر هم الحرامية وهم الكبار أيضا. اما الناس فهم الذين جاءت عمتي معهم الى العاصمة.

قال أبي. العجوز. قال انها كبرت، خلال السنة التي جاءت بها، عشر سنين مرة واحدة. إبيضّتْ مساحات في شعرها الكستنائي. تغضّن جبينها وتقطّب. تخلّلت كلامها مسحة حزن ومرارة ما كانتا سابقاً. قال العجوز انها كانت مرحة صاحبة نكتة محببة. ضاع هذا كله وحلّ محله حديث متقطع. مُجزأ بلحظات صمت طويلة وعميقة. صارت تدخّن. صارت تدخن بشراهة، وتشرب القهوة دون ارتواء. علبة السجائر، والكبريت، وفنجان القهوة دائم الامتلاء. هذه هي العمة. لو كنت أملك موهبة الرسم لرسمتها هكذا: وجه مطبق على حكايات لا تنفذ. علبة سجائر مُغلّفة بورق أصفر وبنّي، وفي وسطها صورة جَمَل وكلمة CAMEL بالحروف اللاتينية. وفنجان قهوة أبيض الى جانب الدلّة بلونها الأزرق الغامق.».

الحكايات.

«أهذا ما جاءت به العمة من غربيّ السور القديم للقدس؟». تساءل خالد الطيّب.

---

*- «إن لقطة كهذه»، علّق أحد الصحفيين، «إنها تذكرني بواقعة اليرموك بين العرب والروم، حيث قالت لنا كتب التاريخ أن عسكر الروم كانوا مربوطين بالسلاسل الى خيولهم ومعداتهم، وذلك خشية واحترازاً من هربهم من ساحة المعركة ومن وجه العرب».*

*- كما ان بعض الشخصيات التي عاصرت تلك المرحلة، أفادت بأن طلاب المدارس هرعوا الى ساحة العاصمة الرئيسية، كي يشاهدوا بأم أعينهم جثث جنود العدو المتفحّمة، وهي في سلاسلها، داخل الدبابات المعطوبة!.*

«اذكرُ انها كانت تقرأ لي كثيراً. تفتحُ مجلداً كبيراً أسود. تقلّب صفحاته. وتبدأ بقراءة قصص عن أمراء روس. عن رجال يشبهون الأنبياء. عن أخبار من أطراف العالم وأقاصـي الدنيا. عن أسرة رومانوف. وحكاية بوذا. واليازجي واليونان. وحرب طروادة التي دامت سنوات وسنوات بسبب امرأة تدعى هيلانة. تبسّط الحكايات وهي تنظر فيها من وراء زجاج نظارتها المكبّرة. ترى من خلال الزجاج الموضّح صعب الكلام وتنقله الـيّ سحراً يغلّف الواقع!».

ويتذكّر خالد الطيّب: «وفي يوم أخذت المجلد بيديّ؛ إذ بتُّ أفهم ما أقرأ، واكتشفت انه عبارة عن أعداد مجلة (النفائس العصرية) في سنتها الخامسة. ومنذ ذاك التاريخ أينع في داخلي ادراك لماذا أحبت عمتي تلك البلاد. ولماذا أحرقت عشر سنين، في نأيها عنها، خلال عام واحد!..».

بدت الخطوات أقرب الى خالد الطيّب.

بدأت تقترب، الاّ انه لم ينتبه. عاجلته يد امتدّت في الظلام كالومضة، وخطفت البندقية من حضنه. أخذته المفاجأة وشلّت مقاومته. انفتل، وقد دبّ الفزع في كيانه، فإذْ بالمدرّب إيّاه سامقاً مثلما الشجرة. البندقية في يد، وفي الأخرى كوب قصديري. لم يقل الطيّب شيئاً بينما ينظر الى الرجل المنتصب فوقه. مرّت ثوان ثقيلة. ثم سمعه:

«أنت حارس رديء للغاية.».

لم يردّ الطيّب. شعر أن نبرة المدرّب أقل قسوة من تلك التي خاطبه بها في النهار. ارتاح الى تسامحه. ابتسم. تشنجت عضلة في وجهه. ثم عاد الى تجمده. قال المدرّب:

«خذ الشاي فقد احترقت أصابعي!».

تلك الليلة، قال له المدرّب انه ما بين. وتساءل عن سبب التحاقه بهم.

لم ينفتح خالد الطيّب على أحد مثلما فعل مع الرجل. ربما صفاء الليل. حدّثه عن عمّته وحكاياتها. عن البحر وصوت موجه في الأصداف. عن العجوز وفقدان رجائه فيه. عن أسرته والمنزل المنعزل عن العالم.

«هذا ما أعنيه يا رفيق خالد.». قال المدرّب.

«ماذا؟».

«لست ابن القضية. لست من هناك. لست محتاجاً لشيء. لا ينقصك

شيء. فلماذا؟».

«. . . . . . .».

«هل تتحدّىٰ عجوزك؟!».

«قد يكون هذا سبباً.». قال خالد الطيّب.

«ربـما. لكنك، ولهذا السبب اذا افترضنا صحته، أنت ما بين. لست مضموناً. آسف. لا تُسيء فهمي. لكنك قد تكون مؤقتاً. أعني قد يكون دافعك مؤقتاً.».

«وقد يدوم.»، قال الطيّب. ثم استعاد طبيعته المجادلة:

«وقد تتغير الدوافع مع الزمن. ألا ترى ذلك؟. كما ان الفوارق في أسباب الوجود لا تلغي الوجود أبداً.».

«صحيح. ولكن الى متى؟..».

«لا أحد يضمن شيئاً. ربما الى النهاية.».

«ربما. الّا ان أحداً لا يعرف كيف ستكون النهاية. وكيف..»، وبانَ التردد على المدرّب المتخذ وضعاً بين الاستلقاء والجلوس. كان مسنداً ظهره الى جذع شجرة لزّاب، وخاصرته تكاد تمسّ التراب برهافة ودقة بالغتين. يكاد خالد الطيّب أن يقسم أنه رأى لمعة القمر الشاهق تنخطف بين خاصرة المدرّب وخشونة التراب.

ثمة طقطقة الورق الناشف. ثمة السكون. ثمة الخيالات كأنها أشباح تتطاول على وجه الرجل من خلل ارتعاشات أشجار الحرش. بعيداً عن إنارات المدينة. قصيّاً عن ضجيج العاصمة. في الجو سحر يتغلغل الى روح خالد الطيّب، وفي الهواء نسمة تجذبه الى الانصات. يرتجف شيء في أعماقه. ينتفض. يتشوّف. يتهدم ويُباغت. هناك الصوت الحرشي المضمخ بعبق اللزاب، والصنوبر، والأرض الهامدة، ورؤوس الأشجار الذاهبة نحو النجوم، وبقايا الحرارة الناغلة في العشب الرهيف.

ثمة الصوت المتناغم، مثلما إله، مع احتفالية المكان، وتآلفه في تكوينات الأشياء الظاهرة ومكنوناتها.

الليل. والحرش. ورجال نائمون. ورجال يقظون يحرسون. والروائح. ونسمة ليل باردة. وفكّان يصطكّان. وأعماق مثلما الموجة تتكسر على الصخر فيكون الـزَبَد فوّاراً بتصميم الانتحار ويقين الاخلاد الى الصمت الأخير اللامتناهي.

تماوجات الأعماق تلتطم فتنثر رذاذها تحت ومض البرق، وقصف الرعد، وزوابع جنون البحر وهجوم السماء.

يهدأ الكـون ويسـتريح. يأتي الصوت طازجاً. يخرق مسافة العتمة بين عيونهما؛ ليقول كلاماً. ليكشف له ما لم يره:

«أنت بين بين!».

يتعالى في الطيّب صوت الذاكرة. تزدحم صور الماضـي.

قالها له، وكان مريحاً جذعه الى جذع شجرة اللزاب. قالها له وهو بكامل استرخائه، كأنه يلتقط يقظته من إغفاءة خاطفة: «أنت بين بين!».

لم يكن خالد الطيّب قد سمع هذا من قبل. لكنه، رغم ذلك، فهمه على الفور. ما كان بحاجة لأي تفسير. لم تكن من حاجة لشرح يوصل المعنى. (أنت بين ـ بين!). هكذا هي بجلائها وجلال اكتمالها. هذا ما ينقصه. الاكتمال. حالة المابين. صفة عدم الاكتمال. نقيضة النقص.

كان أمامه رجل كامل. رجل مرتاح الى يقينه مريحا جذعه على جذع شجرة، بينما ساقاه ممدودتان على طولهما أمامه. يقول الصوت، فيشعر الطيّب انه يطلع من الأرض حيث هو. ببساطة لا تقصد غير: أنت مابين!. هناك نقطة تماس خفية بين الخاصرة المائلة وتراب الأرض. من خاصرته يطلع الصوت. رآه ينبض. ينسلّ في هواء المسافة بين عيونهما.. ويصله. من الأرض. من تلك النقطة الخفية التي لحظها في تلك الليلة.

تلك الليلة:

«آه من تلك النقطة الخفية. بين.. بين. أنت بين هذا وذاك.. فاختر. بين العـاصمـة المسالمة والضفاف الغربية.. فاختر. بين الفلسفة وليالي العراء الباردة.. فاختر. بين العالم / الفكرة والحكايات / البحر.. فاختر. بين الحكايات ورسمهـا.. فاختر. بين المكابرة العنيدة والايمان الآخر.. فاختر. بين الظلمة والسطوع.. فاختر. بين لحظة ولحظة تمتدُّ الى لحظة تطول طول العمر.. فكفْ!..».

□

تلك الليلة، لـمّا قال خالد الطيّب أنه ربما الى النهاية، أجابه المدرّب:
«ربما. الّا ان أحداً لا يعرف كيف ستكون النهاية. وكيف..»، وتردد.
صمت قليلاً.
بانَ التردّد إذ تحيّـر كيف يُكمل جملته دون أن يجرح الطيّب. نبش التربة برأس فرعٍ جاف في يده. ثم قال متخيراً كلماته:
«وكيف، يا رفيق، ستكون أنت في تلك النهاية!».

□

وكان صباح.
هي المـرة الأولى التي يهبط خالـد الـطيّب الى بطن الوادي ليملأ أوعية المعسكر. ينحدر مع السفح الحرشيّ بين صخور قديمة وأشواك قصيرة. الساعة ما تزال باكرة، مضمّخة ببرد الفجر. يصحبه اثنان من رفاقه. «حذار يمينك!. هوّة تتوارى خلف تلك الشجرة.». يتابعون حتى تتسارع هرولتهم، فتبدأ الأوعية ارتطامها بالسيقان. قليلٌ من الغبار يصعد من الأرض تحت أقدامهم، ثم يتوارى كالذرّات في غبشة الصبح المتفتح.
ضجة قصيرة.
تقف الأجسام على اسفلت الطريق.
لم يتعبوا بعد. التعب في الصعود المثقل بالماء.
تبغت الطيّب فكرة: «.. ان الحفرة التي فتحها المدرّب في الأرض، بفرع الشجـرة اليابس، دلّت على ان سكـون المـاء خادع!. ليس صافياً كماء النبع الزجاجي في بطن الوادي المقابل!..».
تعجّب لماذا واتته الفكرة!
توقفوا في وسط الشارع الخالي. رفيع أسود يمتدّ لبضعة أمتار، ثم ينعطف مع الحـرش ويغيب. لا أحد يظهر. سكون عميق سحري. هم، واصطفاق أجنحة تمرق هابطة في الوادي الخفيض.
تصل رقرقة النبع اليهم. فينحدرون الى البطن.

# 8

الماءُ عذب. وفير. ترتطمُ قطراته القوية بالرأس وتترذرذ على الكتفين. ينهمر رشاش فيسيل الانتعاش على الرقبة والصدر. ينفذ في جلدة الرأس. يغمر الرموش وتـترطب الأقدام وأصابعها. تبتلّ. تخرج الشهقة عند الارتطام الأول بالبرودة المندفعة من أعلى. ماء بارد. ماء وفير. هنا صور وليست بيروت. الحمّام واسع مرتفع السقف. تنفذ رائحة الموز والليمون من النافذة الضيقة. تمرق الريح الناعمة في شجر البستان. يتناغم حفيفها وصوت البحر.

الطيّب، والحلبّي.

تناوش أيديهما سيل الماء المنهمر عليهما. يتناوبان «الليفة» الوحيدة. يفركان رقبتهما. الصابون. الرغوة البيضاء الكثيفة. لذة الجلد المدعوك بخشونة الليف تسري في المسام. تدخل الى الروح بخارا يضببها. يغلقان عينيهما ويتركان للذي يقارب الخدر يأخذهما الى خضرة في الخيال.

تفور الرغوة وتغطي شعر الصدر.

الماء.

تنداحُ انصبابات دفقاته على مستويات الجسد وتستقرُّ على الذقن هنيهة. تنزلقُ نحو أجزاء الجسم السفلى.

النظافـة.

مزيد من الوقت طمعاً في إرتواء الجلد حتى الثمالة.

أبى زاهر الاّ أن يستحم وحده. ليست بعادته أن يتشارك الاستحمام مع

أحد. «شأنك». قالا له. ومع وفرة الماء استغرقهما الحديث، فبدآ يثرثران.
«لا بد من جولة عند المرفأ.». اقترح الحلبيّ.
«الآن؟».
«ولم لا؟. يصحبنا زاهر.».
«نكلّمه عن أبي الحكم.».
تنبّه الحلبيّ، فقال: «ليس أنت. ستنقل شكوكك اليه. ستشوّشه.».
احتدّ الطيّب: «نذير. لا تتمادَ.».
نظر نذير الحلبيّ الى وجه رفيقه، فرأى شيئاً كالانكسار في عينيه. هدّل الماء شعره الطويل، وكان يقطر من شعر شاربيه الأنيقين على شفتيه المنفرجتين. فكّر إن كانت تلميحاته ستجدي في خلق طيّبٍ آخر. لا فائدة: قال لنفسه. ولكن..
«إيّاك أن تقول شيئاً يزعزع ايمانه.».
«ألم يسبقه عـمّه أبو الحكم؟. أم تراك ترى الأمر على غير هذا؟».
توتر الحلبيّ:
«لا تخلط. التنظيم شيء والثورة شيء آخر.».
انتهز الطيّب ذلك:
«وهل من فرق؟ هل تستقيم ثورة دون تنظيم؟ أم انك تراها هابطة من السماء في علبة مغلّفة بالسوليفان؟!».
«لا. بل أراها ملوّثة بخطايا البشر.».
ضحك الطيّب وقال:
«تبقى نذير المسيحي حتى النهاية!».
«ماذا تعني؟».
«خطايا البشر وبقية الترتيلة.».
فقست نبرة الحلبيّ:
«فليكن إذا أردتها هكذا. وأنت لست بعيداً عن ذلك.».
زاغَ خالد الطيّب عن الجملة الأخيرة، وعلّق:
«ها أنت تؤيدني. لا ثورة بلا ناس.».
«أجل. وخالد الطيّب واحد فيها. وهو..»،

فقاطعه الطيّب: «قلها: بورجوازي متطفّل!».

ففاض الحلبيّ: «أنت قلت. سفسطائي تنتهي من حيث بدأت. لا تحاول أن تدخلني في مجادلاتك التي لا تنتهي، والا سأنفجرُ في وجهك مثلما انفجر أبو الحكم. لا تدعني أبصق الحجر الواقف في حلقي.». إرتعش الصليب المتدلي من عنقه على صدره.

ضحك خالد الطيّب دافعاً رفيقه الى مزيد من الهياج:

«والنتيجة؟».

«ماذا تقصد؟».

«غيّبوه عن المركز الى أطراف لا تؤثّر في القرار. لا بل حشروه في زوايا يتحتم عليه فيها أن يفسّر ويبرر قراراتهم التي يرفضها. تصوّرْ عقاباً كهذا؟!. لقد ركلوه الى أعلى. وأنت؟ لماذا الاسكندرية؟..».

«أنا لست بأبي الحكم.».

«أعرف. لكنهم فرزوك. أليس هذا ما كان يريده أبو الحكم؟ الفرز؟ ألم يُضمر الفرز ففرزوه وأخرجوه من الدائرة. دائرتهم. نفوه في مدار معزول..».

انقطع الماء فجأة وبعض الصابون ما يزال على جسميهما. نظرا الى بعضهما وهما على هذه الهيئة العارية، المضحكة. تناسيا حدّتهما، وطفق الطيّب يحاول اصلاح انبوب الماء. لا فائدة. لا ماء. قال له نذير الحلبيّ:

«لا تحاول. لا يوجد خلل في الانبوب. يبدو أن الماء نفد من الخزان.».

وفيما هما يرتديان ثيابهما، قال خالد الطيّب:

«حسناً. كيف يمكننا ايصال هذا الى زامر؟ ربما يتشوّش.».

«وسيكفر.».

«كما كفرنا نحن.».

رماهُ نذير الحلبيّ بالمنشفة على وجهه:

«أنت كفرت لأنك بورجوازي. مدلّل. لا تقوى على المكابدة.».

احتجّ خالد: «ها قد عدت الى اسطواناتك. ألم تكفر أنت؟».

«كفرت ولن أنسحب كما تفعل.».

هاجَ خالد الطيّب: «أنا لم أنسحب. أتحداك اذا برهنت....»

فضحك الحلبيّ: «لا تغضب. المسألة لا تستاهل. نحن أصدقاء.» ولنفسه

قال ثانية: «هل بالامكان خلقه من جديد!».

ورمقه الطيّب بعينيه المبتلتين. كان حاجز شفيف من ضباب وحدّة يفصلهما. فكّر إن كان رفيقه يعرف فعلاً، ويعني ما يقول. هل يعرف عن رغبته في ثريا، حبيبته، ويتغاضى؟!.

ترتطمُ الأمواجُ على رصيف المرفأ الاسمنتي وتنفرش. الليل. المسافرون على موعد لم يفِ بوعده. جالسون؛ أو منطوون رؤوسهم بين ركبهم المرفوعة. مستندون الى حقائبهم، التي كوموها حولهم كالمتاريس، علّها تمنع عنهم الرذاذ المالح. تجنّبهم بعضاً من بقايا موجة. نساء يتحدثن كأنهن في رحلة ولسن في هروب. لم يصْدقُ الموعدُ ميعاده، فانتثرت الأحاديث من بعض الأفواه التي أتعبها الصمت.

الليل يمضي.

تواصلُ الريحُ اندفاعها في رذاذ الملح الهابط.

اذن: لن يحكيا لزاهر التفاصيل. سيقولان العناوين. الخطوط العريضة.

هو الى جانبها. صامتٌ، يشخص الى أكوام الحقائب والناس. الملوحة الدابقة على وجوههم وشعرهم. البلل المقيت لأحذيتهم التي سوف يجفّفُ الملحُ جلدها. يقدّدها. فتتحوّل الى حوافٍ تجرح وتدمي.

السفينة لم تأتِ.

يوم آخر على البّر. يوم يخصم من سفر البحر.

تساءل زاهر النابلسي: ترى، هل نسافر غداً؟. سأل نفسه متعللاً بهذا عن سؤال القلق الآخر. أبو الحكم. منصور. عـمّه: انه يغادر الى أكثر من مكان والى جهات عديدة. يأمرونه بهذا. لماذا؟. ها أنا أثرثر. أبو الحكم لا يحب الثرثرة. أنا لا أحب الثرثرة. ولكنني أسأل. فقط أسأل!.

السفن لا ترسو في الموانىء. لا تقترب من الأرصفة. تتلاعب بالراحلين الرابضين فينسحبون الى رحلةٍ أخرى. الى مدارات سحيقة لم يدخلوها يوماً.

المراجعة.

تبدأ مع اشعاعات القمر المتعالي. الخيالات المتراقصة بفعل الريح. الاضاءات الشاحبة المنسحبة عليهم من مكان ما. تكشفهم على هيئة أشباح.

ترسم منهم مشهداً بحرياً معتماً وأناساً كوّمتهم كارثة. المدى واسع والسماء ظلام يفضض منها القمر هالته وحسب. لا غيوم. تبرق جمرات السجائر مثل ضربات فراش دقيقة غُمّست بالدهان الأحمر. تومضُ في لحظةٍ منسولةٍ من الظلام، ثم يسودُ السواد. تختفي في اضمامة الكف كي لا يطفئها الرذاذ. تبقى الأصوات خافتة. نصف مخنوقة. نصف مُفشية للأشياء. يبقى زاهر النابلسي يرقبُ ويغوص.

الساعة التاسعة صباحاً.

الخميس ٣ نيسان ١٩٧٥

قبل لحظات سمعت من اذاعة مونتي كارلو بسقوط فنوم بنه. وان الثوار قد اجتاحوها. شعرتُ بسعادة لأن عمي هلّل على غير عادته وكان سعيداً. قال لي إن ما أصبح يفرحنا الآن هو حدثٌ عظيم في منطقة بعيدّة عنّا في جزء من الكرة الأرضية. قال لي أننا في وسط جو من نوع الجو الذي نعيش فيه يلزمنا بعض الأحداث الصغيرة كي تحدث شيئاً من الهزّة فينا، نفرح، نحزن، نشعر أننا ما زلنا أحياء. هكذا قال لي عـمّي لما سقطت مدينة فنوم بنه.

**ـ من الدفتر الرابع ـ .**

□

مخلوعٌ على صفحـات الكتب الكثيرة، ومـوزع بين أكـداس الصحف والمجلات، ومتنفس لرائحة الورق والحبر، وأشعرُ بأنني لا أعرف شيئاً ولم أزل في نقطة الصفر.

عندما يتحدثون حولي ويتناقشون، ويقضون الوقت الطويل بالكلام، أبقى صامتاً. إن شعوري بأنني لم أحصل على معرفة كاملة يبقيني صامتاً.

**ـ من الدفتر الثاني، النصف الأول ـ .**

□

الجدل ـ

هيجل: (فهم هيجل الحوار «الجدل»، بوصفه حركة للذهن نفسه. الذهن المشتغل لتحقيق ذاته في التاريخ متجسداً في المادة (ومسترهناً لها)، ومتجاوزاً ذاته في متناقضات كثيرة. فالحوار، اذاً، من طبيعة مثالية، لأنه، وهو في علاقاته بالمادة، يبقى الفكر مصدراً ونهاية لكل حقيقة، في الوقت نفسه.) ـ الماركسية بعد ماركس ص١٠٣.

ماركس ـ انجلز: (إن انفتاح الوجدان البشري محدود في علاقاته بالمادة. والمادة هي وحدها المشتملة على المتناقضات، التي لولاها لما كان لأي مصير حظ من الابداع. والمادة في معنى المعطى الاقتصادي: فالحوار، اذاً، يؤسس طريقة لفهم التطور التاريخي والاشتراكي.).

لينين: (.. فقد اضطر الى التذكير بأن للمادة حقيقة موضوعية، يتلقى الفكر انعكاسها، وأن التحديدات العلمية المختلفة تتابع في مجرى الزمان متابعة منطقها الجدليّ.)

ملاحظة من عندي:ـ فالمنطق مع لينين يحتفظ بأساسه المادي. ز.ن.

لوكاش: (جاء لوكاش يرفض هذا المنطق بوصفه حركة ذهنية فقط، كما يرفضه حركة مادية لا غير. ففي نظره ان هذا التناقض الحواري هو بالضبط تفسير حسي للفكر والمادة.)

فالثورة عند لوكاش بمعناها الفلسفي: (الثورة حينٌ من الزمن، فيه ينحلّ التناقض الحواري القائم بين الفكر والمادة باتحاد الفكر والمادة. وهذا هو حينُ تكامل الممارسة، حيث يندغم وجدان الطبقة وعمل الطبقة ليصبحا واحداً.

والبروليتاريا تتكامل في الوقت نفسه كذاتٍ وموضوع، وهي التاريخ في الوقت الذي هي فيه العارف بالتاريخ وصانع التاريخ.) ـ الماركسية بعد ماركس ص ١٠٦.

. . هذه هي بعض محاولاتي للمعرفة.

إن كتب عمّـي الكثيرة مليئة بالتعليقات على أقوال مثل هذه التي نقلتها الى دفتري هذا. لا أعرف متى يمكن لي أن أعرف.

**ـ من الدفتر الخامس، النصف الأول ـ .**

البحر.

ميسور. موفور. سهل. قبالة النظر. على الجوانب. في كل الأطراف. يحيط بالجهات الثلاث وفي الخلف برٌّ نائم. صور نائمة. البحر لا ينام. البحر يقظة الزمن المتأبد. الساعات الأربع والعشرون على الدوام. استنفار أقصى. طوال الشهر. دائمًا. يقظة أبدية سرمدية ما دام هناك بحر.

البحر محيط.

البحر عالم.

تطأه بالقدم. أو بالطوف الخشبي. أو بالسفينة المدججة بالحديد والصلب وأرواح تائهة وليست بتائهة. من يدري؟. لا أحد بمقدوره الجزم.

يتمترس خالد الطيّب خلف صمته الظاهري. ممتنعاً عن النطق. غائراً في داخله مثلما الجرحُ غائرٌ فيه. كالوشم. كاسمه في وثيقة الميلاد وجواز السفر.

نذير الحلبي:

هذا هو اسمي. الحركي والحقيقي. لستُ بوجهين. لستُ برجلين. نذير الواحد الذي لا يتغيّـر حسب المواسم. الذي تعرفه ثريا مثل معرفتها الأكيدة أن خالد الطيّب يشتهيها. ولا تقول. تعرف أنه يريدها ولا تعرف اني أعرف ولا أقول. كلانا لا يقول ما يعرفه وكلانا يعجنُ أشياءه في أشياء الآخر ويغيبُ فيه عن أشياء العالم ووجه خالد الطيّب الذي ليس طيّباً.

أنا نذير بن باسيل الحلبيّ الذي لا يتقلب تبعاً للموجة. الذي لا يعتليها ريثما تعبر فينجو ويكسب. لا يخسر شيئاً. التيّارُ تيّار وأنا أنا. معي أو ضدي. سيّان. موقفي ثابت كالله. مثل اسمي ليس يتلوّن حسب تبدّل المناخات. أجهل التكتيك وأمقته فيقولون عني انني مثاليٌّ أهبل. ويرفعون أصابعهم في وجهي عندما يرونني معها ويتنادون ها هو المسيح يعشق المجدلية. أطعنهم في توقعاتهم

ولا أقول مَنْ منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر. فهم يعرفون. أقول ان أبا الحكم رجل رجل. لم يخشَ جرف التيّار. تصدى له وجابهه. لم يعتل الموجة. لم يركبها حصان نجاه. قال أن هذه ليست بنجاة. قال ان هذا انتحار منظور قريب.

وزاهر لا يعرف. الى جانبي، بالقرب من خالد الطيّب الذي ليس طيباً؛ وربما هو يعرف أيضاً ولا يقول!.

يحب عمه غير انه لم يستفد من صلابته. لم يكن من وقت كاف حتى يتعلّم. ظلّ في الشقة وحده. منها الى المكتب الى المطبعة الى الجامعة الى الشارع الى سهرات المجلة.

ظلّ طازجاً. وظلّ علينا أن نسبر فيه.

أنا وخالد الطيّب. رفيقاه وزميلاه. لا. ليس الطيّب. سيهدم فيه الشيء الذي يحرص عليه أبو الحكم. سيضعه، إن انفتح عليه، بين خيارين أحدهما الكفر وثانيهما الهروب. سيطبعه ببصمته، وسيريه ان كل شيء زَبَدُ بحر. لا. ليس الطيّب مؤهلاً لاخراج الطيّب من زاهر.

ولكن: أبمقدوري سدّ الثغرة التي خلّفها أبو الحكم!.

أذكر حين فاض الكأسِ واقترب الرحيل، أن قد نهض عذاب السؤال. خيّم عليّ ثقيلاً. لم أقدر أن أسكت صوته الطالع من روحي. عذّبني. فتوجهت الى خالد الطيّب كأنما الحوار إنفلت مني الى الخارج: . قد يسألنا عَرَضاً. أنت تفهم كيف. عن أبي الحكم. عليك أن تتوقع هذا. شرعية المعرفة والاكتشاف. من هو أبو الحكم بالاضافة الى كونه عمّه منصور ومسؤولاً تنظيمياً مهمّاً ومحاوراً يملك أفكاراً راسخة وقناعات ليس من السهل تجاوزها. ماذا سأقول له عندها؟ بماذا سأجيب؟ أتقول له انه حاول قيادة تيّار جذري في نهر الماء العام؟ إن قلت هذا تكون قد أوقعت نفسه في عقدة أسئلة جديدة من الصعب ايفاؤها حقها. ثم: هل تملك أنتَ نفسك راحة الركون الى إجابات نهائية؟ أشكُّ في ذلك. قد يكون جذرياً حلم أبي الحكم. ودعنا نؤكد على نظافته وحُسن نيّته إن أردنا الضرب في رمل النوايا. حسناً. هنا سوف يسألك زاهر: هل التنظيم على خطأ؟. وبذا يكون منسجمًا تماماً مع تفتح اكتشاف المسائل. التنظيم على خطأ أم على صواب. أبيض أم أسود. وطني أم خائن. انها الثنائية اللعينة الكريهة. الثنائية التي أبغضها بسبب حصرها العالم في خانتين اثنتين ليستا هما العالم. لكن هذا طبيعي في زاهر.

انك ستتلعثم عند ذلك وسوف تقول: يعني: فكما تعرف يا زاهر: المسألة إنما هي . . ستتلعثم. ستتأتيء، ليس تحرجاً من هلامية السؤال، بل هرباً الى الأمام من أسئلة ستتلو إجاباتك وستكون أكثر تعقيداً.

قلت هذا لخالد الطيّب، فقال: «لا تعظّم الأمور.».

فقلت له: «أنا لا أعظّمها. لكنني أنبّهك الى وعورتها. ثم: ولننفتح على أنفسنا ولنتصارح: هل لك أن تحدد لي شخصية أبي الحكم؟ هل تستطيع؟ هل تعرفه حقاً أنت نفسك؟. لا أعتقد. خذْ إجابتي منذ الآن. سلفاً. ودعني أشرح.

قاطعني: «انك تسترسل في الاجتهاد كأنما هو الحقيقة. حاذر.».

«لا تخف. أنا أحب الاجتهاد وأحب أيضاً أن «تُتبّع» معي. هلا كففت عن التقوّس أمامي مثل قطٍّ يتثاءب. لا تستنفر. لستُ أُهاجم بورجوازيتك.

أجابني بنزق: «طيّب. لا تغضب. قُلْ.».

فقلت انني لست غاضباً والتقطتُ الفكرة، متابعاً: «إن أبا الحكم، كما أراه، ليس بالرجل الصلد الذي يتمظهر به». . وقاطعني: «يتمظهر!». فنفد صبري: «كف عن المقاطعة واستمع!». لم يعلّق. فعاودت الكلام:

«. . انه صلدٌ من الخارج. قاس. باتر في رأيه المكشوف والمعلن، إذ انه لا يخفيه ما دام منسجماً مع البداية. مع الانطلاقة. مع أُسس التنظيم. وهو حتى هذا الحدّ يظل ضمن الكل. واحداً من العائلة وإن بدأت «صوفته» تحمرّ. عليك أن تلاحظ أن تأكيده في حواره على الأُسس والمنطلقات، بنفس لا يهادن، إنما يشير الى تشكيك ما في الجانب الآخر.».

«الجانب الآخر؟!».

«الآخرون. كأنه ينبههم الى ما نسوه. أو تناسوه. يحاول أن يرفع صوت الأصلُ.البدء. أن يذكّر بالمنطلق. إذ ذاك يفتح للآخرين مجال رؤيته من جديد. بمنظارٍ جديد. يستفزهم ويدفعهم الى وضعه على خطوط جديدة. خطوط تقلقهم وتوقظ فيهم المخاوف والرعب. انه الصوت المعارض داخل لحن التصفيق. ليس معارضاً تماماً. غير انه الايذان بهذا الصوت. التحذير من أنه سيتحوّل الى شاةٍ سوداء داخل العائلة البيضاء.».

عاود الطيّب تذكيري باستفساره الأخير: «قلت انه يتمظهر بالصلادة. كيف؟».

«أجل. أبو الحكم صلد من الخارج وقاس. لذا فهو مزعج على نحوٍ ما. لكن عليك أن تتذكّر إن كنت أدركت ذلك. أو أن تدرك إن لم تلاحظ، بأن مثالية معيّنة قد جبلت شخصيته. مثالية تتوق الى الكمال في وسط يتخبط بين الحلول. وسط يراهن على معطيات كالرمال المتحركة. معطيات خادعة تبلع الذي يصدّقها. كالمستنقع. معطيات مثل كثبان الصحراء تتكوّن في الصباح وتختفي مع هبوب الريح في الظهيرة. تنتقل الى أركان أُخرى.».

«كالسراب.». قال خالد الطيّب، وزاد: «ولهذا أنا كفرت!».

«انها سراب يا عزيزي غير الطيّب. وأنت سراب أيضاً، إنما باتجاه النقيض. لا تجادل. دعني أستكمل فكرتي. ولأن كافة الحلول المطروحة سراب كنت ترى أبا الحكم يذكّر بالبداية. بخطوة القدم الأولى كما كان يقول. كانت مثاليته الدفينة والراسخة تشدّه الى الوهم بأن العودة الى الأصل هو سبيل الخروج من حلقات المراهنات الخاسرة. المراهنات التي يراها خاطئة ومضللة.».

«ليست بالضرورة مضللة في نظر الجميع.». علّق خالد الطيّب.

«تماماً. ومن هنا تبرز الاختلافات الى درجة التناقض. فأبو الحكم يفيء الى الأصل فيرى الخطر. والآخرون يتابعون الآنّي فيجدون فيه ما يبرر لهم رفع شعار المرحلة. لذا فهم أقوياء. انهم الأقوياء لأنهم مع المرحلة. أبناؤها الشرعيون.».

«وأبو الحكم؟».

«حفيد الماضي. لم يرفع شعاراً في يوم. كان ضد الشعارات ومع بساطة الطروح. مثالي نظيف لم يستطع ماضيه حمايته من المرحلة. انه شكلٌ من أشكال الأقلية. الصوت الضائع في هدير الآلة القادمة المتقدمة. ما عادت أيامه ونضالاته تمنع السكوت عنه. صار بلا درع في زمن مدجج حتى الأسنان ببرغماتية السياسة. مكسوٌّ حتى أصابع القدمين بأوراق التبرير. انظر الى ما تفعله أنت. ألست تكدّس الأخطاء وتحصيها وتسجّل النقاط كي ترتكب الجريمة؟.».

ارتعد الطيّب وغامت في عينيه حيرة وتشوّش: «أية جريمة يا رجل!».

«جريمتك ضد نفسك. ضد القليل من ماضيك.».

«ماذا تقصد؟».

«أنت تعرف.».

كنت أعرف انه أتخذ قرار الانصياع الى ضعفه. كأنني لمستُ، لحظتها، الورم فيه؛ فارتسمت على وجهه علامة تعب وخيبة. شيء مثل الانهدام. مثل التقوّس. غير انه استطاع تهريب ابتسامة شاحبة. تقلّصت عضلة في وجهه، وعرّى فمه المتراخي اعترافه بمأساة ما. مأساته.

اغتصب جملته بصوتٍ أثقلته المرارة:

«انتهى المقال؟..».

وكنت أحدّق في عينيه الهاربتين عني، فأرى اشتهاءه السـرّي لثريا. أرى فيهما شجاره المحموم بين قوة الضعف فيه من جهة، وصعوبة التراجع من جهة ثانية. كنت أرى إنجرافه الأحمق، شبه الإرادي، شبه القَدَري؛ فأشفقتُ عليه ورثيتُ له في آن.

قلتُ له: «انتهى المقال!ـ».

ما يزالِ خالد الطيّب متمترساً خلف صمته.

ينتظرُ زاهر رحلة الامتحان الى الاسكندرية.

وعلى مسافةٍ قريبة كان نذير الحلبيّ، قريباً من الماء، والبحر يصخبُ متحطمًا على الصخر. على الرصيف الاسمنتي الخشن. على الناس ومتاريس الحقائب. يصل اليهم رذاذ موجة عاتية. يتنبهون الى الوقت.

# القسم الثاني: أمواج واقفة

# 1

**٢٣ تموز ١٩٧٦**

صور.

الرمال، والبحر، والطريق الهاجمة.

يصخبُ الشاطىء على اليمين. المدّ. تكتسحُ الأمواجُ الشاطىء وترتطمُ على شفرات الصخر. تتكسّـر وتتطاير عالياً. تذوب. تذوب الطريق منفلتةً في الخلف. تقصر المسافة الى صور. يدفق الزمن المعبّأ بالتوتر على نحوٍ خاص. توتر مسقوف بسماء غريبة. بماء مختلف. بدم يسري في الشرايين. دم مغاير للذي يأتي من القلب الى القلب عبر الأوردة والشرايين. ثمة ضجيج الرأس وتلك الصنوج المدويّة القارعة بالصوت الداخلي الصاخب.

تنصرمُ أجـزاء الوقت. يتصل صريرُ حشرات الليل فتتواصل. ينكشفُ الغبار طبقات طبقات في الزوايا. على أرفف المكتبة المنسيّة. على زجاج النافذة الوحيدة في غرفة المكتب. قليل من الغبار تعربش أرجل السرير العسكري. أحال لونه البنّي الى شيء بين الأسود والرمادي.

الغبار يملأ المكان.

الوقت بين الأسود والرمادي.

والمكان: «البص». مخيم فلسطيني من طين لا يبعد كثيراً عن البحر.

الرفيق العسكري، مسؤول المكتب، دائم الحركة. لا يستقر في مكان. عيناه على جميع المرابض. عينا نذير الحلبي مكحولتان واسعتان. عيناه تنتقلان

من جدار الى جدار. ينكسر السكون بجلبة عناصر الحراسة في الخارج. وجها رفيقيه. السرير العسكري. الجدران الأربعة. الجدران متشابهة. كأنها نسخ مكررة عن أصل واحد. فوق المكتب خارطتان: فلسطين بالأحمر. الوطن العربي بالأخضر.

يتوزع الشهداء بقية المساحة. مُلصقات البنادق المرفوعة. شعارات المرحلة. اسم التنظيم بخطوط تتفاوت دقتها حسب مهارة المقاتلين في اجادتها: توكيد بسيط للانتماء. عفوية إشهار الموقف. ثورة حتى النصر. ثورة حتى التحرير. ثورة حتى النصر والتحرير. «والذي يأتي بعد؟»: تساءل نذير الحلبي، ثم أجاب نفسه بمرارة:

«تتكفّل الكرّاسات بذلك. يتكفّل المسؤول السياسي بالشرح.».

دخل رجل من عناصر الحراسة بأكواب الشاي الذي يترقرق مع خطواته الحذرة. إندلق شيء من السائل الساخن على أصابعه الخشنة. ألقى تحية المساء للمرة الرابعة.

«مساء الخير. أهلاً بالرفاق.».

في لهجته خليط المدن والناس. وفوق فمه شارب غذّته السنون التي طعنت في عمره والبدن.

«مساء الخير.». ردّ نذير الحلبي. «أين السائق؟».

تناول الجميع أكوابهم.

أجاب الرجل بطريقة كشفت عن حنان:

«نام في الغرفة الأخرى.». وضحك مطلقاً صوتاً خفيضاً له دلالة الاستدراك: «الرجال في عمرنا يتعبون.». وركن الى فرجة الباب الواطئة. سأل:

«كيف الشباب في بيروت؟».

«بخير.». ردّ الحلبيّ. سمح لنفسه أن يُجيب نيابةً عن رفيقيه.

«الحمد لله. الضغط عليهم شديد. الأعداء كثيرون. بيروت كبيرة.».

«وهم كثيرون يا رفيق.».

«طبعاً. كثيرون. أعرف واحداً من بلدياتي في مكتب صبرا. أبو علي. تعرفونه؟..». جاراهُ نذير الحلبيّ: «التقيته بالتأكيد.».

«بالتأكيد. أبو علي السلواني. في مثل عمري. خدمنا معاً سنتين في قاعدة

النبطية. ثم في الرشيدية. قبل القصف الكبير. كان مثل الأخ. نتقاسم الرغيف والذخيرة والدورية الواحدة. لم يفرّقنا شيء. ثم جاء أمر النقل. أبو علي الى صبرا. وأنا الى البص.».

وأطلق زفرة خرجت من عمق غائر.

«الزمن يا رفاق. الزمن. كبرنا وصرنا حرّاس مكاتب.».

ردد الحلبيّ في نفسه: «الأمر يا رفيق. بل الأمر!»، وسمعه يتأهّب لإنهاء الموضوع: «كلها خدمة للثورة على أية حال. المكان ليس مهمًا.».

.. وغارَ في بقعة ما في داخله. سكت. ما عادت عيناه تشعّان بذات البريق السابق. إنطفأ شيء فيهما. كأنهما تنسجان خيطاً لا يراه سواه. احتوته كآبة، أو ما يشبهها. بات في عزلةٍ خاصة رغم عبق الأنفاس، وأصوات الشاي المرتشف.

«حكاية أخرى!..» فكّر نذير الحلبيّ، وأشعل سيجارة جديدة. «حكاية أضيفها الى رواية الترحال والأرصفة. محطات بعدد المدن. بعدد الوجوه. بعدد الطلقات التي لم أطلقها. الطلقات التي تمنّيت أن أطلقها. الطلقات التي طاشت. وتلك التي أجهل متى سأطلقها.. وأين؟!.

«لو جئت الى هذا المكان قبل الآن. لو جئت أحمل على وسطي مسدساً، وأعلق في جيبي قلمًا، وأبرز هويتي وكتاب المهمة. تُرى كيف سيكون استقباله لي؟ هل سيبادر الى فتح نوافذه وإطلاق ترحيباته البسيطة؟.. أهلاً برفاق بيروت؟.. يا هلا بحملة الأقلام؟.. طز. أي كلام نكتبه وأية كلمة!؟. أتعرف شيئاً عن الكلمة؟. أنا أعرف. أعرف الكثير وأتخطى ذلك قائلا: الغد خير دواء. ولو. أُسكّن الورم لعل الورم يروح. أخدع نفسي. أستمر وأواصل رغم الوهم المتبدد. أشهد بعينيّ هاتين سقوط الرجال وأعرف أن السقوط لاحق بي ولا ألتفت للوراء. ولكن.. أي سقوط سيكون؟.. لست أبا الحكم ليكون سقوطي فجائعياً وماثلاً لي كل لحظة. أهو سقوط أم هزيمة؟. لست كذلك. أنا البطل الراكض الى خيبته ركضاً. المندفع الى دمه. لست بطلاً اذن. لست أبا الحكم. هو الذي يُطْلَقُ له النفير. مرحى! مرحى! يا الوجه الذي نال شرف الهزيمة في زمن الانتصارات السهلة.

«أنا أعرف عن الكلمة.

في البدء كان الكلمة...

هذه الأرفف طبقات غبار. مَن يقرأ هنا؟ . مَن لديه الوقت والمزاج؟ . مكتبة المكتب يحتلها الغبار. العدو يهدد باحتلال الحدود القريبة . على الحدود القريبة أعوان عديدون. على الحدود رفاق كثيرون. ونحن ننتظر هنا أن يأتوا لنقاتل. أو لنقتل. فيقتحم جنودهم هذا المكتب. يحتلّون المكتب. يحتلّون المكتبة وأرففها.

«الرفيق نذير الحلبي. مندوب المجلة الى الجنوب. صحفي مقروء في بيروت. الفاكهاني، والطريق الجديدة، والمزرعة، وأبو شاكر من تحت ومن فوق، وصبرا، وشاتيلا، والبرج، والمكاتب، والشقق، ورفاق الكلمة. كلهم يقرأون ما اكتب. أحسنت. أجدت في هذا المقال. لم تُغطِ كافة جوانب الموضوع. عمّمت أكثر مما تحتمل الحقيقة. الحقيقة انني أُريد أن أكمل روايتي. الحقيقة في روايتي. الحقيقة التي لا تظهر في المقالة إذ تتخفّىْ تحت الأظافر المكتبيّة وفي الحبر الذي لم يكن في القلم. الحبر المؤجل. الحبر السـرّي المجهول موعد اعلانه.

«ماذا عن تل الزعتر؟ . . هل بلغك جديد؟ ما يفيد بكسر الحصار؟ لا أعرف. أعرف انني لا أعرف وهم يعرفون. ماذا يعرفون؟ . . يعرفون ما لا أعرفه أنا. وأنت وأنا يا أبا علي. وتل الزعتر نفسه لا يعرف. وتلال بيروت والجبل والكرمل وعمّـان والمقطم وأوراس والشيخ وشمال العراق وصدر جلعاد ورأس قاسيون. . قاسيون. . قاسيون. نعم. هو ذاك القاسيون الذي إنكمش الى أغنية في فم مطلٍّ بصباغ ماكس فاكتور أو سواه: من قاسيون أُطلُّ يا وطني. وطني! . نعم. أنا نذير باسيل الحلبيّ الصحفي المقروء الذي لا يعرف. يعرف أنه لا يعرف. ولا يعرف أنه يعرف أيضاً. لا أحد لا يعرف. لا أحد قاصر. نعرف ونقول لا نعرف. نشكك بكل ما نعرف. والكلمة؟ . .

«كانت البداية عندما كان الغَمْـرُ كل شيء.

وكانت خاتمة أبي الحكم لأنه ابتدأ بها. لم يستخدم إلاّها.

وأنا؟

أقول من القول الذي يطمس ما ينبغي كشفه!

قلت لثريا: اذهبي عني. فذهبت. كنت ضعيفا فرأيتها كما يراها الجميع. ولـمّا صرتُ وحدي عضضتُ أصابعي ندماً. ثم شتمتُ غيرتي التي لم تمت عند ولادة ثريا. مَرَقَتْ رصاصة عند نافذتي. كنت أُريدها وكنت أخافها. كنت أخافها لأنها كانت تريدني ولا تخاف. لست سوى بطل عاديّ لا يرى الآخـــرون في

العيوب. بطل تافه مثل غيري من الأبطال. الحلبيّ الطاهر الذي قال لثريا: اذهبي فأنت الذاكرة الملوّثة. نعم. قلت هذا لثريا بعد ان ذهبت قبل أن أندم. وعلى اثر هذا مرقَتْ رصاصة عند نافذتي وكنت أعضُّ أصابعي.

«نعم، أنا الحلبيّ الطاهر. وأنت صديق أبو علي السلواني الذي نقلوه الى صبرا، وكان مثل الأخ لك. هيّا. حدّثني عن حكايتك. عن سلوان في فلسطين الثانية. الأولى نسيناها. الاسكندرون نسيناها. هيّا. قُلْ لي حكايتك حتى اكتبها على أوراقي الآن. لا تخف. كل شيء سيكون على ما يرام. سأذهب الى بيروت. أجلس وراء المكتب. أطلب من خالد الطيّب الذي فسد أن يكفّ عن تنظيراته القاطعة حول ما ينبغي وما لا ينبغي. سأقول له: كُف أيها اليائس ودعني أُبيّض حكاية الرفيق. ما اسمك؟ . . أبو علي أيضاً. السلواني؟ هو السلواني. وأنت؟ . . آه نسيت. عفوك. فما دام من بلدياتك فأنت سلواني مثله. نعم. سأقول له: كُف يا خالد يا مؤقت يا يائس يا مَن لست طيّباً، ودعني أُبيّض حكاية الرفيق أبي علي السلواني الآخر. سلواني «البص» الذي كان في «النبطية» و«الرشيدية».

«آه! . ماذا ستقول يا سلواني؟ . .

حكايتك؟ .

ومَن يهتم؟ .

سأقول حكايتي أنا. أتسمع؟ حسناً. فلنعتبرها ذاتيّة مثقف: كان ياما كان في هذا الزمان وحاضر العصر والأوان مواطن عربي حلبي وطني قومي اشتراكي بالفطرة يعرف لا بالفكرة. يقرأ ما كتبه الأولون، بينما يدقق الآخرون فيما يكتبه اللاحقون من أمثالي التعساء خوفاً من أن يُزَجّوا في ظُلمة الشيء الدمساء.

ماذا؟ . .

مَن الذي يقرأ؟ .

هُم يا سلواني. هُم.

من هُم؟

لا عليك. تلك حكاية أخرى.

## 2

النافذةُ المشـرّعة مكسوّة بالفضة، والسماء البائنة سوداء. أصوات خفرة في الشارع. خطوات متمهلة على أرض صلدة. وقعُ الصدىٰ، والنحنحات ايّاها، ثم السكون الليلي يبتلعُ الأصوات وصداها، وينفيها في أزقته البعيدة.

ذهب النوم فانفتحتْ عيناه على وسعهما.

**لا شيء يعلو هامتي غير السماء.**

كان يرى ذات السقف الكامد بتشققاتٍ يكتشفها الآن. التشققات الجديدة وخطوط الرطوبة القديمة. وهو: على السرير الحديدي في تمام يقظته.

كم مضى على وجوده هنا؟. ساعات. خمس أم سبع؟. لم يقدر أن يحدد. ذهب بفكره الى لا شيء. ليس في ذهنه ما يحرّكه الى ذكرى معيّنة. كأنما يولد اللحظة والماضـي فراغ لم يشغل فيه حيّـزاً. كأنما لم يكن حاضراً فيه، والمستقبل صفحة خاوية يزحف اليها. لا، ليس هذا بحقيقي. انه يتذكر. يتذكر أنه أفرغ سموم معدته وانها باتت جائعة. انه جائع، والممرات، خلف الباب، تمنعه من القيام اليها. انها هادئة خاشعة لهيبة النوم وقوة صمته.

نهض على مهل. جالت عيناه في الأشياء المحيطة. كانت واضحة بقدر ما هي غاطسة في العتمة الشفيفة. فضة النافذة تعرّي الطبقات الأولى للمكان. يتحرّك ببطء، فتعرّيه بينما يتقدّم حافياً صوب الكرسي الخيزران. يحس بملمس الأرضية الخشبية ذات المـربعات. يحتكّ باطنا قدميه المتورمين بألياف الخشب المترطب القديم. يتقدم خطوة جديدة ويدرك، عندها فقط، انه انما يقصد قميصه

هناك. علبة سجائره في جيب القميص. يصل الى الكرسي الخيزران ويستند الى ظهره المقوّس. يزيحُ بنطاله ويلتقط العلبة والولاعة. يأخذ واحدة ويشعل النار. ينفرش ضوء الشعلة ويصعد دخان التبغ الى السقف قليلاً، ثم يتهادى، مرئياً بكثافته الطائرة، صوب النافذة المفتوحة. تتعربش الخيالات كتفه وترتسم ذقنه كبيرة، بغير حجمها الطبيعي، على الحائط القريب. يرى اللوحة. تكون أصبعه قد أفلتت ضاغطة الغاز وحرّرتها. تنطفيء الشعلة ويختفي الخيال.

تذكـر شيئاً فانتقلت عيناه الى الجدران. نحو الباب. خطوتان أكثر من متمهلتين، ثم أشعل النور، فسطعت الغرفة كاشفة عن موجوداتها. وكان هو يقف بظهره الى الحائط. أغمض عينيه بتأثير من قوة الاضاءة. عاد وفتحهما حتى اعتادتا على السـطوع. خطا نحو كرسي الخيزران بلونه العسلّي ناعم الملمس. حقيبته الكبيرة على مقعد الكرسي. بنطاله وقميصه فوقها وقد تهدّلا فوق بعضهما باهمال المتعجّل. صار الى هذه الأشياء أقرب. حدّق بالصورة المعلّقة إذ بانت تفاصيلها وألوانها.

الوجوه النسائية الثلاثة. شعورهن مغطاة بالمناديل، ووجوههن المستديرة الطافحة بالحياة يغشاها الخمار الشفّاف بدءاً من أرنبة الأنف نزولاً حتى منتصف صدورهن القوية المتماسكة؛ فينتبه الناظر الى ما يخفيه أكثر مما لو كانت تلك الأجزاء عارية. بدت الشفـاه من وراء الغـلالة الفاضحة أكثر دسامة وامتلاء بحمرتها الضاربة الى البرتقالي، واطباقتها شبه الباسمة، نصف الحاكية لغة تموّه تلك النّازة من النظرة الجانبية لعيونهن المكحولة السوداء، تحت حواجبهن المرسومة بأناقة وأناة. الملاءات السود واضحة الخفّة والرقاقة والنعومة تنسدلُ بعفوية مقصودة، أقرب ما تكون الى العبث والغنج؛ تلفّ استدارة الأكتاف الممتلئة وتكشف، في الآن نفسه، سُمرة خفيفة في الذراع البض السمين، الهابط نحو الركبة المتقدمة، وفي نهايته، عند الرسغ، انزلقت مجموعة أساور ذهبية ذات ثقل.

صدور نحاسية اللون، تتوارى خلف أثوابهن الحمراء والزرقاء، الا انها تومىء، كالغمـز، بحضـورها الفارض لوجوده في بؤرة الاتساعِ الكلي لمجموع المشهد. القوارب الشراعية السائرة في ماء النهر الأزرق، ومئذنتي المسجد الكبير بقبابه الثلاث أعلى التلّة في رأس اللوحة نحو الجهة اليمنى، وبائع العرق سوس، والفـلاحة حاملة الجرة فوق رأسها بمؤخرتها الصلبة وقد تدلّت عليها جديلتان

ثقيلتان من شعر رأسها فحميّ اللون، والصعيدي باللاسة الحريرية على كتفه، وابنه بجلبابه الأبيض فوق ظهر حماره الذاهب نحو زاوية اللوحة اليسرى، وفوقهما، على مبعدة، المرأة وقد منحت جانبها الأيمن الى الشارع، وقد اتكأت بمرفقها على خشب افريز الشرفة في الطابق الثاني، تتملىٰ منظر حياة السوق والنهر والقوارب والأشياء في البعيد.

حدّق بالمرأة التي تتصدّر جميع الموجودات. تلك التي تتقدم نحوه، بثوبها الأحمر ذي النهاية المفروشة دائرياً بالكشكش المضفّر المصطدم بالأرض. وكان صدره يتعرّق. ثمة النبض المتسارع والاحتراق البطيء للسيجارة بين شفتيه. دمعت عيناه والدخان يصعد اليهما. تناولها في يده اليسرى، واستند باليمنى الى الجدار، قريباً من الاطار الخشبي الرخيص. يرى في جبينها، المحدد بالطرحة الحمراء المحكمة على شعرها، وميض خفيف. يحدّق بالجبين ملياً، ويدرس ملامح وجهها. يرى فيها تلك المرأة التي يشتهيها ويتوق الى امتلاكها في قبضتيه. أن يحسّ بملمس جسدها النحاسيّ بين أصابعه. أن تتعرق مسامه على حرارة كتفيها. انها لا تملك استدارة هذين الكتفين اللحميين اللذين أمامه؛ غير انها، رغم رهافة بُنيتها، تضرم في شرايينه ناراً راعشة ومؤلمة مثل الألم الذي يحسّ به في عينيه الآن. قريبة وبعيدة. في متناول اليد ونائية عن اطفاء الرغبة الحبيسة. ثريا فتاة نذير بن باسيل الحلبي. فتاته وجليسة روّاد الملهى. لكنها ليست له أبداً. ليست لخالد الطيّب رجل المدام المتعثّر بمراوحته في نقطة المابين. الطيّب المتفلّت من المدام، التي قبلته مع تعثره، الى ثريا المعرضة عنه رغم تقبّلها لدناءات زبائن الملهى. رغم قربه من رجلها الذي هو صديقه الرفيق. ولكنه لا يفهم. هي قالت له ذلك: «أنت لا تفهم». «لماذا؟». وكانت نظراته تلهث على صدرها الصغير، المفتوح والمشرع للعيون المتوهجة في عتمة الملهى. العتمة ذات التمشيحات الحمراء الكامدة. الضاجّة بالأغاني المصرية واللبنانية التي تزعق من جهاز الـ«جي بوكس».

كان لا يفهم. وكان لا يزال مستنداً، بساعده الأيمن، الى الجدار لصق الإطار الخشبي. تولدت الحيرة في روحه وتسلقت ألوان اللوحة. قرأ في البياض أسفل قاعدتها: بنات بحري. محمود سعيد. ١٩٣٧.

تحرك في مكانه، ومدّ يده الى علبة السجائر. تناولها من جيب القميص الملقى فوق حقيبته الكبيرة. الحقيبة الرابضة على مقعد الكرسي الخيزران. الحقيبة التي

رآها، في العتمة من زاوية السرير حيث كان يرقد، كبيرة مثل نعش.

بيروت: ١٩٧٥

تركتُ ورائي مركز الأبحاث واتجهت نحو الشارع المؤدي الى بداية نزلة كراكاس. لستُ أذكر الوقت، غير انني تقصدتُ أن أذهب مبكراً قبل أن يزدحم المكان بالروّاد. انها المرة الأولى. المرة الأولى التي أذهب فيها الى حيث تعمل. ستُفاجأ، وربما ـ لست أدري. انها تعرف جيداً انني أُريدها. أُريدها؟!. ليست الكلمة المناسبة. ليست العبارة الصحيحة. لكنها صديقة نذير الحلبي. هل ترضى؟. ولم لا ترضى؟. هي تسهر مع الجميع. جميع الذين يأتونها الى البار. عملها. وظيفتها. مورد رزقها أن تجالسهم وأن تستمع وأن تنصت الى هذياناتهم وألعابهم المكشوفة. هكذا قال لي نذير عندما سألته في يوم عن ثريا. كان يتحدث بصرامة ومرارة. رأيته هكذا. لكنني رأيت في عينيه صراعا عميقا بين قوتين تتجاذبانه من الداخل. فسألته لماذا هي؟. لم يُجب. فكّر قليلاً، وقال لماذا المدام؟. وقام متوجهاً الى المطبخ، في شقته الصغيرة حيث كنّا جالسين. بدا وكأنه لا يريد جواباً.

لماذا المدام؟

سؤاله الذي يربض في روحي مقلوباً: لماذا ترضى بي المدام رغم كل شيء؟.

رغم انها تحسُّ بي بعيدا عن دفقاتها الأخرى. وانني زائرها الليليّ الذي لا يجيئها الاّ ليغسلها بالعرق الدبق، وليخرج من جسدها صرخات الفحش الوحشية. أبربرُ في أُذنيها بكلمات البذاءة فتهتاج أكثر. أمرّرُ على جسدها شفتيّ المحمومتين. لا أتركُ جزءاً منها الاّ وأعبر عليه. نصيرُ الغريقين في موجة. وبعدها، نرتمي نحن الاثنين بعيدين عن بعضنا. على الفراش الذي تحمّل هيجاننا قبل دقائق. على السرير الذي أزّتْ نوابضه تحت ثقل جسدينا الملتحمين. عيناها على زجاج الضوء المتدلي من السقف. وعيناي تتلصصان على عينيها، بجفونها الرطبة، ورموشها السوداء الطويلة. أُدرك انها تدرك أن لا قوة فيّ تستطيع السير اليها أكثر. كأنني عدّاء زينون الإيلي الذي لم يتحرّك من نقطته. انني عاجز عن الوصول اليها رغم يديها الممدودتين. تريدني معها وتحبّني هكذا وأنا لا أستطيع. أشعر حيالها بضعف

يحطّم جرأتي المتراجعة أمام إقدامها عليّ. صريحة هي وأنا ناشد فلسفة لا أنال منها الحقيقة. أدور حولها مستعيناً بكلماتها وببعض مناهجها ولا أصل. لا أصل الى المدام ولا أفوز بالحقيقة. لكنها تحبني وتتنازل؛ فأتمادى.

كيف بدأت الأشياء بالتشكّل؟.

رأس السنة. ليلة رأس السنة وبيروت خارج البيوت. منفرشة في الشوارع. قيل لي ان شارع الحمراء هو القلب. القلب في رأس السنة. فذهبت. خرجت من الشقة وسرت من ناحية الكولا حتى كورنيش المزرعة. كانت الساعة بعد الثامنة والطرقات ملأى بالبشر. ركبت سيارة تاكسي وقلت للسائق الى الحمراء من فضلك. فقال بعد أن ضحك ستكون ليلة حمراء! بادلته ذلك بضحكة خافتة، وقدّمت له سيجارة. قبلها. وكنت أنظر الى أضواء الفنادق على اليمين، وألوان المقاهي المشرفة على البحر ناحية اليسار. وعندما اقتربنا من الروشة، عند بناية جمال، أدار المذياع فغنّت فيروز **بيقولوا إن الوقت بيقتل الحب. بيقولوا إن الحب بيقتل الوقت. يا حبيبي. . تعا قبل الحب وقبل الوقت.**

غادرتُ السيارة أمام الدولتشي فيتا، وسرتُ يميناً في الشارع المؤدي الى نهاية الحمراء. كانت الملاهي والبارات تزعق وتضجُّ بالأغاني الأجنبية والعربية طوال الوقت. اصطدمتُ بامرأة خرجت مسرعة من سيارة تاكسي. باردون. سمعتها تقول دون أن تتوقف، وعبرتني. راقبتها وهي تدلف الى باب مُشعٍّ بإضاءات حمراء وصفراء ومزيّنٌ بأجراسٍ كرتونية ولفائف ورقية ملوّنة. كانت تبرقُ بثوبٍ فضيّ وحذاء فضيّ وشعرٍ طويل بلون الذهب. أذكر أن فمها كان مطلياً بشيء يشبه الفضة أيضاً. فقلتُ لنفسي انها فنانة أجنبية.

دخلتُ الحمراء ووصلت في سيري الى فندق بلازا. تمهّلتُ، وصرتُ أتمشّى وأُراقب وجوه الناس. مُعبأة بشيء ليس هو الفرح. عيونهم قلقة وخطاهم تذهب وتجيء على غير هدى. بعض الرجال يقتعدون كراسي الستراند على الرصيف رغم لسعة البرودة. بغايا متأنقات ينفرشن بين الجموع الملوّنة، وتحت أشجار الأرصفة المزيّنة بالكهرباء. زعقات صبية يعلّقون في أذرعهم أطواق الياسمين والفل الأبيض. موسيقى رأس السنة تنبعثُ من أكثر من مكان. واجهات تعرضُ موديلات الجينز النسائي والرجالي. ملصقٌ صغير بالأصفر والأسود بماركة راعي البقر. ملامح رجالٍ من مشارب شتّى. سُمرٌ. بيضٌ. أنيقون. ذقون لم تُحلق.

شوارب جبليّة كثّة. رائحة عطر ناعم وعطور قوية نفّاذة. كنزاتٌ حمراء خمرية وسترات بيضاء مقلّمة ويافطات مُبالغٌ في زركشتها. وثمة قوام أسود وحيد يمشي أمامي. حذاء يافطة مطفأة لمكتبة تقول ثري ستيبس داون، أو شيئاً قريباً من هذا. أمشي خلفها جاعلاً مسافةً دقيقةً بيني وبينها. تمشي وحيدة لا هي متباطئة ولا هي مسرعة. أرى رأسها من الخلف أسود في مثل لون ثوبها الطويل الأسود. حزام فضيّ عريض يطوّق خصرها وينزلق قليلاً عند خاصرتها اليمنى. قوة ما جذبتني اليها. تجاسرت واقتربت فضاقت المسافة بيننا. لم أرَ وجهها، لكنها سحرتني، تبعتها. تبعت ظهرها الناهض ورصدت الحركة السريّة لمؤخرتها ذات البروز الخفي الشاذّ. بغتتني فكرة انني ألاحق كذبة ستصفعني، وقلت لنفسي إما تصدّني وتردّني خائباً؛ فمشيتها تدلّ على ثقة واضحة. وإما تفاجئني بوجهها، فيكون عكس جسدها اللافت للنظر. قلت هذا وتابعت ملاحقتها متذكراً جملة السائق، مضيفاً اليها: أو ليلة سوداء. كان قوامها الأسود يغوص بين جزر الناس والأصوات والألوان، واغوص ورائه. اقتربنا من الهورس شو. رأيت جمعاً صغيراً من الشبان يتدافعون متراكضين وفي أيديهم زجاجات لم أتبيّنها وكانوا يغنّون باستهتار ويقتحمون ما أمامهم. تفرّق الناس مفسحين المجال لمرورهم العاصف ورأيت صاحبة القوام الأسود تتوقف للحظة بدت لي انها تحيّرت وفي وقت مثل رمشة العين رأيتُ أحدهم يزيد من اندفاعه صوبها وقد مدّ ذراعه راكضاً مندفعاً صارخاً ويعبرها جاعلاً أصابعه تصطدمُ بها. التفتت برأسها فاستدار جذعها ورأيتُ أن الشاب يدسُّ يده في فتحة صدرها ويركض. صرخت وكانت جميلة وتابع اندفاعه. بدأت أطارده بدوري. فرَّ مني الى شارع فرعي وركضت خلفه لكنني أحسست بجسدي يصطدم بالأرض وذراعي يلتطم بزجاجة مُلقاة وسمعت صوت تحطمها تحت يدي.

مرّت بي أحذية كثيرة قبل أن أخرج من المفاجأة وأقف. كان بنطالي قد تلوّث بشيء لزج. تحسسته بيدي المضروبة وعرفت. قيء. من الرائحة. لكن اللون. اللون. وعدت أنظر كي أتأكّد عندما سمعت صوتاً يخاطبني:

«هل تأذّيت؟».

التفتُّ ورأيتها. تقف بقامتها السوداء الناهضة وغرتها مثل أفق!. رأيت غرتها تنسدل خطاً حاداً شاطرةً جبينها مثل أفق أسود. ولمحت في عينيها قلقاً ما.

تذكرت نفسي، وقلت:

«بسيطة. جرح صغير في كفّي!».

«أرني.». قالت. «ليست بسيطة كما تعتقد.».

ارتبكت. سألتها: «كيف تسيرين وحيدة في ليلة كهذه؟».

فقالت دون أن تنظر اليّ: «وماذا يخيف؟».

وكنّا قد بدأنا نتواجه لا ندري ماذا ستكون الخطوة التالية. أجبتها، محاولاً التلميح الى ما لا يُقال:

«الوحدة. تخيفني الوحدة أحياناً.». كنتُ استعدت روح المطاردة التي غلبتني لـمّا شرعتُ بالسير ورائها. نظرتْ في عينيّ مباشرة. ابتسمتُ. أجل. ابتسمتُ لأنني أدركتُ أنها فهمتْ. فابتسمتْ هي وقالت، ويبدو أن لعبة المداورة قد استهوتها:

«أنت تخاف؟».

«مَن لا يخاف؟».

«لكنك ركضت وراءه.».

«هذا لا يثبت شيئاً.»، وأتبعت متفكهها: «نخوة الرجل الشرقي. غالباً دون تعقّل!».

زادت من مداورتها:

«وهل عدت لعقلك الآن؟».

«إن هذا يعتمد...».

لم تُعلّق، لكنها رفعت حاجبها الأيسر، فتغضّن جبينها. وتابعت قبل أن تفلت الفرصة مني:

«يعتمد إن كنت ستوافقين على عرضي أم لا.».

ضحكتْ: «وهذا يعتمد على عرضكَ أنت.».

«نذهب ونجلس في مكانٍ ما. ما رأيك؟».

صمتت وهي تحدّقُ بي. رسمتُ ابتسامة متآمرة. ابتسمت بدورها. وسمعتها:

«لست لبنانياً بالتأكيد. من أين؟».

«من بلدٍ رماني الى بيروت.».

قالت وهي تجولُ بعينيها عبر الشارع:

«لم أفهم. لكنني جائعة. هيّا لنأكل شيئاً.».

«في هذا الشارع المزعج!». وحاولتُ ثنيها: «فلنذهب الى مكانٍ هادىء بعيد عن هذه الحمراء اللعينة.».

«لا تكن رذيلاً»، قالت بلهجة نصف جادة، مومئة الى ما أخفيته في اقتراحي، وكانت تخطو لتعبر الشارع. وأضافت: «مرّوش ليس بعيداً من هنا. أقلُّ ضجيجاً.».

لحقتُ بها بين صفوف السيارات الزاحفة، المطلقة أصوات زواميرها في الليل المضاء.

□

يذكرُ أنه أفاق، ذاك لصباح، وفي رأسه ألمُ الصداع. لم يفتح عينيه مباشرة. بدأ يُطلقُ لحواسه قدرتها الصاحية كيما تلتقط موجودات المكان. أحسّ بقليلٍ من البرد. بعض أصوات مكتومة خارج النافذة. لكن..؛ ثمة تنفس منتظم!. ليس تنفسه!.. وقريب. فتح عينيه ونظر. لم يُصدّق. قام بحركة، مثلما الذي ينفضُ رأسه المصدوع، يبغي التأكد. هي! هنا! على سريره!.

أغمض عينيه المتعبتين، المشدوهتين، وقال لنفسه: «لعلّني أحلم!». لكنه أحسّ، أيضاً، بألمٍ في كفّه، فتذكر الجرح. «لا. ليس بحلم.». وعاد، بهدوء دون أن يُحدث ما يوقظها، ليحدّق بها. نائمة وتتنفس بانتظام. رأسها مرتاح على الوسادة. وسادته. تلمّس ما تحت الغطاء، اكتشف انهما عاريان. «عاريان!». على سريري!. باغتته المرأة بغرّتها الفاحمة وكانت مهوشة. تفتحت حواسه تماماً، وتخلّت عن خدرها. تيقظ، وأيقن أنه أمام حقيقتين: انه يصحو على غثيان شراب الليلة الفائتة. وان المرأة التي تنام لصقه، في فراشه، هي المرأة ذات القوام الأسود.

جلس مسنداً ظهره الى رأس السرير. أصدرت همساً غير مفهوم. تحركت، وغيّرت من وضعها، مانحة ظهرها العاري حتى هضبة الخصر ذات الاستدارة.

□

أجل انني أتذكّر الآن. أخذنا سيارة تاكسي من مرّوش الى الكولا. كانت قد إطمأنّت الـيّ. وربما استجابت للتحدي. لا أعرف. لكنني اذكر انها سألتني، بعد أن أخطرنا النادل بطلبنا، عن اسمي. قالت:

«مَن أنت؟».

قلت: «خالد الطيّب. هوذا اسمي.».

ضحكت بصوت لفت أنظار الجالسين بالقرب منا. تحرّجتُ ولم أُظهر ذلك. ثم سألتني وقد غصّت بضحكتها:

«وهل أنت طيّب حقاً؟».

«جرّبيني.». قلت.

«أنت واثق من نفسك.».

وكنت أتحلّى ساعتها بجرأتي الموسمية. فقلت:

«وأنتِ؟».

«أنا المدام.». ومدّت أصابعها الرخصة في حركة تعارف. فلاحظت لأول مرة انها لا تتزيّن بأي خاتم. قالت انها المدام. وأوضحت انهم ينادونها هكذا. سألتها: «مَن هُم؟». فأجابت: «المستأجرون.». لم أفهم. وعندما استوضحت، قالت: «المستأجرون في بنايتي. تركها لي المرحوم. مات وها أنا أعيش!».

قالت هذا، وتركت فـيّ رائحتها. عطرها الذي سأدمنه. غرّتها الشهيّة. واصلتُ جرأتي وسألتها، لـمّا انتهينا من الطعام:

«أتمانعين؟». وكنتُ أعرضُ عليها القيام. لم تقل شيئاً. أزاحت مقعدها الى الوراء. نظرت في وجهي بصمت. وخرجت مغادرة المطعم أمامي.

□

«أتمانعين؟».

ارتفعت عيناها تسألان. راعَهُ الجبين الخمري وقد كسرته، من أعلاه، غرّتها مثل نصل سيف.

«ان أجلس قربك.».

وجلس.

ضحكت.

لم يكن قادراً، لحظتها، على كشف كُنهِ ضحكتها. ـ قالت له بعد ذلك بزمن انها انما كانت تفعل ذلك لتبعد عن قلبها خوف التجربة. وانها حاولت إخفاء جبنها بالضحك ـ!. جلس كأنما يد جذبته اليها. فرح. في صوتها ما يفرح. يا للصوت!. وشعر بتلك الرعشة، في روحه، ثم دارت الأشياء في رأسه ودارت حتى توقفت عند صوتها:

«وبعد؟».

جاء دوره ليرفع عينيه مسائلا.

«وبعد أن جلست؟».

«أقول كلمة؟».

ولمعت ومضة في عينيها وما نبستْ.

«غرتك مثل أفق!».

حدّقت فيه. فسكت منتظراً أن تقول شيئاً. انتظر طويلاً. ثم اغتاظ من ارتباكه وصمتها، فسأل:

«ألم أقـلْ شيئاً؟». وكان ما يشبه الخذلان يتسلل اليه. خشي ان تكون تجاهلت كلامه عن عمد. وخشي ايضاً ان يكون كبت ما قال في داخله فلم يقله!. لكنهـا ضحكت. الضحكـة ذاتهـا. ارتبك اكثر. بلغه صوتها المهتزّ الرجراج، واحتواه، وبقي. لم يعل كثيراً. لم يمتدّ أبعد من مسافة الركبتين اللتين كادتا تمسّان ساقيهـا. تنـاهبتـه مخاوف. قال. لم يقـل. همس، فلم تسمعـه. سمعتـه.. تتجاهله!!.. أتضحك منه!؟

تساءل: «أليس ثمة ثقة تسندني؟!». وفارَ غليان أشعلهُ شرارها الضاحك. اسودّ، احمرّ، احتقن وجهه، واغرورقت عيناه، كانت أصابعها تطرق كتفه مثلما الملامسة.

«أأنت شاعر؟».

اذن، هي سمعت. ـ أراحت ظهرها، ممسكة بكأسها المملوءة حتى ثلثها، بأصابعها الخالية إلّا من أثر خاتم الزواج. ثم قالت: «حدّثني عن ذاك الملصق العريض على هذا الجدار.». وأشارت بيدها ذات الكأس جهة الجدار المقابل.

صينيون متلاصقون بتكوين هرمي ملتحم يصوّبون أنظارهم نحو جزيرة يُفترض انها (تايوان). عامل. جندي. فلّاح. فتاة ميليشيا. طالبة. وفوق رؤوسهم ذراع بعضلات مبالغ في ضخامتها، ترفعُ كتاباً أحمر.

«إشهار للثورية في أقصاها!»: فكّر.

«بشعة. ألا تعتقد ذلك؟». قالت.

بوغت؛ فأبقى اللسعة فيه، وغيّر مجرى الحديث.

كرّت الأيام كالسبحة. حبّة حبّة. وفي كل يوم تفرُّ رمال بيروت، الملساء الناعمة، وتذوب في أصابع المدام. يقبّلها أصبعاً أصبعاً. يتشرّب لذةً غابت الملوحة عنها، وأبقت على مذاق اللقاء الأول. المذاق الخاص، الفريد، الذي تسلّل اليه مرة، ثم لم يعد ليغادره أبداً. ما كان يدري أنه كلما حاول استعادته غارَ منه، منفلتاً في عمق لا يصل اليه. بات يبحث عمّا لا يُمسك. يتقصّاه في أطراف المدام وباطنها المتهيء للبديل. له. في كل لقاء. قبل كل لقاء. وإثر كل لقاء. لكن «الشيء» ليس فيه. ينقصه. وكانت المدام تتهيأ لما يُكملها. ولأنه ظلّ غير مُمسكٍ بالذي لا يمسك، ظلّت بيروت كما المدام عصيّة عن الإمساك. يضمّها، فتفرُّ اليه متداخلة معه وتنأى بيروت. يفلتها، ويجعل ما بينهما مسافة، فتبدو أقرب الى التصديق وألصق الى الحقيقة. ومع هذا لا يجرؤ.. وتبقى الهوة. تلطمه جملة العجوز: «أنت لا تنفع.»!. يتساءل إن كان هذا ينسحب على علاقته مع المدام، أيضاً!!.

يدنو منها تائقاً الى الغوص، والعيش، والتنفس، والذوبان حتى التلاشي. فتصدّه بمزيدٍ من الملامسة والقُبل، ويصير بينهما عَرَقُ اللذة. ليس بقادرٍ على التلقائية والوضوح. يقابلها بالذهول، ويبردُ ملتفّاً في مدار الوحدة.

يبتعدُ عنها كيما يراها في وضوحها أو سطوعها، فتتعرّى له ضاحكةً بذاك الصوت المهتزّ الرجراج، الذي يحوطه ولا يعلو سواه.

سراب.

جسدٌ من عَرَق، وأصوات، ومذاق لذة اللقاء الأول.

امرأة ذات جبين خمري تفور الضحكات منها، فيفور هو، تصخب السماء مرسلة الى العالم فيضَ غضبها، معكّرة الأُفق، فتكونُ غرّتها قد تشوشت، يكون جبينها قد تشوش، يكون هو قد جنّ يمسك ولا يجد، يقبض ولا يرى، يسمع

ولا يسمع!.

امرأة تضحك فيموج البحر وترتعش على وجهه المراكب. تنكسر. يطفو الخشبُ وتغوصُ الأجساد الثقيلة.

لماذا تبتعد المدينة كلما مسّ جسده أرض المدام؟ يقف في العراء؟. هل كان يفهم المرأة حتى يألف المدينة، فيقترب من لغة تجمعهما؟؟.

ظلّ مع كرّ حبّات السبحة يكرُّ الى أن بات الواحد الوحيد. يدنو من الهاوية ويبصرها؛ يتبدد السراب. يفيقُ من كابوسه ليجد نفسه نازفاً العرق. يتساءل إن كان ما يعيشه كذبة. يجيبُ بأن هناك خطأ. خَلَلاً. شيئاً ناقصاً. ينقصه.

□

.. وفي يوم ذهبتُ الى نذير بدلاً من أن أهدم نفسي:

أتذكر.

كنتُ عائداً لتوي من لقاء مع المدام. كنتُ مجروحاً، اذ اكتشفت المرأة ضعفي تجاه وضوحها. كان التشكك يعميني عن رؤية الفاصل بين الليل والنهار. بين جسدها الساطع وترددي في أخذه باحترام. عجزي عن أخذه باحترام. التشكك في قدرتي على ذلك!. ثمة ما هو ناقص لديّ. اكتشفت المدام اني أتلصّصُ عليها ولا أنظرُ اليها. أتعامل مع اندفاعها كأنني أخشى أن تفلت الفرصة. حدثت هزّة لم أتوقعها. بكت!. أجل. بكت المدام المتكبّرة، ودفنت وجهها بين ركبتيها. أنت لم تفهم!. قالت. بقيت ملجوماً تعوزني كلمة أقولها. أنت لم تفهم أبداً. ولم ترفع رأسها. لم أرَ غرّتها التي تبعثرت. بقيت عارياً وأحسستُ سدوداً من صقيع تنهض بيننا.

أسرعت الى نذير الحلبيّ حاملاً جرحي وزجاجات الكونياك. قلت له: أهي المراوحة؟ لم يُجب. كان يفركُ أصابعه ببعضها وينظر الى الأرض. سمعت صوتاً في الداخل. خرجت ثريا من المطبخ ورأيتُ وجهها مغسولاً بلا ألوان. رأيته جميلاً ورأيته بسيطاً. رحّبت بي بصوت لم أكد أسمعه. كان صوتها خفيضاً وقالت ان القهوة أفضل من الكونياكِ. عندها لاحظت الصينية التي كانت تحملها. وخطر لي خاطر ربما كان هو الحلقة المكسورة بيننا. بيني وبين المدام. المدام الواضحة،

المتكبّرة، الصارخة الحضور والقوية. هذه هي الحلقة. أما ثريا فمنخفضة مثل صوتها. لا تستطيع أن تكون أقوى أو أكثر. ثريا لا تنسى انها ثريا العاملة في بار. لستُ ضعيفاً حيالها. ليست قوية أمامي. لا شيء يهتزّ. أرى شيئاً مهتزّاً لا يستقر. قالت لي المدام، وكانت ترشف من فنجان قهوتها. كنّا نجلس في مقهى ستراند بعد خروجنا من السينما المجاورة في الحمراء. حالة حصار. اسم الفلم. شيء مُهتزّ وكأن العالم لا يستقرّ. لماذا؟ سألتني. ثم قالت، بعد ان أشعلت لها سيجارتها، فسّـرْ لي الفلم. لكنني لم ألتقط معجزة تكوين المعنى. طغت ضجّة الشارع وبقيت عيناها تنتظران التفسير.

□

حين غادرا طاولتهما في مقهى الرصيف، سارا في الشارع المزدحم بالناس والضوضاء، وألوان اليافطات الـمُنارة. كان قد عجز عن تفسير معنى الفلم. «حالة حصار». حاصرته بأسئلتها الواضحة. المباشرة. محاصر بموسيقى الفلم. حفظ اسم المـوسيقي اذ قرأ مقالاً عن ذلك في الجريدة. ميكيس ثيوذراكيس. اليوناني. انه يتذكّر اسمه ويتذكّر، الآن، انهم قد ترجموا كتابه الذي يتحدّث عن المقاومة لقمع عسكر اليونان. ظلّ لسانه مُحمّلاً بنكهة القهوة الحادة، وبمرارة تفلها الثقيل ذي الحبيبات تحت أسنانه. مدَّ أصابعه الى يدها فتركتها له. كانت باردة. احتمى بها ولاذ بكتفها هارباً من تفكك الكلمات. كلماته المفكّكة. لم تعترض. سارا لدقائق. خطواتهما تسكّع. ثم فاجأته:

«كيف نذير؟.».

«بخير. نذير؟».

«لم تقل لي كثيراً عن علاقته بثريا.».

ردّ باقتضاب:

«ماذا عن علاقتهما؟ ماذا تقصدين؟».

«هل صحيح أنها تعمل في بار؟».

«صحيح. هل تهتمين؟».

«أظن أنك قلت لي يوماً انهما متفاهمان وعلى وفاق.».

«أجل.».

«كيف؟».

ولم يعثر على إجابة مكتملة هذه المرة أيضاً.

# 3

أوصاه أبوه بزيارتهم في «الأشرفية».

قال: «زُرهم. رغم الاختلاف. انهم من العائلة.».

لم يكن قد سمع عنهم منذ زمن. كان يعرف أن له أقارب في بيروت. ينحدرون من الأصل الواحد. سوريا. غير انهم مكثوا في لبنان فترة إنتظار حتى يئسوا من تأشيرة دخول البرازيل. لم يبعث بها الأخ الكبير. فكان استقرارهم الدائم.

اعتاد أبوه على التذكير بالاختلاف كلما جاء بالحديث عن لبنان. لا يُطيل. لا يتحسس منه موقفاً حيالهم. ومع هذا، يتسلل اليه شعور ان مفصلاً ما، غامضاً ومقطوعاً، يختفي وراء الكلمات. ما هو؟.

سؤال يبغتُ ذهنه عند اصطدامه به. لكنه. مع الوقت، يتوارى متراجعاً بين طيّات الذاكرة المتراكمة. ينصرم زمن ويُنسى السؤال؛ إذ يفتقدُ الموضوع مبرر الإلحاح والحاجة. لكنه يذكر الحكاية. حكايتهم في سجل العائلة وتاريخها. تشتتها في الأصقاع، وتناثرها تحت شموس العالم والقارات. لقد سبقهم العديدون الى القارة الجديدة. القارة ـ الـحُلم. الذهب النابت مع رؤوس العشب وفي عروق الصخر المطمور. الحياة المتفتحة القابلة لجميع الوافدين المهاجرين. اميركا. الشمالية والجنوبية. البرازيل. ذاك النداء الأسطوري العصري الذي صكّ أسماع المنطقة حين عبرها. الذي زرع في الناس هاجس السفر والبحر. الذي هيّج فيهم توحّش الريبة، والقلق، والخوف من الدين الآخر. الدين السائد. السواد

الأعظم. أصوات الهمس عن مجازر قد تأتي!

وما أتت.

غير أنهم تركوا حلب ويمموا شطر بيروت.

هناك المرفأ.

هناك «بابور» البحر الذي يُطلق صفارته إيذاناً بالرحيل. الذي يُسوّر سماء النوارس البيضاء بدخان مخرِه مياهَ الوطن.

الوطن؟.

ربما لم يكونوا يفقهون للكلمة معنى واضحاً. أو محدداً. أو واحداً.

«هل له؟. . اليوم؟!». سأل نفسه.

«هاك رقم هاتفهم. سوف يدلّونك على العنوان. الأشرفية.».

اذن هُم هناك.

هنــا.

في بيروت.

لم يهاجروا.

□

«آلو.».

«مَــن؟».

«أنا نذير.».

«. . . . . .». ـ الاسم غريب!.

«نذير بن باسيل سمعان الحلبي.».

وجاء صوت من الطرف الآخر كأنما يطلع من بئر:

«آه! . . باسيل سمعان.».

«أبي. انهما ابي وجدي.».

قال كمن يؤكدُ على نقطةٍ إن لم يقلها انقطع خيط الحديث. وانقطع فعلاً. خيّــم صمت ثقيل في الطرف الآخر. نداء يصلصلُ عبر السماعة. تعرّقتْ كفّه القابضة عليها. أصوات الزبائن في المحل. ضجيج الشارع المتفرّع عن مركز

الاطفائية في منطقة «أبي شاكر». ، يمرُّ مقاتل والى جانبه تسير فتاة بلا حرج. المقاتل بلا سلاح. تدفعهما النشوة لأن يتماسكا بالأصابع. يتريثان على حافة الرصيف. ثم يراهما يعبران الشارع نحو الجهة المقابلة.

يأتيه صوت جديد يطرق أذنه:

«آلو. مَن؟». خشناً فيه من نبرة الحذر الشيء الكثير. صوت امرأة.

«نذير باسيل سمعان الحلبي.».

«نعم.» - بحياديّة باردة!.

ووجد نفسه يَخرجُ عن الكياسة، ويقول هازئاً من ذاك المجهول القابع في مكان ما، على الجانب الآخر من المدينة:

«أعتقد أننا أقرباء. أو هذا ما فهمته.».

«فهمك صحيح.».

استطرد: «وأعتقد انني أحمل اليكم تحية من الأهل.»، وتردد قبل أن يكمل: «ورغبة بزيارتكم للتعارف.».

عاد الصمت ساتراً يفضحُ الحذر الغريب. أصابه عندها شعور بعبث المسألة، واقترب من قراره بقطع المحاولة؛ إذ قال لنفسه: هذه مهانة سخيفة!.

لكن الصوت على الطرف الآخر قال:

«الأحد. زرنا يوم الأحد.».

كانت النبرة تحمل معها دعوة محفوفة بأكثر من التردد. بأكبر قدر من الدقة. كأنما ثمة حساب داخلي أجرته صاحبة الصوت قبل أن تقرر. انقلب على قراره بقطع المحاولة (ربما بدافع الاستهتار أو التحدي والذهاب في كشف المخبوء حتى نهاية الشوط). وقال كمن يريد الايحاء للآخر برغبته هو في التحديد:

«الأحد يناسبني.».

عاجلته: «الرابعة بعد الظهر يناسبنا أكثر. هل تعرف العنوان؟». - انها لا تحتمل القرار خارجاً عن إرادتها. قد تكون المكابرة.

«على الورق فقط.».

«تستقلْ السرفيس من الموقف عند الكنيسة في السوق. تخبر السائق بالعنوان. يدلّك.».

وأغلقت الخط.

عاد للمكان حضوره الضاج. الممتلىء. الزاخر بالوجوه والعربات والأصوات. المحتشد بالتفاصيل اليومية التي اعتاد عليها في «ابي شاكر». عاد اليها بوجودها المحسوس الغامر لانثيالاته الذهنية. وجودها الذي نهض من جديد. انتبه الى رجل يقف الى جواره ينتظر دوره كي يهاتف. اعتذر له وناول صاحب البقالة نصف ليرة. شكره. وخرج الى الشارع.

انها البناية ذات الشرفات المزججة. قبالته. تنسدل ستائر صفراء مرتخية، أكلت الشمس نضارتها، خلف الزجاج في بعض الشرفات. أما بعضها الآخر فكانت مفتوحة للضوء والشمس وعيون المارة. تخرج امرأة من احدى الشرفات وتأخذ بمسح زجاجها. يلحظُ بعض القطرات تهوي من قماشة التنظيف في يدها.

البناية. لن ينساها. في مدخلها الـمُعتم بدأت قصة الخوف والحب. الحب في الخوف. والخوف في الحب!

لن ينسى ثريا.

كان يومي الأول.

أذكره جيداً.

وصلت الى بيروت بعد الثالثة. ساحة الشهداء شبه مقفرة. تجمّعات صغيرة. يُسرعون في سيرهم. يحاذونني. ينسلّون من أمامي، ومن جانبي ومن ورائي، وينفلتون فيما يشبه الهرولة. كآبة بحجم المدينة. انقبض قلبي وقلت في نفسي: لا. ليست هذه ببيروت التي أشتهي. أصابني حزن غامض. شعرت بالاحباط فجأة، فاستسلمت له. كئيب أنا كالمدينة. تراءى لي لحظتها أن رماداً كثيفاً يهطل كالندف من السماء. حجر البنايات مُسْودّ. عتبات المحال مُغطّاة بالورق، وفوق الأشياء طبقة ملحوظة من الأتربة الناعمة. ملحُ البحر يشقّقُ القلب فأفرُّ الى داخلي: «قبل أن تطأ أرض بيروت قُلْ أعوذُ بربِ الخلق من شـرّ الخلق!». قالت أمي. وجدتني صغيراً أفزعُ من الغُربة، وأستعيذُ من خطر الموت .

الموت ؟!..

رائحة ما تنفذُ الى روحي وتغشاني. رائحةُ موت. ولكن ثمة صمت. صمتٌ

ثقيل. ثقيلٌ علـيّ مثل صمت الخنادق بين تراجع الليل وانفجار الفجر. بين هدنة قصيرة وقصفٍ من السماء. أخشى من صوت يهدمُ الصمت ويهدمني. تطلع برودة الأرض وتغزوني بداية من أظافر القدمين. ليس هذا بمهم. البرد في القلب. والقلب يابس مثل حطبة كساها الثلج. أشبه ببدنٍ يبوس يرتجف صاحبه، ويخاف، ويتوق دفئاً دفئاً إذ هو الدفء المحظور الاّ في الخيال المشروخ بألف نافذة ومنفذ.

لماذا تجيء المرأة ساعة الخوف؟. لحظة الدخول في صقيعٍ هلامي يحتمل غير تفسير؟.

بدّدتُ الهلام، وقلتُ لرفيقي في الخندق: كيف تُحسّ؟. فقال: ممغوصٌ ومتعب. وأنت؟. قلت: أريدُ امرأة. وكانت عيناي تنظران عبر غبشة الصقيع المضبب. تنظران بغير إرادة مني. كأنما هما لغيري. كأنما انفصلتا عني وراحتا تجوسـان المـدى بمطلق حريتهما، وخفّة الخوف فيهما. انتقلت الى وجه رفيقي الممغوص المتعب، فألفيته غاطساً في تجويف خوذته المنداة. كان حديد خوذته مغطى بطبقة مائعة من الندى المنزلق على ربوتها. لا. ليس من تقطر للندى. فقط، قشرة تنتظر رائحة الدفـء حتى تتقطر. قلت في نفسي: حتى الندى يتوق الى الدفـء. غير أني سرعان ما ألفيت المقارنة مصطنعة، فألغيتها. تدرّج نظري الى ما ظهر من وجه صاحبي. ذقن نابتة. بعض شعرات خطّها الشيبُ الأبيض. أنف أرنبته في لون الشمع. ومخاط خفيف يحطّ على مساحة شاربه الفاحم الكث.

سمعته يقول بحيادية: امرأة! أنت تمزح. فلم أقاوم اغراء دلالة تعليقه، قلت: ولم لا؟. انهم يفعلون هذا أيضاً. استفسر بعينيه. فأجبته: هناك. أمامك. فقال: انهم يهود. قلت: انك فلاّح لا تعرف شيئاً. غضب وهرس قدمي بكعب جزمته العسكرية الثقيل، أطلقتها خافتة كالهمس: أخ!. حقاً انكَ لفلاّح جلف. ألا تفهم المزاح يا رجل!. قال: اسكت. انت لا تفهم الحرب.

كنت مغيظاً. وكنت، كذلك، جادّاً في مسألة المرأة.

مـرّ وقت ثقيل مثل كعب الجزمة العسكرية. ثم سمعته يقول وهو ينفثُ بخار حلقه الحار: أتعرف. لم أقرب زوجتي منذ اكثر من شهر. استأنستُ فيه انفتاحاً نحو المصارحة، وتشجعتُ: أما أنا فلم أنم مع امرأة منذ دهور. هكذا أشعر. انني أتمنّى فعلاً أن أقضـي عشر دقائق مع واحدة في فراش. تصوّر يا رجل. تصوّر كيف سيتغيّـر العالم. حرارة اللحم، والليل، وأنفاس اللهاث. كل

شيء طريّ. تصوّرْ.

وانفجر الفجر.

تشظّى العالم وتحوّل الى مرايا قاتلة الحواف.

تناهضت من الخندق ـ كنت أراه قبراً ـ ، وزحفتُ الى رفيقي. كان مطموراً بين كيسٍ محشوّ بالرمل الرطب، الصلب كالرصاص، وصخرة صغيرة اقتلعها الانفجار وألقاها عليه. كان دمه يشخب ويسحُّ من رأسه!

أخذته إلـيّ مجنّباً رأسي ارتفاع حافة الخندق. حرّكته على صدري لكنه لم يستجب. ساكن. ثقيل. وجهه شاحب، والبرد متجمّعٌ عليه كطبقة جديدة. برد الموت فوق برد الحياة. تأملته، رغم ضرورة الاستجابة السريعة والاحتراس، رأيت المخاط الخفيف ممتزجاً مع نزفٍ من أنفه، وقد غطّى الشارب، والفم، وتعرّج على ذقنه النابتة، واستقر في خشونة شعرها.

هو الموت!.

تلفّتُّ حولي، فرأيت خوذته مقلوبة غير بعيدة عن رقدته. كانت معفّرة. غير أني لحظتُ ان قطرات الندى قد انداحت على معدنها، وتكوّمت على جزء منها مسحة من الطين لوّثَ وهجها الكامد.

الموت.

ثمة رائحة تخصّه وحده. تميّزه عن سواه. أشمّها من مسافة بعيدة. يتكثّفُ الرماد ويهطلُ كالندف على ساحة الشهداء. الساحة مقفرة. تمرُّ سيارة تاكسي. أُلوّح لها. تتوقف. أخطو اليها، وأمدُّ يدي الى بابها الأيمن، يكون سائقها قد مال نحوي، من وراء المقود، ويسألني:

«الشرقية أم الغربية؟».

لم أفهم. قلتُ له:

«لم أفهم».

«أين تريد؟».

«الطريق الجديدة.». ـ هكذا أعلموني في دمشق عن عنوان المكتب ـ.

«اذن هيّا. بسرعة!».

أسرعتُ بدخول السيارة.

□

التقيتها في يومي الأول.

أنزلني السائق في شارع بالقرب من مباني جامعة بيروت العربية. قلتُ لـمّا رأيتُ خلو الشوارع من اكتظاظ المارة، (كانت بضعة سيارات تمرقُ بسرعة): ربما لأنه الأحد. عطلة الاسبوع في لبـنان.

المحال مغلقة. المكتبات. أكثر من مطعم. غسيل منشور ملوّن مثل رايات عرس قروي. جريدة يتقاذفها هواء خريفي. مسلحون يتراكضون على الأرصفة. يهبطون من مداخل بعض البنايات. رؤوس تتحرك خلف شرفات بعيدة.

واجهتني، على زاوية شارعين، وأمام مصلّب يحاذي مباني الحامعة، كافتيريا مسيّجة بحديد واطىء. قرأتُ يافطتها: (الزاوية). كلمة المحل لم تُضاء كهرباءتها بعد. لم تهبط العتمة التي زحفت بشائرها في السماء. شددتُ على حقيبتي الصغيرة. عبرت الشارع نحو الكافتيريا. صعدتُ درجتين. طاولات معدنية صغيرة. مقاعد خفيفة. ثم الواجهة الزجاجية للمكان. لم تخل من لطخات أصابع، ومساحات متناثرة من غبار قديم. تناولت مقعداً من طرف ظهره، وحركته، وجلست بوجه يقابل ساحة المصلّب والشوارع المحيطة به، المؤدية اليه.

كانت البناية المزججة شرفاتها على يميني.

رنّتْ في أُذنَي أصوات كالأجراس الناعمة. تتواصل وتتوالى، ثم تتحشرج أشياء في الداخل وتصخب. أستديرُ برأسي، فأرى رجلاً يتوجّه الـيّ من الداخل. أتبيّـن ضوءاً يلتمع من خلفه بألوان عدة. تعود الأجراس الناعمة الى القرع. يصل الرجل اليّ. أرفع عينيّ الى وجهه. عابس بعض الشيء. يسألني:

«ماذا تشرب؟».

«قهوة».

يستدير، ويخطو عائداً صوب الداخل المزجج، الاّ ان سؤالي أوقفه:

«ما هذا؟».

نظر الى حيث أشرتُ بيدي. وقال بغير اكتراث:

«فليبرز. لعبة.».

وكأنما سؤالي أثار في الرجل طرافة ما، فاستفسر:

«أنت سوري؟».

«نعم. سوري.».

أفلتَ ضحكة نائسة. وقال:

«جرّبها!».

وعاد وجهه لينغلق على عبوسه. وامّحتْ ضحكته النائسة.

رشفتُ من فنجان القهوة، واكتشفتُ لأول مرة الكلمات النافرة على واجهة البناء أمامي. قاعة جمال عبدالناصر. لم اكن أدري، لحظتها، أني سأقضي في هذه القاعة ساعات معبّأة بالشعر والسياسة. أو انني سأنصتُ الى محاولات القومية في جدلها مع الماركسية وحرب الطبقات. أو أنني سأستمع للمرة الأولى الى محمود درويش، وجورج حبش، ونايف حواتمه. لم أكن أدري ماذا تحمل لي الأيام. وكنتُ أحمـلُ في حقيبتي الصغيرة، مع ملابسي، ومعجون الأسنان، وفرشاة الحلاقة، مشروع الرواية التي لم تكتمل. هل ستكتمل؟. كنتُ ما أزال محاصراً بأيام المعارك على الهضبة. بأوامر الصعود اليها، وأوامر الهبوط منها الى دمشق. رأيتني موزعاً بين مهمتي كجندي، وكوني أحفظ كلمات جميلة. أو هكذا توهمت. لم يسبق لي أن كتبت رواية. محاولتي الأولى. حبّرتُ أكثر من دفتر، وأبقيتُ ذلك سراً الّا على صديقي الشاعر. تحمّس لها، وقال: سيخرج منك شيء!. فتجاهلتُ وتغابيتُ، وقلت: حقاً سيخرج مني شيء. تفاهة. لم اكن مدركاً للسبب الذي دفعني الى قول هذا. حجر ثقيل في داخلي يسحبني الى القاع. الى حيث لا لون الّا الظلمة الغارقة في الصمت المائع. قريب من اليأس. داخل في الاحباط. مكلّل بالفشل الدائم كانما قدر مكتوب مرسوم. كانما هو تتمة نبوءة المرأة التي لمست باطن كفي؛ بألتمعَ سنّها الذهبيّ، وبرقتْ عيناها الخضراوان. شعرتُ وقتها بما يقرب الرعشة! هذا ما أحاوله. ما أحاولُ بعثه من جديد. ما أريد اعادة تشكيله وانعاشه على الورق. كيف شعرت. كيف مادتْ بي الأرض في حضورها الساحر. وكيف مادت بي في حضور الموت على صخور الهضبة. ليس هذا فقط. ثمة الكثير. وجوه. عالم. عوالم. حيوات. نساء. أحلام صارت جثثاً. وأحلام تنتظرُ دورها. وما بدّل العالم من تروس جبروته تبديلاً. يأخذ البعضُ علـيّ تشاؤمي. فأقول لهم: أين

الفرح؟. نبدأ، ثم نسارعُ الى الانتكاس! ننهض، ونُفاجأ بسقطة أدهى من الأولى وأمـرّ. نتلمّس أمـلاً. نركض وراءه. نكـاد نقبض عليه.. فنكتشفُ انـه الأسخريوطي! الذي باع معلّمه باثنتي عشرة قطعة فضيّة. كلما اعتقدنا باقتراب الشـاطىء ازددنـا إيغـالاً في بحر الظلمات! كيف؟. مغلولون بالأسخريوطيين المتكاثرين كالنمل. الاسخريوطيين المغطّين وجه العالم. وجوهنا. الوطن. أي وطن؟.. وأي مواطن؟!. نشيخُ قبل الثلاثين ونعقمُ ولـمّا نصلُ البلوغ. قال لي صديقي الشاعر: أنت مهدوم ولم تبلغ الثلاثين بعد! فأجبته: لا يخدعنك مظهري. عمري اكثر. احتجّ: ولو. عليك بالأمل. قلت: خداع الشعراء. قال: حقيقة. فقلت: كذبة. أنظر اليك. كم ديوان شعر؟ كم إشهارا لفضيحة؟ كم لعنة أنزلتها على الرؤوس؟.. وكم من أمل لقيت؟. قال: ليس كثيراً. فقلت: حبّة فاليوم. تسكـينْ. أنت تقـول اليوميّ وتنسىٰ الأبعـد. المستقبل. تقول الشعر. تكتب القصيدة. إنما التاريخ.. قاطعني: التاريخ هو اليوميّ. قلت: أجل. هو الفانتوم والنـابـالم وأواكس والطرقات المحفورة أو المخفورة بالعسس والبغايا. غيّـر دفّة الحديث: لا تنكر انك تحب الشعر. أجبته: أستمتع به لأنه خادع. تعجّب: تستمتع بالخديعة!. قلت: أستمتع بالحلم فهو الملاذ. علّق: إنشاءٌ رخيص. أعني قولك. تفلسفتُ: كالانسان. يبقى الأرخص فيما ترتفع قيمة استهلاكاته.

أيمكنني قول هذا في الرواية؟

المخاط الخفيف الذي تشـرّبه شارب الجندي. تلك صورة. والمخاط ذاته عندما اختلط بخيط الدم النازف من الأنف. تلك صورة أخرى. لستُ أدري إن كان بمقدور غيري ملاحظة المفارقة في هاتين الصورتين. وأيضاً: الندى على خوذته الخاكيّة الملوّثة بالطين. صورة ثالثة. يمكنني اصطناع عدة صور من الخوذة. فمثلاً، أستطيع استخدامها أصيصاً لتشكيلة ورود. هذا خيال. غير اني قادر على تنفيذه حينما أشاء. وبذلك أقلبُ الخيال الى واقع حي ومُزهر كل يوم. على مدىٰ العُمر. العُمر. أعمارٌ كثيرة. مديدة. بالآلاف. أعمارٌ انتهتْ على حواف الخنادق. في هياكل الدبابات التي التهبت كالجحيم. أعمارٌ انقصفت على امتداد البنادق التي ما عادت تطلق النار. ما عادت من حياة تشدّ على زنادها المتأهب. الجميع متـأهبـون. الجميع انـتـظار أخـرس. مكمّـم الفم. غاضب. يفترسُ جوفه، وأعصابه، وحياته؛ إذ لا سبيل لافتراس الأقوى. لأنه أقوى. ينتهي التأهب،

فيهبط الجند من الأعالي ذابلي الوجوه، متهدّلي الأذرع. بنادقهم باردة. والنجوم على أكتاف ضباطهم قد انطفأت.

خَبتْ الشمسُ وخَلتْ الشوارع.

تستحيلُ دمشقُ الى «غـوطةٍ» بحجم الدنيا. ترسلُ هواء شتائها الى كل النوافذ. تستبيحُ جميع الطرقات والميادين. تتجمّـد المياه في صحون النوافير العامة، وفي بطون «الفسقيات» الزرقاء ذوات المربعات الفسيفسائية والأشكال الخماسية. تتغطّى المساحات المهجورة بأوراق الشجر الضاربة الى البرتقالي المصفرّ، والأصفر المشـرّب ببقايا الأخضر الباهت. الأوراق الذاوية، المطقطقة، المتكسّـرة فتاتاً عند اللمس ليأخذها الهواء بقايا هشيم. تصير العيون ساحات هزائم. والرموش خيوط رماد. والجباه فضاء مباحاً لغربان الجثث، والجوارح الجائعة للحم البشري الموشوم بموت الحروب.

ينهض نُصبٌ عملاق من رخام. أو بازلت. أو نحاس مطروق يخطف الأبصار.

خوذة ينتصب فيهـا عشرات الجنـود الشبّـان بأوضـاعٍ جامحة. مكشوفي الصدور. بارزي عضلات السواعد والاكتاف. نافري تفصيلاًت جانبي الخاصرة وربـوات البـطن المتعضّلة، ونظرات العيون المحدقة في السماء. لكنها نظرات متيبّسة، متحجّرة، ميّتة ومتأبّدة في الرخام، أو البازلت، أو مطروقة في النحاس البارد.

إن اصرارهم على الاستناد الى ايقاع خفيّ، غير مُجسّم، يوازن بين حركتهمٍ وتلويحات بنادقهم في الهواء فوق رؤوسهم، ويجعل من كتلة التكوين الضخم عملاً يشهد على موت بطولي. أو أبطال موتى!

يتفجّر الانتظار المكمّـم تصفيقاً مدوياً تلتهمه عدسات التصوير، ومقرّبات التلفـزيون، ومضخّـمات الصوت، وتحرير الافتتاحيّات الصباحيّة، والتعليقات الصحفيّة الرسميّة وشبه الرسميّة، والاذاعيّة، وصفحة ريبورتاج مُصوّر كاملة. يُقص الشريط. تنفرجُ الستارة عن الخوذة العملاقة بشبّانها المقاتلين. هكذا ينتهي الانتظار الطويل العميق بولادة نُصب في قلب المدينة، لا يُضاهى.

رجال لا يعودون من موتهم.

أعمار لا تتقدم.

يكون علـيّ أن أغادر الكافتيريا. تندفعُ سيارة إسعاف كالقذيفة. نعيقُها يملأ أُذنّي والمنطقة. دمٌ! تشرئبُّ بعض الرؤوس من بعض الشرفات والنوافذ. يرشحُ الدمُ من بابها الخلفي المفتوح. أقف. جثث! جثث حقيقية! لا. بل أُقسمُ بإلهي أن أطرافاً بشرية تدلَّتْ خارجة من الباب المفتوح!

تجمّدتُ واقفاً. وقلت: مجزرة!

يومي الأول في بيروت.

سقطتْ العتمة. سقطت مثل جسم يهوي مرةً واحدة. يفرضُ حضوره. بلا صوت.

هكذا التقيتها: حين انعطفتُ يميناً، مهرولاً كالآخرين، وحقيبتي في يدي؛ كنتُ كمن يفرُّ من خطرٍ كاسح. خطر أعمى. كنتُ كمن يفرُّ من الكاسحِ الأعمى الى مأمنٍ لا أعرف ما هو، وأين. عَصْفُ يصخبُ في خلاياي ويهدر. يضخُ القلبُ الدمَ بدفقاتٍ مجنونة. أهرْولُ الى لا مكان والأمكنة اكتشافُ جديد. تسقطُ الحقيبةُ مني. اصـطدمتُ بجسمٍ باغتني فلم أتبيّنه. مادَ الجسمُ واهتزّ. جثوتُ صوبَ الحقيبة، ولحظتُ الحذاء النسائي لصيقاً. رفعتُ رأسي فاكتملَ الجسم. رجَّ المنطقة صوتُ انفجـارٍ بين البنـايات. تركتُ الحقيبـة ونهضتُ محاولاً.. ماذا؟.. أي شيء.. لكنها، ومع شحوبها المنذهل الخاطف المفاجيء والـمُفاجأ، قالت كلاماً لم ألتقط منه سوى: أعمىٰ!.. أو شيء شبيه. لم أعثر على الرد، ظللتُ صامتاً. باغتتني اللحظة، والمرأة، ومشهد الأطراف المدماة المتدلّية من سيارة الإسعاف الزاعقة. لكنني، وبعفوية إنعكاس الفعل علـيّ، وجدتني أجذبها من يدها نحو مدخل البناية.

صرنا لهاثاً مسموعاً وقد تحرر. تمَ احتواء الفضاء بصدى الرصاص. تبعه تفجيـرٌ خرجَ من الأرضِ هاطلاً عليها. ثم ساد سكونٌ بغيض له رائحة الموت التي أعـرفهـا. سكونٌ ثقيل فاجع. سكون محسوس بارد كاللحم المتطاير فوق الرأس. كالهواء الـمُشبع بذرّات الغبار الكثيفة الكريستالية الهائمة والذي يكسو الوجوه باللون المخطوف. ينغلُ في مسامها. فيركنُ الانسان في زاويته بلا حراك. أتراه حنين الاندساس في أمان الرحمِ الأول؟!.

عندها. عندها فقط، اكتشفتُ ان المرأة شديدة اللصق بي. وأن ذراعي يخاصرها بقوة حميمية غريبة!. وانها منكمشة الـيّ مثل طفلةٍ فاجأها ارتطامٌ مدوٍّ

في عتمةٍ دامسة. كانت تنتفض. وكانت دقيقة الجسم ورقيقة الى حدٍ خشيتُ عليها من أن تنقصف. وكانت دافئة، أيضاً، رغم الخوف الذي يُرعشها.

□

أجل.
إلتقيتها في يومي الأول.
الثالث عشر من نيسان. رقم مشؤوم.
وكان يوم أحد.

«إذن ستذهب الى الأشرفية؟»
«نعم.».
«والوضع الصعب!».
تذاكيتُ، وقلتُ محاولاً إثارتها:
«لا تخافي. فالفتاة هناك لا تهمني. تغارين!» ـ وكنت أُلـمّحُ الى قريبتي في الأشرفية. لكنها أغمضت عينيها وقالت:
«هذا ليس وقت المزاح. أنت تفهم قصدي.».
«لن يؤذوني. انها ليست زيارتي الأولى. ثم ان ديني يحميني وهـذا هو الصليب!»، وأشرتُ الى صدري. ضربتني على كتفي بمجلةٍ قريبة منها:
«لا تراهن على ذلك. أنتَ سوريّ.».
شعرتُ برجّة خوف في صوتها. غالبتُ هذا واقتربتُ منها وضممتها الـيّ. دفعتني عنها بلطف. أصررتُ وقبّلتها على فمها، فزمّتْهُ وتراجعت بحركة تكشفُ عن تمنّع واحتجاج في آن.
«ألا تخشى على نفسك؟».
«منك أنتِ.».
«مجنون يحكي. كيف؟».

«أحترق بنار حبك.».

«لا تهرّج. أنا جادّة يا نذير.».

«وأنا أيضاً. أتذكرين المرة الأولى؟..». عادت وضربتني بالمجلة، ناظرة الـيّ بجانب عينيها. غير اني تابعت: «لا تضحكي. لماذا أصررت على ابقاء النور؟.. ها؟.. أتخافين العتمة؟. جبَانة.».

قالت ومسحةُ الجديّة في صوتها وعينيها:

«حتى أراك جيداً.».

استغربتُ: «ونحن نمارس الحب!».

أكملت وكأنها وجدت في هذا مناسبة لقول ما لم تقله قبلاً:

«نعم. لأننا نمارس الحب. أريد ان أتأكد من مشاعرك.»

«كيف؟».

لكنها قامت بتغيير الموضوع:

«هذا ليس وقته، فلنعد الى..». قاطعتها هارباً من اصرارها اللحوح:

«مَن قال؟ مسألتنا مسألة مصير.». ثم نهضتُ وأمسكتُ برأسها، وأخذتُ بتمرير يدي على شعرها، ممسكاً بأذنيها، مقترباً بفمي من رقبتها. تفلتت، وراحت تخطرُ في الغرفة.

«أتعرف؟..»، صمتت للحظة ثم أضافت، وكان صوتها يأتيني رائقاً هادئاً غير خالٍ من احتراق داخلي: «نذير. اسمع ما سوف أقوله وأرجوك لا تأخذه على انني عاطفية. طيّب أنا عاطفية. لكنني لا أبالغ. اسمع. اذا حدث لك أي شيء فسأموت. لن أموت طبعاً لكنني..». وكنت أراها تروح وتجيء. كانت نظراتها تتنقلُ بيني وبين النافذة والجدران والصورة التي تجمعنا على الرصيف ومن خلفنا صخرة الروشة. كان التعبير صعباً على ثريا. ضربت على فخذها بكفّيها ثم عادت وجلست على حافة السرير. رأيت بداية بكاء مكبوت يلمع في عينيها. ارتعشَ العسلُ فيهما. انقبضت ووجمت. ورأيتها تقف ثانية أمامي. واجهتني صامتة. لم أجد لحظتها ما ينبغي علـيّ أن أقوله. استدارت نحو النافذة، وسمعتها تقول: «أنت تفهم. أنا لا أعرف كيف أتحدث مثلك. يا سيدي أُميّة. بنت بار. طيّب. لكنني لا أطيق أن أفقدك. أتفهم؟ لن أعود الى الشقق ولن أدع صاحبك الطيّب السافل أن..». سارعتُ بيدي أضعها على فمها من الخلف. حضنتها بذراعي

الأخرى وأخذتها إلـيّ. كانت كفي تخنقُ بقية كلامها. بقينا هكذا الى أن أحسستُ بانتظام تنفسها في باطن كفي. ورحتُ أتلمّسُ رأسها وأهدهدها إذ بدأت ترتجف. استدارت نحوي مغمضة العينين. وذهبنا الى الفراش.

شهية حتى في بكائها. هشّة تكسرها هبّةُ هواء. عجيب. ثريا المجربّة. المرأة التي خبرت الرجال. الحاذقة في تدبير حياتها في مدينة مثل بيروت. في عمل هو هاوية! كيف!. انها تترنح كاشفة عن ضعف مثل فتاة في الثامنة عشر!. أهو العشق حقاً، أم تراها القوة، أم الضعف المختبىء والمستتر والمقنّع وراء المسلكيات اليومية؟! ها هي تكشفُ عن جزء لم أعرفه فيها. تعرّت لي واعتقدتُ انها كاملة تماما. كاملة في عُريها الكاشف لجميع أسرارها. تفاجؤني، فاكتشفُ عمقاً آخر في ثريا. ثريا. ثريا التي كشفت لي عن عجز حيال الذي لم أفهمه.

ترتجفُ. تترنحُ علـيّ وأنا لا أملك، في داخلي، يقين علاقتي بها. أقضـي معهـا ثلاثـة أيام في الأسبوع. لا أخشى كلام الرفاق. فراشها وهي. وجهي المستريح على لحم صدرها. الشوارع والمقاهي غير اني لا اقترب من مكان عملها. لقد حذّرتني. لا تأت الى هناك! قالت. فلم أذهب ولا أُريد. هي الأُميّة، وأنا في مكتب الاعـلام، والمجلة، والتثقيف، واستنفارات الطوارىء الحرجة. هي الـوجبة الدسمة. الوجبة البيتية، ونوم القيلولة في فراشها الى جانبها معها بين أطرافها الضامّة لي المضمومة علـيّ وأمامنا، على زاوية المرآة، باروكة الشعر الاشقر الطويل التي ترتديها فوق وجه جديد ليس وجهها ولا اعرفه ولا اعرفها ان رأيتها ترتديه! كيف تتحول الوجوه الى استعارات نرتديها وقتما نشاء او وقتما يشاؤون؟! انني أعيش مع استعارة. مع قناع ينتظرُ أن أُغادر الفراش كي يسترد دوره الليلي، ويلعبه باتقان العادة السارية في الدم! وانا!.. انا بين الاستعارة والرفاق. هل أعيش التنـاقض؟ هل أشعر به؟.. لا. إن «وصفة» التبرير جاهزة: الوعي. حسناً. ولكن ماذا عني؟ عن مشاعري؟ أأحبها، أم هي مجرد عابرة؟.. أم أنني استغلّ الفرصة واستغلّها في علاقة لا أخسر فيها شيئاً؟!

سألتني في يوم: «أتحبني؟».

فأجبتها بأن قبّلتها في فمها. أطبقت شفاهنا على بعضها، وتبادلنا هرسها وعضّها لزمن نسينا فيه أنفسنا، ثم دفعتني ساحبة شفتها السفلى من فمي، وقالت بوجهها المحتقن، مستثارة:

«أهو الحب القاتل؟».
ضحكتُ. فعادت بعد أن هدأت لتسأل:
«أتحبني؟».
لم أقل كلمة تشفي الغليل. بل فوجئت بحسّ الالتزام يطغى ويخنق الاجابة. انها تعطي وأنا آخذ. تُقبل عليّ دون أن تسألني عن المقابل. ليس من اختلاف بيني وبين خالد الطيّب في علاقته مع المدام. ثريا تسألني كي تتأكد من مشاعري: «أتحبني؟». غير ان المدام لا تسأل لأنها موقنة من الردّ. الردّ الصحيح والحقيقي. ثريا تسألني ولا أُجيب. بماذا أُجيب؟ ليس الحب ما أشعر به معها، ماذا اذن؟.. ماذا؟.

قالت لي، بعد ان انتهينا من مضاجعتنا الأولى، وارتضت عندها ان اطفىء النور:
«كيف وجدتني؟».
ولـمّا لم أُعطها جواباً، إذ كنت أُشعل لي ولها سيجارتين، أضافت:
«هل أسعدتك؟».
فضممتها اليّ، وأحسستُ بعرقها على عريها اللحمي الدافيء وهو يندسّ فيّ. كان دفئاً يشعُّ عليّ، منها، ويتغلغل الى روحي. فسّرتْ ضمي لها جواباً، فرفعت وجهها اليّ. تأملتني في العتمة النافذ اليها نور الشارع. تأملتني طويلا، كانت عيناها تبرقان، وقالت بصوت خنقته بحّة بفعل انفعال متهيّج:
«أنت جميل!».
وسكنتْ إليّ. ظلّت تتأملني طويلاً. تمسحُ على جبيني بأصابعها الدافئة. مرّ زمنٌ ما شعرتُ به إذ أغفيتُ مسحوباً اليها. ربما الى دفئها. الى حضنها الذي أخذني مستريحا قانعاً بي. حضنها الذي اشتهيته، وما كنتُ أعرفه، يوم أن تفجّر الفجر، وتلطخ ندى خوذة رفيقي بتراب الانفجار.

□

أفاق عليها وهي تنشج. جعل مسافة بينهما فرآها تمسح عينيها بظاهر يدها. رأى الكحل ينساحُ على عرشي خدّيها. أفاق تماما. هزّها، فسمعها من خلل

نشيجها:

«لن تذهب. ها؟..». ثم دفنت وجهها عند خاصرته، فأحاط بجسدها المتكوّم عليه. لم يردّ. حبس صوتاً هاتفاً كاللوعة: «نسجنا من غربتنا أرضاً وأسميناها الوطن. نحن الغريبين في مدينة غريبة، ما كان بيدنا أن نفعل؟. لقد غامرت وقامرت في سبيل زاوية حميمة وخسرت. من أجل قضية صرت ارى في حُماتها لصوصها. وأنا لص. نعم. وها أنت تخافين عليّ. تبكين موتي الآجل. لا. لا تخافي فمثلي لا يموت. ستظل خوذتي منداة في كل فجر. لن تتعفّر. لن تغادر مستقرها على الحائط لتذهب الى الخندق مرة اخرى. انتهى. هذا اوان المكاتب والورق والاجازات المقضيّة في فراشك المهيّأ لي أبداً. الدافىء بك أبداً.».

هكذا يزول غيم الهوّة السحيقة. يهدر تيّار الانتقام من الذات. هكذا يُمتَشَقُ السيف من غمده لينغرس في قلب صاحبه. ثم يرتدُّ ليجهز على الحبيبة. أي ضياع؟!. أيُّ خبلٍ؟!. أيُّ تداخل للمقاتل بالقاتل؟!.. للعاشق بالمجنون؟!.. للخائب بالخائن؟!.. للذابح بالمذبوح؟!.

«لن تذهب. أجبني.».

يظلُّ الصراخ يصخبُ في رأسه بذات العنف. يقضُّ مضجعه أنّى كان (لن تدوس يوماً على أرض..)، ويبقى موزعا بين وهم ووهم (مسافراً بين بحر وبحر!). ينقل رأسه ـ هذا المشحون بالكثير ـ من تجويف كتفها الدقيق الى ربوة نهدها الصلب الصغير.

يواصل جريان خواطره في تُربةِ نفسه المتشقّقة، فيقول دون أن تسمعه: «بعثرتُ أحلامي على الموائد. وجرعتها مُرَّة مع فناجين القهوة.».

غريبان.

يقول لها: «لن أذهب. والآن، أخبريني، متى سيقومون بترحيلك؟».

تجيبه: «قال لي الخواجا متري ان علينا نحن المصريّات مغادرة لبنان في آخر الشهر القادم. قال الخواجا متري ان هذا قرار الحكومة.».

سوري ومصرية.

مرفوض مطلوب دمه. وامرأة ينتظرها المطار.

كتب لها، في يوم، بعد ان رحلت، وكان الجرح لـمّا يزل مفتوحاً، غائراً:

(أتذكرين يوم كنا نتسكّع عند فرساي. يوم وقفنا مبهورين تحت

الهوليداي إن. وعندما انهبلنا في مدخل السان شارل الفخم؟. كنت تحثّينني على السير والمضـي بعيداً. كنت تدفعينني للاجتياز. كأنها المنطقة الحرام!. ليست لنا. كنت تقولين. وكنت تبدين مثل التائهة في فوضى الناس والمدينة. تنكسـرُ نظراتك لـمّا تصطدم بما ترين. كنت ترين نفسك صغيرة.

لَفَـظَتْكِ الدنيا كشيء زائد. تغرّبتِ وضيّعتكِ الشوارع وتلقفتكِ شراهة العيون. فتعلّمت الحقد على الأسماء، وكيف تكرهين المدن الملوّنة.).

هكذا كتب.

وهذا ما قرأه لها الآخرون فلم يفهموا. غير انها فهمت. لقد أحبته.

أما في يومياته، فقد دوّن:

(.. ولم يزل عبقها في جلدي. نفّاذاً. لا يبرحه. يملؤه ويفيضُ عليه.)

٢٤ كانون الاول ١٩٧٥

4

## من دفاتر زاهر عيسى النابلسي

سمعت أحدهم يقول عن جماعتنا، (طالب في الكلية)، إنّها جماعة الوسط. لكن جماعتنا يقولون أننا يسار. وان الآخرين يزاودون. تذكّرت أبي عندما قال ان الاسرائيلي لا يفرّق. عندما يضرب يضرب الجميع. وعندما يحتلّ ليس عنده كبير حتى الجَمَل. وان الاسرائيلي يعتبر ان العربي انسان لا يستحق أن يعيش بغض النظر عن دينه او سياسته.

أخبرني أبي أنهم يوم دخلوا نابلس انتشرت دباباتهم في كل الشوارع. لم يفرّقوا بين حارة وحارة. أو بين سكّان المدينة وفلاّحي القرى. قال انه احتلال للفقير وللغني معاً. لابن الشارع وابن الذوات والعائلات الكبيرة.

عندما قلت هذا لخالد الطيّب قال لي (أكمل تصحيح بروفتك قبل ان يأتي عامل المطبعة). رجعت الى البروفة أبحث عن خطأ مطبعي. توقفت عند كلمة (تمرير) اذ لاحظت انها لا تتناسب مع معنى الجملة. انتقلتُ الى الأصل، كانت (تحرير). عرفت انها مقالة الرفيق أبي جعفر رئيس التحرير. انه خطّه الجميل والأنيق. نفس المسافة بين السطور وبين الكلمات. حتى الكلمة المشطوبة والمعدّلة تكون الخربشة أنيقة فوقها. حسدته على خطّه. انها خبرة طويلة لا شك. ولكن كيف اخطأ وكتب الحاء ميمًا!!.

قال لي عمّـي منصور. أبو الحكم. (فرزوك الى مكتب الاعلام). ولم أكن يومها أعرف شيئاً عن الاعلام أو عن المكاتب والكتابة. ولكن هل أعرف الآن؟ قال عمّي منصور الذي هزموه وأبعدوه (ستتعلم). وقال ايضا (الثورة مصنع الرجال).

وهكذا سرتُ في الدرب الواحد. أقطعه من الشقة الى الجامعة. من الجامعة الى المكتب. من المكتب الى المطبعة. الى الشقة. سطور ترقصُ أمامي من كثرة رؤيتي للسطور طوال النهار. وسطور وكلمات وورق ورائحة رصاص مصهور في المطبعة، لا أحبّها. يقولون انها تؤذي وتسبب المرض. تتعب عيناي من البروفات وأشمُّ الحبر الطازج فأجده كريهاً. آخر الليل. أول الفجر. السرير الرائع في الشقة الى حيث أذهب وأرتمي عليه. أرمي عليه تعبي. وقبل أن أنام أتذكر كل شيء.

كانت ساحـة الشهـداء هي أول شيء رأيتـه في بيروت. أول يوم. يوم الوصول. فوجئت. انها ليست كما رسمتها في خيالي. ليست برّاقة وملوّنة. بنايات عتيقـة. شوارع مزدحمـة بالبشر والباصات والسيارات. المنادون يزعقون بأسماء بضـائعهم. أولاد ورجال يبيعون اليانصيب. ضجيج مثل هدير البحر. رأيتُ اعلانات عالية وباهتة. الرأس الكبير. بروس لي. رأيت آرمة خشبية وعليها رسم لوجه عريض خططوا عند ياقة قميصه باللون الأحمر: انتخبوا مرشح كتلة كذا. نسيت اسم الكتلة. رأيتُ خرقة قماش أبيض مثقوبة في أكثر من مكان ترفرف مثل تلك التي كانوا يربطونها في نابلس بين أعمدة النور ليرحّبوا بزائر للمدينة. قرأتُ عليها قريباً افتتاح معرض فاتن؟. . وعلامة سؤال كبيرة. كافتيريا البرج. رأيتُ قنينة سفن أب بحجم نصف طابق.

تلقيتُ دفعةً في ظهري فتلفتُّ خائفاً أن تسقط الحقيبة من يدي. شممتُ في كل الناس رائحة مميّزة. رائحة تشبه رائحة السمك الميّت والفاسد. قد يكون البحرُ قريباً. رائحة البحر. نظرت حولي في الساحةالكبيرة ولم أرَ بحراً. فندق. المحامي. الكاتب بالعدل. زقاق عتيق معتم تتدلى على حيطانه آرمات مرسوم عليها نساء نصف عاريات. نساء لهن أسماء. اسم الزقاق «المتنبي». حفظته. زعيق من موقف سيارات. عاليه. صوفر. بحمدون. طرابلس. أريد الطريق الجديدة. تاكسي. لا بل السرفيس. تذكّرت وصيّة أبي (لا تبذّر. القرش في الزمن الزفت يزهق الروح.). أين الموقف؟

كنت متعباً. تنقلت كثيراً خلال اليومين الماضيين. انه السفر. المحطات الكثيرة. الجسر. عمّان. الرمثا. الحدود. درعا. دمشق. الحدود. المصنع. الحدود. ظهر البيدر. بحمدون. الجبل المرتفع. ورأينا بيروت مثل الخيط في الأسفل وكان البحر في لون أزرق خفيف. كان مثل الجلد المشدود. هبطنا الجبل. أشجار الصنوبر. بيوت بسقوف قرميدية خضراء وحمراء مبنيّة بين صخور الجبل وأشجاره. توقفنا عند مطعم. أكلت عروسة لبنة وعروسة قشطة بالعسل. وشربتُ قنينة بيبسي كولا. دفعت ثمن ذلك ولاحظت ان سائق سيارتنا كان يمازح شباب المطعم وانه لم يدفع مثلنا ثمن ما طلبه من أكل وزجاجة البيرة الصغيرة.

انحدرت السيارة نحو بيروت. أحسستُ بقلبي يخفق وقلت اقتربنا. صمتنا وأخذنا نراقب. محطات البنزين. آجب غاز وإسّو وشلّ. مرسيدسات سوداء. زعيق. رأيت الرجال يمشون وقمصانهم لاصقة بهم. ورأيتُ نساءاً سمراوات بثياب تهفهف.

(البرج). قال السائق. (الحمد لله على السلامة) قال الرجل الجالس عند السائق. لهجته سورية. توقف محرك السيارة. وصلنا إذاً.

(يا الله) قال السوري وخرج. وقف وفَرَد ذراعيه كأنه يتمطّى ثم تناول كيساً بلاستيكياً من الصندوق ومضى. عبر الشارع نحو الجزيرة الفاصلة. وقفتُ على الرصيف ونظرتُ حولي، ورأيتُ السوري يسير عند قاعدة نصب الشهداء.

إذاً ها هي بيروت. فكّرتُ. كانت القناطر تتتابع على الأرصفة ومن خلفها كانت عتمة آخر النهار. فاحت رائحة الفلافل والشاورما. خرق اذنيّ صياح ولد يلوّح بأوراق اليانصيب. شعرتُ بالغربة تنعر قلبي. ناديتُ على سيارة تاكسي. قلتُ له الطريق الجديدة فأدار السائق عدّاد الكيلومترات. فكّرتُ انه لا مجال الآن للتوفير فأنا متعب. والقرش في الزمن الزفت يجب صرفه كي نرتاح. ونسيتُ نصيحة أبي.

لم أنسَ أبي. تذكرته لـمّا سارت بي السيارة في منطقة البسطة إذ شاهدتُ لوحةً ضخمة رُبطتْ وعُلّقتْ بحديد بيتين متقابلين. صورة لجمال عبدالناصر. عليها جملته الشهيرة. الثورة الفلسطينية أطهر ظاهرة أنجبتها الأمة العربية. تذكّرت أبي لأنه كان ناصرياً. عرفته هكذا وعرفت انه كان يخرج في المظاهرات المؤيدة لعبدالناصر. قالت لي أمي انه كان متحمساً وانه رجع مرة من احدى المظاهرات

وقد تمزّق قميصه وان الدم كان على رأسه.

حكت لي أمي عن قصة المظاهرة وكيف رجع أبي بقميصه الملطخ بالدم. قالت انه شلحه ورماه وقال لها هاتي غيره. وقالت أنه أمسك بي وضحك. قبلني وضمّني ثم بكى. بكى وشتم وعاد يضحك ونادى على أختي عوده. قال لها بأن طريق العودة بدأت يا عوده. سنعود الى البلاد. سوف تكبرين أنت وزاهر هناك. هكذا الرجال والّا فلا. قال لها انظري الى عمك جمال. قالت لي أمي انه أشار الى صورة عبدالناصر المعلّقة في صدر البيت. قال بأنه سيكسب الحرب والله. مثل الـ٥٦. لن يغيّـروا مجرى النهر هؤلاء اليهود ما دام بيننا رجل مثل عبدالناصر.

نعم انني أتذكر قصة أمي عن أبي في ذلك اليوم. قالت بأن عمي منصور جاء الى بيتنا. قالت بأنها سمعت أولاً طرقاً قوياً على الباب فخافت هي وأبي. «خفنا أن تكون الشرطة لكن عمك منصور قال من وراء الباب افتحي يا سعدية. وعندما دخل ورأى اباك ورأى الدم والقميص المخزوق على الارض، صرخ، كنت في المظاهرة مش هيك؟ كنت أعرف انك ستخرج في المظاهرة. انت مجنون». لكن ابي، حسب قصة أمي، صرخ في وجهه لن تتحرر دونه. أنتم لا تعرفون غير الكلام والكلام وصّف الحكي. سوف ترى. لن تتحرر دون هذا الرجل. وكان يشير الى صورة عبدالناصر. كانت صورة عبدالناصر اكبر صورة في البيت. اكبر من صورة أبي وأمي وهما عروسان. لا فائدة. لا فائدة. قال عمّي منصور وخرج.

**- من الدفتر الأول -**

□

١٤ نيسان ١٩٧٥

اليوم هو الاثنين. استيقظت متأخرا على غير عادتي. استيقظت متعباً غير انني كنت أشعر بفرح غير عادي. الساعة الواحدة و١٣ دقيقة. الظهر!.. لم يسبق لي ان نمت الى وقت متأخر. لكن هناك هدوء. هدوء في كل البيت. قمت من سريري ومشيت الى الحمام حافياً. عندما نظرتُ في المرآة كي ابدأ بدعك أسناني بالفرشاة تذكّرت. انا لم أنسَ بالطبع لكنني تذكّرت كل ما حدث يوم أمس. تذكّرت وعرفت لماذا أشعر بالفرح.

كانت المرة الأولى التي أستنفرُ فيها مع الشباب.

تذكّرتُ أبي ووصاياه الأخيرة قبل السفر. فحزنت. حزنتُ من أجله. لقد خالفتُ احدى وصاياه وفعلت ما كان يجب أن لا أفعله حسب رأيه. لقد وضعتُ نفسي فريسةً في أيدي اليهود والاحتلال. صرتُ مشبوهاً وقد لا أستطيع العودة الى الضفة. يقولون ان جواسيسهم في بيروت يعرفون كل شيء. اذا كان هذا صحيحاً فمصيبة. سامحني يا أبي فلم أعد قادراً على تنفيذ كل وصاياك.

حزينٌ على ما آل اليه أبي. قد أعذره. لا. ولكن.. لم لا أعذره والزمن يتقلب والحال لا يبقى على حاله. الزمن يتقلّب وينقلبُ علينا من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق. جسور مفتوحة وتصاريح مرور مختومة بنجمة داود الكريهة. مطبوعة بحروف يهوذا الرسمية. داود يأمر بالسفر. داود يسمح بالسفر. داود يمنع السفر. بدأت أفهم كيف يكون الزمن تعباً ثقيلاً وكيف يصير العمر مثل الصمغ الذي يصيدون به الذباب. عمراً مغطّى بالغائط والقمامة. عمراً مهزوماً. صار احتلال. غيّروا مجرى النهر. غيّـروا مجرى النهر وغيّـروك يا أبي. مات قائدك ذو الوجه الكبير والانف الصقري الذي كله عزّة ورجولة كما كنت تقول. لقد تغيّـرت يا أبي ولم تعد أبي الذي حكت لي أمي عنه. مات فيك رجل المظاهرات. ابتعدت عن المشاكل ونصحتني أن أفعل مثلك لأن أبناء الزانية لا يرحمون. قلت لي هذا. قلت هذا ورأيتُ السنين الراكضة تنتزعُ من عينيك لونهما. بهتت عيناك فتلاشى العالم فيهما وتفكك. لم يعد متماسكا كالسابق. صار مقسّمًا الى يهود وعرب الضفة وعرب غزة وعرب الـ٤٨ وعرب مصانع اسرائيل وعرب المقاومة في الداخل وعرب الثورة في الخارج وعرب الثورة على الثورة. وأنت؟ أنت يا أبي ماذا صرت؟. لن أقول. ولكن ماذا صرت أنت تقول؟.. صرت تقول ان للقرش في الزمن الزفت قيمته الكبيرة. وان للحياة رغم طعم التبن فيها أشياء يجب المحافظة عليها. انت يا زاهر. قلت لي. أنت يا زاهر لك الغد وليس لك من الامس سوى العلقم. انسَ. قلت لي انسَ ولتكن لك طريقك. لا تقرب النار فالنار تحرق وأبناء الزانية لا يرحمون. صديقك قرشك في بحر الزفت.

قلت لي ان العالم زفت. وقلت أيضاً (تذهب الى بيروت. تدرس. تنهي جامعتك والى الخليج. لا تعد الى هنا). ولـمّا سألتك مستغرباً منك هذا القول، وما كان يجب أن أستغرب، قلت لي (نعم الخليج.) ورفعت يدك الى وجهك تغطّيه

فرأيتُ أصابعك ترتجف. نعم ترتجف. تغيّـرٌ جديد يا أبي. كنت ترتجف عندما غطّيت وجهك بيدك. سمعتك تقول بصوت مخنوق مكسور ذليل فكدتُ أبكي (ما دام العالم زفتاً فليكن الخليج. هناك أصول الزفت. ليس مهـمّاً اذا اتسخت بزفتهم. نهايتها أن تربح القرش. القرش الذي ستخزقُ به عيون الزمن والعالم. أتسمع؟ قرشك هو صديقك)!.

نعم سمعت. سمعتك يا أبي ولم أصدّق لكنني سمعت سعلتكَ تمرقُ من صدرك فتدمعُ عينيك. أمهلتك وأمهلت نفسي حتى استرجعت نفسك وسمعتك تقول (لا تتردد. عمّـك منصور هناك. قابله. قد تنفع كلماته هذه المرة وقد تؤدي الى فائدة. ولكن لا تمشِ في طريقه. إيّاك فأبناء الزانية أنت تعرف. هاكَ عنوانه في بيروت. الطريق الجديدة. خلف الملعب البلدي. الشارع الثاني. بناية ـ).

مشيتُ في طريق عمي وأمس كان استنفاري الأول مع الرفاق.

قالوا بأن الكتائب هاجموا باصاً في عين الرمانة وقتلوا ثلاثين رجلا كانوا من جماعـة جبهـة الرفض. توترت المنطقة من الفاكهاني حتى اليونسكو. دارت في الشوارع لاندات الدوشكا وصرتُ أرى مدافع الهاون تُنْصَب بين البنايات وخلف كلية الهندسة التي لم ينته بناؤها. أعلنوا استنفاراً أوّلياً وسمعتُ عمي منصور أبا الحَكَم يقـول بأنهم سيردّون وسينتقمـون لضحايا المذبحة. ذهبتُ الى المكتب فأرسلوني مع رفيق الى منطقة الكولا. وهناك تحت الجسر وبين أكياس الاسمنت وأكوام التراب والحديد أمضيت الليل حتى الفجر.

كانت أكياس الاسمنت صلبة مثل الحجر. لقد ترطّبتْ بعد أن أمطرت قليلاً. وكان الهواء يلعب بأطرافها الممزقة التي تناثرت بين أقدامنا، فيصيرُ لحركتها صوت كالخشخشة. تيبّست أصابعي على حديد الكلاشن. أول مرة يكون لي كلاشني الخاص. يمرُّ الهواء جافاً وبارداً ويزمرُ عندنا تحت الجسر. يلعبُ بالأشياء الخفيفة وبشعري وبشبابيك البناية المهجورة هناك التي اقتطع الجسر قسمًا منها عندما بدأوا ببنائه. خفتُ في المرة الأولى عندما سمعت صوت اصطفاقها. لكن رفيقي طمأنني، وقال بأنهم لن يجرأوا على المجيء الى هنا.

حديثُ رفيقي جميل وممتـع. حكـايات جميلة عن دراستـه في يوغسلافيا وأمسيات النبيذ الأحمر في أعراس القرويين. هكذا وصف حفلاتهم. قال انهم كرماء مثل فلاحي بلادنا ويرحبون بنا. وقال أنهم كانوا يندهشون من معرفتنا

للغتهم وتحدثنا بها. وقال بأنهم يحبّون تيتو ويعرفون عبدالناصر ويسمعون بفلسطين. حدّثني عن نشوة الخمر وعن نشوة التعارف عندما تختلطان بنشوة العُرس ويرتفع صخب قرع الأكواب الفخارية ببعضها. يندلقُ النبيذُ المحلّي وتُكرعُ الانخاب السريعة دفعة واحدة. قال لي ان شيبهم كانوا يشربون أكثر من شبابهم، وان شواربهم ولحاهم البيضاء كانت تقطر بالنبيذ فيمسحونها بأكمامهم.

حدّثني عن الخمر عندما تدور بالرؤوس فتدور الدنيا وتحكي العيون لغة أخرى. يذوب الحَرَجُ والتكلّف. ثم قال لي رفيقي بعد هذا، وبدا لي انه غائب عن حالة الاستنفار التي نحن فيها تحت الجسر، وكان صوته خافتاً له رنّة بين الدشم والحديد (لا شيء يبقى على حاله. انا ارى ان الدنيا مثل البرتقالة). ولما سألته كيف، قال (عندما تقشّر البرتقالة تصبحُ شيئاً آخر. كتلة لها حساسية أشد. كتلة جديدة. حسّاسة وشفّافة. تكون قد رأيت كنزها الحقيقي. عصارتها المكنوزة في جوفها الرائع. أما قبل ذلك فهي مجرد برتقالة. برتقالة فقط. لكنك عندما تغوص فيها. تغوص في الدنيا مثل غوصك تحت قشرة البرتقالة؛ فانك ستكتشف لذة الكنز. كنزها. وقتها سوف تُطلق من جوفك صرخة الذئب. سوف يعوي جوعك وسوف تعوي شهوتك للشيء الجديد. ستقول ان هذا ما كنتُ أُريده. هذا الشيء المخبوء هو ما أحتاجه حقاً. تتبدّل الدنيا معك. لا شيء يبقى على حاله يا رفيق.).

ولـمّا سألته عن موضوع دراسته هناك قال بأنه العلوم السياسية. تصوّرْ. قال لي: كانوا يدرّسوننا رأس المال بالكامل. وكان يجب أن ننجح في هذه المادة!

صمتنا قليلاً وسمعنا أصوات انفجارات بعيدة. رأينا من مكاننا تحت الجسر أن الأفق المظلم فوق الملعب البلدي هناك قد غشاه ضوء أصفر متقطّع. دام الضوء البعيد المصحوب بصدى انفجارات عميقة وبعيدة لثوان، ثم هدأ كل شيء، وعاد الظلام.

سمعتُ رفيقي يقول بأنهم يثأرون لباص اليوم، فسألته يفجّرون ماذا؟ فردّ في حزن بأنه لا يعرف. قال يفجّرون أي شيء هناك. وبعد لحظة صمت قال، كأنه اهتدى الى تفسير (انه الغضب. صرخة الذئب. انه اكتشاف الشيء فينا وفي الدنيا!).

قلتُ إنـه الغضب. لم أفهم تماماً ما عناه الرفيق. لكنني أشعر بالفرح. كشفتُ عن أسناني في المرآة ورأيتها لامعة بيضاء ونظيفة.

لم يرجع عمّي منصور حتى الآن. وها أنا أكتب.

**ـ من الدفتر الرابع، النصف الثاني ـ .**

□

رجعتُ الى الشقة وشعرتُ بأنها باردة. باردة وصامتة. حاولتُ أن أنام بعد أن ارتديتُ بيجامتي ولم أستطع. تصوّرتُ أن شيئاً في داخلي يمنعني من النوم. لستُ متأكداً ولكنه ربما الخوف. الشيء الكبير الذي يتحرك في قلبي ويجعله يخفق بشدة ويمنعني من النوم والاسترخاء. أنظرُ الى ساعتي فأجدها ما زالت مُعطّلة، ولست أدري كيف خطر لي السؤال اذا كانت الساعة في يدي هي المعطّلة أم ان الخوف هو الذي يعطّل نومي. وها أنا أتمشّىٰ في الشقة الباردة الصامتة المكتظّة بالكتب التي تركها لي عمّي منصور. وأيضاً ترك لي ساعة المنبّه التي تتكتك هكذا تك تك تك ثم أسمع أزيز الرصاص في الشوارع القريبة ويعود الصمت. أتمشّىٰ وأتمدّد على الكنبة المحيطة بالطاولة في غرفة الجلوس. يدوي انفجار بعيد.

الخوف يمنعني من النوم وأنا وحيد في الشقة التي تركها عمي. أضأتُ النور في الزاوية. الضوء الخفيف. وجلستُ أحدّقُ في بياضه الذي كشف بعض الرفوف وجزءاً من مُلصق شمّوط. فكّرتُ في عمّي الذي لم يرجع، وسألت نفسي عن البلد الذي هو فيه الآن. لا أحد يعرف مكانه الآن. وأنا لا أعرف أيضاً. أنا لم أعرف عمّي تمام المعرفة. لم أعرفه بما فيه الكفاية كما يقولون أو كما يبدو لي أن خالد الطيّب ونذير الحلبيّ يعرفانه.

ولكن عمّي لم يكن صريحاً معي ولم يقل لي كل شيء. حتى تلك الليلة عندما رجعتُ الى الشقة ووجدتهم عندنا، وعشائي معه في الروشة. انه لم يقل لي ماذا كانوا يقولون أو يخططون. وهكذا شعرتُ انني أمام سؤال لا أعرفُ اجابته. أنا زاهر عيسى النابلسي الذي جئتُ من الضفة الغربية الى بيروت ثم توزعت بين دروسِ الجامعة وعمي والشقة ومكتب الاعلام والنظريات التي ينقضُ بها عمي نظريات أُخرى ويسجّلها عل الكتب التي يسهرُ كثيراً عليها.

أنـا زاهر النابلسي الذي يصحح البروفات، ويشرب الشاي مع حارس المكتب ومـع خالد الطيّب ونذير الحلبي في المكتب. خالد الذي يسأل ويُجيب

ويسأل. ونذير الذي يُجيب ويشتم ثم يهزأ ساخراً من كل شيء، ثم يعود ليقول (ولو)!. يكتب ويشطب ما كتبه ويعاود الكتابة صارخاً على العم زيدان «دورة قهوة للشباب على حسابي».

أرقبهما أريد أن أفهمهما. لا يتحدثان عن ماضيهما ويثرثران أحياناً عن الحاضر، ويتشاجران ثم يتصالحان. عرفت ان نذيراً يحب مصريّة تشتغل في بار. وسمعت عن خالد بأنه على علاقة مع واحدة أرملة. لم أسألهما ولكنني مندهش.

سمعتهما في يوم يتناقشان حول مقالة للصحفي اللبناني الشهير. استغربت كيف يقرآن مقالته في جريدته اليمينية التي كثيراً ما كانا يهاجمانها. ومع هذا هي الأولى التي يتصفحونها في المكاتب وعند رئيس التحرير. أراها على طاولة أبي النجوم مسؤول الأرشيف وحتى في مكتب الرفيق مُشرف الاعلام. مرة سألت عمي أبا الحَكَم قبل أن يسافر عن سر هذا، فقال (مقالة الرجل تفسير لطريقة أميركا في التفكير. ان قراءته مفيدة.). هكذا قال. وعندما طرحت السؤال على نذير الحلبي أجابني بسخريته الهازئة (انه مثل التفتيش عن ابرة وسط كوم تبن.).

لم أفهم جواب الحلبي تماماً، الاّ أنني شعرت فيه بشيء من الضرب بعرض الحائط. انه يعارض الجانب التبريري الذي يفسرون به اقبالهم على المقالة، ولكن هل هو تبرير؟. هل هو تبرير عند أبي الحكم ورئيس التحرير ومشرف الاعلام وهذين الرفيقين الحلبيّ والطيّب؟!!. هل هو تبرير واحد عندهم كلهم رغم وجود الاختلاف بينهم؟.

ليس هناك توافق بين الجميع. وأنا بينهم مثل الذي عليه أن يأخذ موقفاً ولا يعرف. مثل الذي عليه أن يفكك كتلة من الخيوط المتشابكة الصعبة فلا يستطيع، ثم يكتشف انه صار هو خيطاً داخلاً في خيوط الكتلة.

أنا لم أُخلق لأكون في وضع مثل هذا. أنا لا أحتمل أن أظل ضائعاً، ويجب أن يكون لي موقف من الأشياء التي حولي.

قال لي أبي أن القرش الأبيض سلاحي في زمن الزفت.

آه يا أبي لو تعرف عمق التناقض الذي غرسته فيّ. لو تعرف ظلمك لي عندما قلت وصاياك. كيف أفهم حكايات أمي وأفهمك عندما كنت توصيني بالخليج؟!. حكايات أمي عنك في المظاهرات، وهتافاتك بحياة عبدالناصر، والعودة، والتحرير، وقميصك الملطّخ بدمك. والصورة المعلّقة في صدر البيت.

متى أنزلتها عن الحائط يا أبي؟ أين خبأتها؟ هل أتلفتها؟ هل كان هذا قبل الاحتلال أم بعده؟ وكيف حوّلت عبدالناصر الى حكمة القرش في زمن الزفت!!.

ليتك تعرف أي تناقض عشته في بيروت عندما دخلتها. لو أنك تأتي ليوم الى هنا وترى. ترى وتعيش وتستمع إلى حديث الناس. انهم يتكلمون بلغة لا تعرفها. بلغة لم تعلّمني ايّاها. وها أنا أحاول فكّ رموزها لكي أفهم. حتى عمي منصور يتكلّم معي وأنا لا أفهم تماماً لغته. تصوّر. عمّي. أخوك. ولم أفهمه ولا أفهم جيداً لماذا صار بعيداً وغاب. غيّبوه بكل احترام وتبجيل! الحلبيّ والطيّب يعرفان لكنهما لا يقولان. وعداني بالشرح عندما نبحرُ الى الاسكندرية. لكنني لن أنتظر منهما الكثير. لن يقولا لي أكثر مما أشعرُ به عن المسألة. كان عمّي يريد الأفضل بينما يفضّل الآخرون ما لا يريده عمّي. هذه هي المسألة. وهذا يكفيني الآن.

أذكرُ وجه عمي منصور أبي الحكم وأذكرُ حديثه عندما خرجنا من الشقة تلك الليلة. كنّا نسير على الرصيف المواجه للبحر، وكانت مقاهي الروشة مُضاءة ومن بعيد، عند الحمّام العسكري، كان دولاب مدينة الملاهي يدور. اني أتذكّر كلماته وكأنه يقولها الآن. قال (انهم معذورون. يعتقدون بأنهم الصواب. لكنني على حق.). دُهشت إذ كيف يكون هذا التناقض، لكنني بقيتُ صامتاً أنتظره يُكمل كلامه. لم يفعل ورأيته ينظرُ الى ضوء بعيد في البحر المعتم. مرّ وقتٌ وعبر رجلٌ يبيع الكعك المحمّص، وجاء زوجان ركض أولادهما أمامهما، وتشبثوا جميعاً بسور الكورنيش. رأيتُ شاباً يشتري طوقاً من الياسمين ويعلّقه حول رقبة صديقته. تابعتهما ورأيتُ كيف تزيّن صدرها المفسّر الناهض. ضحكت لمرأى الشاب وهو ينحني أمامها ليقبّل الياسمين في حركة بطيئة. أطلقت الفتاة ضحكة قصيرة ورمتْ برأسها الى الوراء، فطار شعرها بينما كانت أصابعها تمسك برأس صديقها وتنكشُ له شعره.

حسدتهُ وشعرتُ بالغيرة إذ أني لم أعرف فتاة في بيروت غير المومس. وسمعت صوت عمي يقول لي (عليك أن تراقب وأن تدرس!)، فصحوتُ وأحسستُ بيده على كتفي. قال (لن تتعلم الاّ من المراقبة والعيش. استفد من كل هذا. حتى أبيك. ان أباك دَرْسٌ وحده. الكتب لا تنفع اذا كانت بعيدة عن الحياة. الكتب خلاصة تجارب الآخرين. استفد منها. ولكن لا تنس انك تعيش حياتك. خذ

خلاصتها فهي الأكثر قرباً منك. أنا لن أتحدث عن نفسي. عليك أنت أن ترى وأن تفهم.).

ولـمّا لم أعلّق، ضحـك عمي قائلاً (محاضرة. أليس كذلك.). فابتسمتُ وهززتُ رأسي غير موافق. لكنه واصل حديثه (أرجو أن لا أكون مضجراً مثل أساتذة الجامعة.).

ضحكنا نحن الاثنين، ومشينا على الكورنيش بين الناس، باتجاه مطعم اسمه عروس البحر.

**ـ من الدفتر الخامس ـ.**

# 5

المرفأ رؤوسٌ تتزاحم. تموج. أصوات تعلو إلى السماء. والشمسُ، على عرشها في قيظ الظهيرة، لونها بلا لون!.

هاك السفينـة. ها قد وصلت أخيراً. شقّت الأُفق ومثلتْ أمام العيون الملهوفة. انها هي ما كانوا ينتظرون. يُبلّلها ماء البحر. تبخّره الشمس. يظلُّ صدأ جسمها المعدني عارياً، مكشوفاً للعيون.

على مبعدة من السفينة طوف حديدي هائل. ليس قريباً من المرفأ قرب السفينة. بعيداً عن رمل الشاطيء. صُورْ تعاينُ الطوف. تُخمّن هويته وتنتظر أن يصدر ما يفصح عنه. أهو قطعة حربية كما اجتهد نذير الحلبيّ؟.

يسقط من الطوف جسم صغير فيحتجُّ البحر.

تعتكرُ العيون بالدهشة.

يلفظُ أجساماً أُخرى. وأخرى. فيواصلُ البحرُ احتجاجه، لكنه لا يقوى على ابتلاع الحديد السابح.

تطفو الدبابات على وجه الماء. تنفثُ من مؤخراتها دخاناً أسود. يتبدد سريعاً إذ يمتصه البحر الذي أرخى ظهره لرتل الدبابات التي تنشد اليابسة.

تشيـرُ بعض الأصابع الى أولى الدبابات التي ارتقت الشاطىء. استقبلتها خمس لاندات عسكرية. تلك المنصوب على ظهورها رشاشات الدوشكا.

غضّ خالد الطيّب. الشمس لا ترحم. يُنبيء المشهد عن فوضى قبل اعتلاء الجميع ظهر السفينة. الطيّب أحدهم. زاهر النابلسي الى جانبه. أما نذير

الحلبي فليس موجوداً. اختفى حين بلغ السفر بدايته الحقيقية.

وردت برقية لاسلكية عاجلة من القيادة. قالت البرقية، التي استقبلها الرفيق علاء، ان على الحلبيّ العودة، فبيروت تطلبه. فقط. لا تفسير آخر.

وقف على الشاطيء ليودّعهم. نظر في عينيّ الطيّب. تبسّم الأخير. فردّ عليه ببسمته المرّة، الساخرة، لكنه غالبها وطلع صوته ممتزجاً ببهجة انتزعها انتزاعاً: «مُهمة بدلاً من مُهمة. سيّان. الوطن يطلب. الوطن يأخذ. أليس كذلك؟». ثم فجّر مخزون نفسه، فخرجت ضحكته تمزع البلاهة الثقيلة التي خيّمت.

رنا الطيّب الى زاهر. التقط الحلبيّ الاشارة، فتدارك الضحكة، وعلّق مقترباً من زاهر الصامت: «سيعلّمك البحر الكثير.».

وكانت الجموع المندفعة نحو قوارب التحميل الصغيرة، المهتاجة إذ تحقق الرسو، تهللُ كلما دنت القوارب من خاصرة السفينة.

وأضاف نذير الحلبيّ: «سيتكفّل الرفيق خالد بالتفسير.».

ولـمّا رأى في زاهر امتداداً في الصمت الحائر، لَكَمَهُ في بطنه مداعباً:

«تذكرني كلما استعصى عليك سؤال. سيقوم طيفي بالاجابة. ستنجح يا زاهر.».

كان خالد الطيّب يُكمل ظليهما على الرمل الملتهب. ثلاثة ظلال تتلاصق. ولدت حالة صمت بينهم. ربض ثقلٌ لا يُطاق. يتفلّت الحلبيّ:

«لا تنصتْ كثيراً الى خالد. انه يبالغ في رؤية الأخطاء. لكنه رفيق لا ضرر منه إن عرفت ذلك.».

ضحك خالد ثم ابتلع ضحكته. لم يدر ماذا يقول. استرق النظر الى رفيقه. لم يجد جملة ترسم ما يضطرم في أعماقه. واصل صمته، الاّ ان الحلبيّ لم يرحمه:

«أتريدني أن أبلغ المدام رسالة؟».

هزّ الطيّب رأسه.

«ولا كلمة؟.. كلمة حب؟». وضحك.

لم يهزّ خالد الطيّب رأسه هذه المرة. بخيل عليها حتى في الكلمات. وفكّر ان كان الحلبي سيكلّفهُ بنقل شيء الى ثريا. ثريا التي يتحرّقُ الى رؤيتها هناك. لكنه ابتلع ظمأه بصمت متكبر. ستر تشققه وشهوته لها، بينما راح الحلبيّ يضربُ

في المهمات الصعبة. ويعود. وتساءل الطيّب هذه اللحظة: «هل سيعود من هذه المهمة؟». ونظر الى ظل رفيقه على الرمل.

آن أوان الاستفادة من ماضيه العسكري. كثيرون هم الذين بمقدورهم الكتابة. المجلة تستطيع الاستغناء عنه. الاعلام الثوري. الفعل الثوري هو المطلوب. الوطن يطلب. الوطن يأخذ. ونذير الحلبيّ بعيد عن حلب. ذاك الوطن الصغير. تتربصُ به حقول ألغام كالمصائد. لا يقترب منها، فتنأى حلب في المدى، وتغور في قلبه أكثر. تشتعل ثريا كالجمرة، فيمتدُّ الليل في صحراء روحه محروقاً بالأرق.

اعتاد أن يقول عنها: «أين الثرى من ثريا؟!.». فيضحك خالد الطيّب، ويتلقف القول نكتة تستوجب الاسترسال. ويسأله: «تكسر المألوف؟.. يا لقوة الحب!». يكون الحسدُ ينهشه. يلتقط الحلبيّ الكرة ويطلقها باتجاه رفيقه: «الحب ثورة. تكسيربا صاحبي. ماذا أقول؟.. أنت لن تفهم، فأمثالك لا يحبّون!».

يطلع صوت نذير الحلبيّ من جديد:

«خالد. تمتّع باجازتك جيداً. لا تنس النساء. انهنّ ملائكة الجسد والروح. فلتنزل الرحمة عليك وعليّ. تذكرني في ملكوتك فالعمر فرصة..».

لم يقل الطيّب ان العمر فرصة ماذا؟ لم يسأل الحلبيّ عن جدواه. انتظره ان يُكمل. توقّع أن يرميه بواحدة من وخزاته الساخرة. وصدقَ في توقعه، إذ قال الحلبيّ:

«العمر فرصتكم أنتم..»، فجاراهُ الطيّب:

«نحن الذين لا نُحب. أليس كذلك؟».

«لا تغضب. تعرف انني أحبك. ولكنك لست هي. انها..».

وهوى في الصمت.

رأى الطيّب ومضة الحريق في عيني الحلبيّ، فاستغلّها، وقال ملمّحاً الى ثريا:

«وأنت؟ الا تريد شيئاً من هناك؟».

«لا شيء يا صديقي.». ثم بعد لحظة من الصمت أخرج ورقة من جيبه: «هاك عنوانها اذا احتجت الى شيء. وانت أيضاً يا زاهر.».

كان وجهه يبحرُ في صفحة الماء المترهلة. فكّر انه بذلك إنما يغامر باشعال

فتيل خيانة ما. «فليكن»: استطرد في تفكيره: «لن يحدث ما هو خارج عن إرادة الاثنين!».

ورأى نورسين يحلّقان باتجاه نقطة بعيدة في منحنى المرفأ.

□

حين اختفت ذراع نذير الحلبيّ، إذ خطفها عجاج العربة العسكرية المنطلقة الى بيروت، أدار خالد الطيّب وجهه ناحية البحر.

يمم صوب رصيف المرفأ.

زاهر الى جواره.

القارب الأخير.

أما رتلُ الدبابات، على يمينها، فلقد استقام على الطريق باتجاه بيروت.

نذير بن باسيل سمعان الحلبيّ، وأواخر تشرين ثاني.

مهماته البعيدة عن المكتب. عن صبرا والفاكهاني وأبو شاكر. المهمات التي أعادته الى طبيعة يكرهها. أو التي أعادت تلك الطبيعة اليه. المهمات التي أيقظت فيه غرائز ظنّ انه فقدها الى الأبد.

التسلل، واكتشاف كميات الأسلحة المهربة الى الطرف الآخر. تحديد أنواعها والسفن التي تحملها. أما مصادرها؛ فان علمه المسبق يقطع دابر التخمين، أو فرض الاحتمالات.

ولكن، كيف يدّعي هذا العلم؟. يسخرُ في قرارة نفسه، ويكمل كتابة تقريره: «أما فيما يتعلق بالجهات التي قامت بتدبير عملية جمع الاسلحة وتأمين شحنها وتوصيلها، فلا شك في أن اسرائيل من ورائها.». هكذا كتب.

ينسلُّ في الليل المفضوح بضباب الفجر القادم. يخلّف وراء ظهره أضواء «جونيه» المختبئة في الظلمة وسواد البحر. يدخلُ في أزقّة «الزيتونة» المطفأة. يمرُّ بالملاهي المهجورة. أسوارها الواطئة طرّزها الرصاص، وعرائشها الصيفية

تكسّرت ومالت على بعضها. شجرة أصابتها قذيفة فارتمى جسمها الأعلى على طاولات منسيّة، فمادت بها وغطّتها بالأغصان المتفحّمة. تهدأ ضربات قلبه الواجف. يعود الى مستقرّه في الدفء الداخلي. يظهرُ له جسم على حين غرّة. تكون يده معبّأة بالمسدس! ينبت الخوف ويتسلقه. تخرج امرأة من باب مظلم وتكشف له عن نفسها. اذن: هي المومس المجنونة!. حدّث نفسه. المومس التي وصفها المقاتلون الذين مرّوا من هنا وعادوا. قالوا انها فقدت عقلها بعد ان أحرقوا زقاق السوق العمومي. يقتربُ منها، فتعترضه وعلى وجهها بسمة بلهاء. تنثرُ ذراعيها فينزلقُ قميصها الممزق عن كتفيها العظميين مثل خشبة مشجب، وينفتح معرّياً نهدين جافين متهدلين. يبتعدُ عن طريقها ويقفز فوق كنبة برزت نوابضها واحترق قماشها. لكنها تطلق من على يساره، وقد ركضت معه، ضحكة هستيرية، وزعقت فيه: بليرة! بليرةالواحد! بليرة!. أسرعت خطواته المسموعة على الاسفلت الذي حرثته القذائف. يكون الفجر قد اتضح. يسمع بكاؤها مثل نباح كلب أُصيب!.

يحدس: «ربما يخالفني الرفاق رأيي حول الجهة المسؤولة. لهم رأيهم ولي يقيني المستند الى.. الى، الى ماذا؟. لكنهم يلغمون البلد. الآخرون. وأنا عدوّهم.».

ويتذكّر ما قالته له السيدة الستينية، بعد أن كثرت زياراته للاشرفية أيام الآحاد:

«وما دخلك أنت؟».

«البلد بلدي ايضا.». قال.

«أنت مثل أبيك.»، علّقت السيدة. «تقول كلاماً كبيراً. تثق بهم. نحن لسنا هم. وهم ليسوا نحن. عليك أن تفهم هذا.» ثم رقّت نبرتها، وبانَ شيء من حنان في عينيها. «ستخسر شبابك ولن تربح الذي تريده. صدّقني. عُدْ الى حلب. عُدْ.».

وعندها، وجدَ درسَ أبيه يخرجُ متدفقاً، وكأنه يحفظه عن ظهر غيب. فقال لها ما لم تكن تعرفه من قبل. كأنما يُلقّن تلميذاً صفحة جديدة من تاريخ العالم. قال لها معتداً ـ إذ انه سيتفوّه بالقول الفصل:

«أتعرفين ماذا قال فارس الخوري؟».

صمتت، فأتاحتْ له الفرصة كمن يستعد للاجهاز على عدو يراه وحده:
«قال انه يطلب الحماية من المسلمين ويرفضها من فرنسا!».
فسألته والشك يغلّفُ نبرتها:
«أين ومتى قال هذا الكلام؟».
«في دمشق. في الجامع الأموي. أيام الانتداب الفرنسي.».
«لا أصدّق!».
بانَ الأسفُ في صوتها، لكنها، رغم علمها بأنه لا يكذب، رفعت الجدار بينهما:
«انك مثل أبيك. تماماً كأبيك!».
فضحك لتعليقها المعادي؛ اذ بات مدركاً انها تبالغ وتتحرش لاشاعة المداعبة الممزوجة بالجدّ. الاّ انه تذكر نظراتها المعتزّة لابن شقيقتها، في زيّه العسكري الخاص بميليشيا النمور، وكم كان الشاب متباهياً، يافعاً، لا يسعه العالم. قال:
«أخافُ على الفتى. جوزيف.».
فنظرت اليه، وكان في عينيها اضطراب، ولم تنبس.

□

أصلُ إلى بوابة البناية. أدلفُ الى العتمة. أمدُّ أصبعي وأضغط على يسار المصعد. ألتقط لهاثي. أتذكر، فألوم نسياني الذاكرة التي نهشتها الحرب. الكهرباء مقطوعة. شقتها في الرابع. الدرجات اكثر من سبعين. وثريا فوق.
يتراقص وجهها بين الضوء وخيالاته حولها. الشمعة أمامها. رأس الزنجية الأسود يذوب. يسحُّ الشمع على عنقها الطويل. ثريا أمامي. ألوم نفسي من جديد. وحدها مع الخوف. وحدها. تنتظرني. لا. لم أرجع محمولاً يا حبيبة. ها أنا بلحمي ودمي. ترفع رأسها الصغير نحوي. يُخيّل لي ان دمعة تقف على ثنية شفتها العليا. أتخيّل؟!.. تبكي. ثريا تبكي بصمت. يتدلى رأسها فتستقر ذقنها فوق صدرها. مقهورة! أهرعُ اليها بخطوتين عجولتين، فيخرج الصليب الذهبي - هدية أمي في عيد ميلادي العشرين - وتتأرجح سلسلته من رقبتي. في حلقي

جفاف. أصيرُ لصقها. ألهث. لكنني، محاولاً أن أكون هادئاً ما أستطيع، أرفعُ ذقنها بأصابعي، وأرشفُ الدمعة من على شفتها العليا. آخذها بفمي.

أعرف من أين جاء الدمع.

وأعرف كيف يكون الصمت.

ولكنني لم أحص كم مضى من الوقت.

أذكر انها قالت: «لا تقل شيئاً. أبعد مسدسك اللعين. لا أريد أن أراه. أكرهه. دعني أتأملك. لا تتحرك.».

فتحت فمي أريد أن أعتذر، الاّ ان كفّها الصغيرة سارعت لتغطي فمي. انفرشت أصابعها على وجهي تتحسسه. فأحسست بالحرارة تقوم في رأسي وتسري. حرارة لا توصف. ثم سمعتها تهمس: «اسكت. لا تتكلم. أريد أن استريح!».

لم أحص كم من الوقت مرّ علينا هكذا، غير أني بدأتُ فأسلستْ لي قيادها وانسفحت على صدري بشفتيها. وأخذت تتثنى حول جسدي وتستجيب لتشنجات أصابعي. كانت تموج كلما ضغطتها اليّ فيما يتخذ جسمها أشكالا من الاندفاع والتراجع. وسمعتها بين التراخي والانكماش تئن: ربي!..، ثم تطلق جملها القصيرة تخاطبني: «ارفق بي إني لك وأريدك. أعطيك نفسي. كلي. هل هذا يكفي؟. يكفي؟. أحس اني أطير. خذني. خذني. نعم. تدقّ حوضي وأنا معك. أحسُّ بنبضك فيّ..».

وكنت أحسُّ بأصابع قدميها تتناوبان الرفسات، فدنوت بوجهي هابطاً عليها راشفاً ما لا يرشفُ. أغمغم بما لا أفهم. وعدتُ لأسمعها: «ربي!..». كانت تئنُّ من وجعٍ يلهبها وكأنها هي مرّتها الأولى. دمها الأول. ثمة الوجع الوالج لكهف مفجّراً ينابيع مسرّة. وارتفع صوتها مثل صرخة مكبوتة: «ربيّ!»، وامتدّ ساحباً الياء كالآه.

□

حين صارت الشقة خلواً. والأركان جدباً وصحراء. كتب يقول لها:

«وتأتين:

تمدّين يدك. هي اليد نفسها. وتخرجينني من متاهتي. تنظرين اليّ بعتب.

تبتسمـين كأمي، فأخـالُ نفسي طفلاً يشاكس. ثم تبدأين بغسلي. أتنقل بين أطرافك المتحركة على هواك. كما هي مشيئتك. تسكبين علـيّ الماء الفاتر وتغسلينني.

وأنا ساكن.

تسوّينني في حضنك الحبيب. الطيّب. يظللني نهداك الصغيران. فأرفع رأسي اليهما. تنسكبُ دمعة وتختلطُ بقطرات عرقك. أجهدتك.

. . أسكرُ، فيشفُّ العالم فيك. وأتوحدُ بكما.

تمددين جسمك الأسمر على طوله. تستريحُ لدونته. يتجدد اهتياجي. أهـربُ اليك أكثـر. تأخذينني فيندفعُ دمك في شراييني. أحبك. يهجمُ المطار بضجيجه الشرس. يجهض الحلم. تصير المسافات رحلة أوجاع.

تأتين.

أتأتين؟ . .

خوفي أن يبقى العالم مجهضاً.

سآتيك أنا».

رحّب به مسؤول مكتب الشاطىء في صيدا. قال له ان السفر لا ينفعه كما يبدو. ضحك نذير الحلبيّ وقال: «يبدو ذلك.».

وبعد أن استراح قليلاً، استقل سيارة لاندروفر كانت قد أتت بمهمة من بيروت.

خرجا من شوارع صيدا، ثم أخذت سيارتهما تسرع على الطريق بين صفيّ البساتين. وبعد دقائق، قبل السيجارة التي قدّمها له السائق، وسأله:

«كيف بيروت؟».

«تغلي.».

«والزعتر؟».

«جرت عدة محاولات لاقتحامه. لم ينجحوا!».

فسأله من جديد.

«ومن طرفنا؟».

ردّ السائق بعد أن زفر، دون أن ينظر باتجاه نذير الحلبيّ:

«نحاول. .»، ثم خفف من سرعته على طريق بيروت، وكان البحر على يساره:

«إن وضعهم صعب يا رفيق. حاولت بعض القوات الخاصة لكنها لم تنجح. أوصلوا للمخيّم صناديق ذخائر وبعض المواد التموينية.».

«كيف؟».

«عن طريق مونتفردي».

فعلّق نذير الحلبيّ:

«التفاف شاق وطويل.».

«نعم. والمصيبة في الجيش الذي جاء لحل المشاكل. انه يتفرّج!».

سخر الحلبيّ:

«يا خوفي من الذي يتفرّج!».

عندها علتْ نبرة السائق:

«اللعنة. كأنهم ليسوا عرباً. هؤلاء المسيحيين هناك!».

أكّد نذير قائلا:

«نعم يا رفيق. هؤلاء ليسوا عرباً. ليسوا شيئاً الاّ مصالحهم وعُقدهم.».

«نعم. سمعت أنهم يريدون رأس الحكيم جورج.».

فضحك نذير الحلبيّ. لكن السائق علّق بعفوية:

«باطل. نحن لسنا مثلهم. سنحرقهم قبل أن يلمسوه!».

قرعَ جرسٌ في رأس نذير الحلبي ولم يسمعه سواه. تذكّر حبل الجرسية الغليظ وهو يتدلى من الأجراس الكبيرة في الأعلى. حلب. الكنيسة. تراءى له ان ثمة عقدة في هذا الحبل المائل من الماضي. فأخذ يعمل أصابعه في أليافه الخشنة. يحاول تفكيكها. تغيم عيناه فيما تتوثب أشواق في قلبه وتتحفز. تتداح الصور وتنسفح على مدى البصيرة. تصير التفاصيل حكايات تكبر وتتحول الى حقائق عميقة ناغلة في التحقق. تنبض الحكايات مثلما القلب الكبير الحافل بعديد غيرها. ومع كل نبضة تهرع حكاية وتحضر. تكشف عن توهجها القديم المطمور تحت غبار الأيام. تتعرى كاملة في نصاعة تفتن صاحبها، وتجرّه الى تتبع نفسه فيها.

نذير الصغير الذي تصطفيه أمه يوم الأحد. تدخله حجرتها دافئاً. تخطفه من لهوه مع أبيه. تملّس على شعره النظيف إثر حمّام الليل. تطيّب خاطره إن هي حرمته لذة اللعب، وتقول: «اليوم عيد الفصح يا نذير. حصة الله. هل تفهم؟». فيهزّ رأسه ويترك لها جسده تعرّيه من المنامة، وتكسوه ثياب المناسبة.

«أمير صغير والله!». تعلّق الأم جاعلة بينهما مسافة. ترمقه، وتضعه في مواجهة مرآة الخزانة العالية حتى السقف. يدرس قامته بعينين طفلتين: شعر مفروق. قميص أبيض ما تزال ثنية الطي واضحة فيه. بنطال كحلي اللون، قصير يكشف ركبتيه. حذاء أسود لامع خرج من كل فردة منه جورب أبيض. كل جورب ثنته الأم ثنية واحدة عند نهايته. ينظر نذير الصغير الى نفسه في المرآة. يرى امه خلفه ترقبه وفي أعماقها شعور يشعل فرحاً. تقترب الساعة من الموعد. يزحف الوقت باتجاه الجرس الضخم. تتنهد الأم، وتقول: «أمير صغير والله!».

تدوي قرعات الجرس في فضاء المدينة الصباحي. تبرق عينا نذير، ويركض خارجاً من حجرة أمه. أبوه في كمال زيّه لهذه المناسبة. الثياب النظيفة الخارجة من عتمة الخزانة. رائحة «النفتالين» تتضوّع رغم تعريض القماش للشمس. الذقن حليقة معطّرة. ياقتا القميص منشاتان مغلقتان، ومن تلاقيهما تدلّت ربطة العنق ايّاها: الخمرية اللامعة من كثرة الكي، والمنتهية بزاوية مثلثة كأنها رأس سهم.

اقترب من ابيه الجالس لصق الخوان الخشبي القديم. رأى الكتب ذاتها: الكتاب المقدس في حجره، وجزء من «الاغاني» على حافة الخوان، الى جانب المذياع الكهربائي. تنبّه الأب الى نذير الصغير، فأغلق الكتاب ودعاه اليه. «ها. مستعد؟ .». هزّ الصغير رأسه. «وأمك؟ . .»، وهتف بسخريته الحلوة: «انها آخر الواصلين دائما.». وتابع: «هيا يا روز. سيغضب الخوري اذا دخلت الكنيسة وسط القدّاس. سوف يقطع العظة من أجلك! .».

الكتاب المقدس، وكتب الأغاني، ورسائل الجاحظ، والامتاع والمؤانسة.

الايمان، وعشق الأدب.

الوقار الداخلي، والسخرية الحلوة.

هذا هو أبي.

وعائلتنا: أمي روز. المتديّنة عن بساطة. الطيبة. الزوجة والأم. المرأة التي تنسى نفسها، فتشارك عبدالوهاب أغانيه. هي من المطبخ، والمغنّي من المذياع.

روز وباسيل. ومن بعدهما يصرّ الأب على أن يكون لي اسم عربي: نذير. نذير باسيل سمعان الحلبي. الاسم الكامل.

ندلف، نحن الثلاثة، من بوابة الكنيسة. الفصح ورائحة الشمع والبخور. السقف مرتفع شاهق تتوهج في علوه أنوار الثريات النحاسية الثقيلة. سجّادة حمراء تبدأ من المدخل، وتمتد على الممر الطويل بين صفيّ المقاعد الخشبية، ثم تنتهي عند العتبة الرخامية لواجهة الهيكل. سكونٌ وصمت ثقيلان لا يقطعهما سوى جلجلة المباخر الفضية، وأصوات الرهبان الآتية من عمق المكان، محدثة صدى منغمّاً. المصلوب على صليبه الذهبي في الوسط، وأيقونات العذراء والقدّيسين تتوزع الجدار الأمامي لصدر الكنيسة على شكل حدوة حصان. تنعكسُ على زجاجها اشتعالات الشموع المغروسة في رمل أجران ناهضة على قوائم من نحاس تنتهي فوق الارض الرخامية بمخالب أسود. تحجب الستارة المخملية الحمراء ما في داخل الهيكل عن أنظار المصلّين. في الجوانب ألوان وألوان. نوافذ طولية مقنطرة، مكسوّة بزجاج معشّق بشرائح صفراء وزرقاء داكنة وخضراء وحمراء ارجوانية. تأخذ النوافذ من الشمس ألواناً تغزو بها أرجاء الكنيسة. تتعربش على قامات الناس ورؤوسهم، وتنسفحُ فوق المقاعد الخشبية والأرض المبلطة بالرخام، وتتقاطع على الأعمدة المرمرية الذاهبة الى السقف عبر كُتل الثريات الضخمة.

عبقَ البخور وأرسلَ رائحته، فتضبب الهواء بشفيف دخانه المعطّر العتيق. تماهت الأفواه الضارعة بألوان ليست ألوانها؛ فاصطبغت الابتهالات والأصوات بسحر روحاني محصور في المكان والزمان، وليس هو من هذا العالم وهذا الوقت.

يحدث انقطاع وسكوت. يحلّ الصمت. يبرز القدّيس المحارب على صهوة جواده الأبيض. يتلوّى التنّين تحت سنابك الجواد العفي فاغراً شدقه الأحمر لطعنة الحربة النافذة فيه بحذق. ثمة شيء غير حقيقي. القديس جاورجيوس يحاربُ بوجهٍ رائق مبتسم وكأنه يحلم. يبدو الجوادُ أكبر من التنّين. ويظهرُ التنّين الـمُجنّح مهزوماً بحكمٍ قَدَري مُسبق. مستسلمًا له.

أمي الى جانبي، وعيناها على قطب الكنيسة. نحو الهيكل حيث الرهبان والشمّاسان يجلجلان بالمباخر الفضيّة بدراية وخبرة بحيث لا يمسّان ثوبيهما الأسودين الفضفاضين. أمي لا ترى ما أرى. يبتسم لي القديس جاورجيوس. وجهه حالم، وذراعه مرفوعة بالحربة المتوّجة بصليب صغير. ثمة ما هو غير حقيقي.

كنت صغيراً، وكنت أرى أن القديس الفارس ليس مقنعاً مثلما هم فرسان الأفلام الملوّنة. وجوههم صارمة قوية خيولهم تزبد وتصهل وتتعرّق وتنفثُ بخاراً من خطومها والسيوف تقطع رقاباً تقاوم والأجساد تتفلت من طعنات الحراب والسهول البعيدة الخضراء شاسعة تولّد أفواجاً من الفرسان المهاجمين والمشاة المدججين بالنبال والرماح والأمواج تلفظ غزاة بحريين يرسون على الشاطىء بشعور مهوّشة طويلة وثياب من فروِ الماعز وخوذات من قرون الأبقار ودروع من خشب الغابات مكسوّة بجلود الحيوان والخمر الغزير المندلق على الذقون والصدور وأعناق النساء الراقصات المتلويات الهائجات تحت آباط المحاربين الصارخين، عوراتهن تتكشفُ لا تسترها رقاع الماعز سمراوات شقراوات بيضاوات يرقصن يصرخن من شيء هو الهياج الراعف في دمهن الدم المراق من الحيوان والانسان الملقى لريح الخسارة وغيوم العقبان والنسور الوافدة على رقعة المعركة منجذبة الى رائحة الدم والموت التي لا يعرف احد لماذا ولماذا الرقص الهمجيّ والنساء المنسفحات مع انسفاح الدم الأحمر والخمر الأحمر أحمر كل شيء أحمر بين النهود ينسكب ومن الأعناق والصدور يشخب رخيصاً مثل كل شيء والليل يخيّم والمخيّم يُضاء بالمشاعلِ وعيون الخيل الواقفة على التخوم تلتمع عضلات تكويناتها البدائية النازفة عرقاً في بحر نزف الأصوات الصائحة والأجساد الواغلة في الأجساد واللحم المنهوش بين اصطفاق الأسنان والضروس والأغاني في سعيرها المبحوح والخناجر وقرعات الطبول والأذرع المتداخلة مع الدخان وقراب الخمر الجلدية والأفخاذ النسائية الملساء العَرِقة أعمدة تتراخىٰ وتهوي فوق عشب ندي مغطّىٰ بورق أصفر يخشخش أذبلته شموس السهول وأسقطته الريح فكان كاسياً لأرض لا تشبع من ظلمة الليالي او ترتوي من نور النهارات والتنّين غاف عليها فيها بداخلها عند قلبها على مشارف السواحل يضربُ بذيله فيكون إعصار يخفقُ بجناحيه الشيطانيين فيكون رعد يقصفُ ويجلدُ الكون جلداً يتململُ فيكونُ سفائن مدججة بغزاةٍ جُدد وسيوف ودروع ورماح ونساء يُشهرن عشقهن المتوحش البدائي المميت وخمور وشبق لا يعرف رواء وشغف أعمى لا يُبصر نهاية ونار ونور ونهار وانهيار وانهار الشيء في الشيء على الأشياء مثلما البحر الماء الزَبَدُ الملحُ القيعانُ التي تجيشُ بملايين الملايين من المجهولات يطفو على الأرض الغافية الغافلة فيوقظها ويوقظُ الحلم النبوءة المتخفّية في باطن الكف.

لمسةٌ رهيفة تُنبتُ رعشةً لمدةٍ أولى في قلب نذير الصغير. يمنحُ نفسهُ للقول، وأذنيه للصوت، وروحه للكلمات التي تسري فيه كلحن نغل وظلّ لا يبرح: «أراك مسافراً بين بحرٍ وبحر ولن تدوس يوماً على أرض!».

ملعون هو الذي ترك كفّه لامرأة تدثّرت بالسواد تقرأ فيه طالعه.

ملعـون هو الذي أباح للصوت المتنبىء أن يُطلق قوته تضرب في روحه عميقاً. تهتف في قلبه. ترسم له المسار. تحدد له المصير.

ليس هذا هو الجرم. ليست هذه اللعنة. إذ كيف بمقدور الصغير أن يدرك أن مساره المرسوم في كفّه يحتمل تعدد التأويلات؟. وأن مصيره الـمُزاح عنه النقاب مستورٌ بأغلفة الخرافة مع ترجح الاحتمالات في آن؟

قالت له التي تدثـرت بالسـواد، من خلل التـماع سنّهـا الذهبية: أراك مسافراً.. ولن تدوس يوماً على أرض!.

وما كان من مبررٍ لأن يكذّب القول.

وما كان من سببٍ لأن تكذب خطوط الكفّ.

فأعطى نفسه لسحر الكشف راضياً. لا فكاك من المقدّر. هذا واقع لا مهـرب منه الاّ في الولوج فيه عبر سراديبه ومخارجه المؤدية الى أزقّة، ومخيمات، وطـرقات، وشوارع صغيرة، ومكاتب، ومعسكرات، ورفاق، وامرأة شهية من سلالة الفاكهة المحرّمة. التفاحة التي تطرد من الجنة ـ الجسد المسمّى «ثريا» ـ التجربة على جبل لا يُدعى «قرنطل»، بل لذة تريقُ النار في قلب يتشكّك. قلب يُسحل بين ما يريده وما يصعب عليه أن يذوب فيه!.

هي المدن المقسّمة وثريا مراياها.

المدن المقسّمة: قسم يعيش فيه. وقسم محظور عليه دخوله!

قسم يمنحه امتداده وتأشيرة دخول مقاهيه، وقاعاته، وشوارعه، وأرصفة بحره، ثم تلك الحجرة المضاءة بشح الانارة: هناك حيث المرأة الصغيرة ـ الفاكهة المحرّمة، التي لعينيها لغة الاعتراف بالذنب. لماذا؟. ـ تلك قصة طويلة.

وقسم اعطاه الاذن بأن يدخله يوم الأحد من كل اسبوع. لا خوف عليه ولا خشية الوقوع في إسار الطائفة الأخرى. انه واحد منها. هويته تشهد بهذا. ووجهه لا يدّعي العكس. اللهجة. انها اللهجة فقط. اللهجة المكروهة، والتي ما إن يسمعوها هناك، حتى تموج بحار حقدهم. يبدأون بالارغاء والازباد وإشهار

الأسلحة المخبأة لمناسبات مثل هذه: سوري في الحي الشرقي!.

.. غير أن الوقت لم يطفح كفاية حتى تُقام المتاريس والحواجز. فالبدايات لم تكن قد استكملت شروطها. دامت بيروت واحدة لا تنفصل، أو تنقسم، في وجه العابرين الى حربها التي لم ترتدِ لباسها المموه بعد.

قال له أبوه: زرْ بيت عمك هناك. في الأشرفية. قد لا تستريح لهم. انهم مختلفون. الاّ ان الواجب وقرابة الدم يفرضان عليك الابقاء على صلة الرحم.

وذهب.

6

كان أول الخارجين من غرفهم.

فتح الباب، أخرج رأسه من فرجته، ونادى على صبيٍّ أسمر:

«فنجان قهوة وسط. من فضلك.».

«حاضر يا بيه.».

وقبل أن يغيب الصبيّ عن نظره في آخر الممر، نادى عليه إذ تذكر:

«والجريدة. الجورنال.».

فالتفت الصبيّ بعينين تلمعان، وسأله:

«الاهرام ام الجمهورية؟».

«الاثنتان.».

وأغلق الباب ليكمل ارتداء ثيابه.

كان قد حلق ذقنه التي طالت خلال الأيام الأخيرة. شطف وجهه، وتناول زجاجة الأفتر شيف خضراء اللون. سكب قليلاً في كفّيه، ومسح بهما وجهه ورقبته. شعر بانتعاش. تذكر المدام عندما قدّمتها له قبل شهرين. كانت علبتها ملفوفة بورق هدايا أخضر مذهّب، ومربوطة بشريط ناعم. «كل سنة وأنت سالم.». قالت له. فتساءل كم بقي عليه أن يعيش، وشكرها. «لا يكفي». قالت له. وأخذته الى صدرها، وقبّلته على شفتيه. «عليك أن تتذكرني كل يوم. الا تحلق ذقنك كل يوم؟». وضحكت.

رفع عينيه عن صورته في المرآة، وتوجّه الى لوحة محمود سعيد. حدّق في المرأة المتقدمة ذات الثوب الأحمر. تملّى ملامحها خلف شفافية الخمار، وقال في نفسه انها ثريا التي أُريد.

عاد، وأخرج ورقة من حقيبة يده الصغيرة. بسطها أمام عينيه وقرأ اسم الشارع: الخطيب. والمنطقة: الدقي. والعمارة. ثم تأكد من رقم هاتف الجيران في السطر الأخير.

قال نذير الحلبيّ، قبل أن ينتقل هو وزاهر الى القارب الذي سيحملهما الى السفينة: «هذا هو عنوانها ان احتجتم الى شيء. انها خدومة.». فنظر لحظتها نحو الأعلى، وكانت زرقة خفيفة تلوّن الفضاء. وفكّر: **لا شيء يعلو هامتي غير السماء!**.

أجل. إنها خدومة. فكّر خالد الطيّب، وزررَ صدر قميصه النظيف. سوّى خصر بنطاله بتمهل. جلس على طرف السرير، وأخذ بانتعال حذائه ببطء واحتراس. فكّر: «هذا التورّم اللعين!»، ونظر صوب حذائه الآخر، فرأى كيف تحولت حوافه الى جلد قاس وجارح من أثر ماء البحر المالح. «هذا هو السبب. سأرميه مع القمامة». نهض يجرّب ضغط الحذاء على قدميه. مشى خطوتين صوب سلة بلاستيكية. اقترب متألماً بعض الشيء من المغسلة، وألقى بفردتي الحذاء في السلة تحتها. صدر صوت ارتطامهما مثل حجر.

سمع طرقاً على الباب. دخل الصبيّ الأسمر.

«صباح الخير يا بيه!».

ناوله نصف جنيه، وجلس على السرير بالقرب من الطاولة الصغيرة. رشف من كوب الماء أولاً. كان فاتراً. ثم أخذ بيده فنجان القهوة. تسلّلت الى حلقه حدّتها الساخنة. رشف رشفة ثانية وأشعل سيجارة قبل ان يبدأ بتصفّح الجريدتين. بحث عن العناوين المتعلقة بلبنان. الخبر الرئيسي الثاني. تل الزعتر! . مرّت كلمات العنوان الحمراء أمام عينيه مثل سراب. أعاد القراءة محاولاً أن يفهم ما هو خلف الكلمات. تساءل: «هل سقط فعلاً!». لم يقرأ التفاصيل. جعل الجرُيدة تسقط من بين أصابعه على الأرض، وتنتثر أوراقها عند حذائه وتحت السرير. ومع اصطفافها رنّت في أُذنيه جملة العجوز القديمة: «أنت لا تنفع.». كم مضى على هذا؟. «.. هل ستغادرها في الوقت المناسب ايضاً؟». خمس سنوات وأكثر.

كانت النافذة تواجهه عندما رفع عينيه والكلمات الحمراء ما زالت تتراقص أمامهما. السماء زرقاء وشيء من هواء بحري يعبر اليه. لم يمرّ طائر أو عصفور. ظلّت النافذة خالية الاّ من زرقتها المسطّحة.

خرج من الغرفة وتوجه، ماراً في الرواق الضيّق، نحو حاجز الاستقبال. قابله الموظف بوجه باسم.

«هل استيقظ زميلي؟».

«لم يخرج من غرفته.».

تريّث قليلاً قبل أن يقول:

«أُريد مخابرة القاهرة. ممكن؟».

«طبعاً. هل لديك الرقم؟».

ناوله الورقة التي أخذها من نذير. ذهب موظف الاستقبال الى ركن وراء الحاجز. أدار قرص الهاتف. أشعل خالد الطيّب سيجارة جديدة من السيجارة التي كان يدخّنها. انتظر بعض الوقت، ثم رأى الرجل يشير له. دلفَ الى ركن الهاتف، وتناول السماعة.

«جئتُ من بيروت. أُريد أن أتحدّث مع الأخت ثريا.. جارتكم. لو سمحت.».

وبعد لحظات سمع الصوت على الطرف الآخر:

«مَن؟ نذير؟».

صمتَ إذ تأكد انها ثريا. في صوتها لهفة راعشة. قال:

«أنا خالد. نذير في بيروت.».

«كيف هو؟ لماذا لم يأتِ معك؟».

«سيلحق بي بعد أيام.».

ثم ساد صمت قصير قبل أن يسمعها:

«أين أنت؟».

«في الاسكندرية. سوف أجيء اليوم الى القاهرة.».

«أهلاً وسهلاً.».

«هل أراك؟..»، ثم قال دون تفكير: «أحملُ لك شيئاً من نذير.».

ترددت قبل أن يتناهى صوتها متراجعاً:

«أهلاً وسهلاً. سأنتظرك غداً.».

وأقفلت الحوار من طرفها.

لم ينتظر خالد الطيّب أن يفيق زاهر. هبط الى الشارع حاملاً الجريدة الأخرى التي لم يتصفحها. أخذ سيارة تاكسي، وقال للسائق:

«الى البحر.».

«الشاطبي أم المتنزّه؟».

«كما تريد.».

وأعطىٰ لعينيه فرصة التفرّج على صباح الاسكندرية الصيفيّ. عبرت السيارة شوارع ضيّقة قبل أن تسلك سبيلها على الطريق العريضة الموازية للشاطىء. لم يرَ الطيّب نسوة الملاءات الثلاث. ظلّت بنات بحري في غرفته على الحائط. كان البحر فسيحاً ينكشفُ له بمائه الأزرق الضارب الى البياض. سمعَ أُغنية صارخة من مذياع السائق: (سلامتها أم حسن م العين وم الحسد). كان الصوت مبحوحاً وممطوطاً. فسأله عن هذا المغني. فقال: «أحمد عدويّة.». علّق الطيّب: «جديد؟»، فأجابه الآخر: «يا سلام! ولد جَدَع!». هزّ الطيّب رأسه، وقدّم للسائق سيجارة.

جاءه النادل بعد أن اتخذ لنفسه جلسة عند افريز الكازينو المشرف على البحر. طلب زجاجة بيرة، وأكد على ان تكون باردة. كان الهواء يهبّ عليه وينعشه. دارت عيناه وجالتا على الشاطىء القريب. رأى المظلات تُزرع في الرمل، وتنفرش بألوانها الحمراء والزرقاء بحيث استطاع تبيّن الشعارات: كوكا كولا. روثمانس. مارلبورو. ورأى بعض الفتيات يتراكضن بصعوبة نحو الماء. سمراوات بلباس البحر البرتقالي والأبيض والأزرق والمشجّر. فردَ جريدته على الطاولة، لكنه واصل تحديقه بالمشهد البعيد القريب. لم يرَ نسوة محمود سعيد بالملاءات والخمار الشفيف. لم يرَ بائع العرق سوس ولا الفلّاح بلاستهِ وابنه وحماره. لم يرَ الصورة المنشورة على الصفحة الأولى التي كانت تتطاير مع الهواء. لم يرَ في الصورة الرجال رافعي الأذرع ووجوههم نحو الحائط. لم يرَ المسلحين المصوّبين بنادقهم الطويلة الى ظهور الرجال. ولم يرَ، كذلك، صلبانهم الكبيرة على صدورهم المكشوفة والعارية. كان يرى في الأجساد السمراء ثريا التي كلّمها قبل نصف ساعة. قالت له أهلاً وسهلاً. رحّبت به. لكنه كذب عليها. لم يكن يحمل لها من نذير أي

شيء. قالت له انها ستراه وقال بأنه سيكون في القاهرة اليوم. هزّ رأسه بلا وعي. نعم سيكون اليوم في القاهرة. لن يتباطأ. سيذهب. سيترك زاهراً في الاسكندرية لامتحاناته، وسيستقل القطار أو السيارة الى القاهرة. تساءل كمن يفيق على سؤالٍ دفين مؤجل: «هل ستستقبلني حقاً؟»، وتذكر ليلة أن ذهب اليها في مكان عملها. تلك كانت سـرّه الذي لم يبح به لأحد.

عبّ من فم زجاجة البيرة، وملأ عينيه بأجساد الشاطىء.

بيروت: ١٩٧٥

تركتُ ورائي مركز الأبحاث واتجهتُ نحو الشارع المؤدي الى بداية نزلة كاراكاس. لستُ أذكر الوقت، غير اني تقصّدتُ أن أذهب مبكراً قبل أن يزدحم المكان بالروّاد. انها المرة الأولى. المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى حيث تعمل. ستُفاجأ، وربما ـ لست أدري. انها تعرف انني أُريدها. أُريدها؟!. ليست الكلمة المناسبة. ليست العبارة الصحيحة. لكنها صديقة نذير بن الحلبيّ. هل ترضى؟. ولم لا ترضىٰ؟. هي تسهر مع الجميع. جميع الذين يأتونها الى البار. عملها. وظيفتها. مورد رزقها أن تجالسهم وأن تستمع وأن تنصت الى هذياناتهم وألعابهم المكشوفة. هكذا قال لي نذير عندما سألته في يوم عن ثريا. كان يتحدث بصرامة ومرارة. رأيته هكذا. لكنني رأيتُ في عينيه صراعاً عميقاً كأنه يدور بين قوتين تتجاذبانه من الداخل. فسألته لماذا هي؟. لم يُجب. فكّر قليلاً، وقال لماذا المدام؟.

لماذا هي؟. سألتُ نفسي، وكنتُ أعرف الجواب. لأنها هي. لأنها ثريا التي لا تقوم عوائق تمنعني عنها. لأنها التي استطاعت النفاذ الى الحلبيّ رغم هشاشتها. أجل انها هشة فلماذا يحفل بها هذا النذير الأحمق؟! كيف استطاعت أن تقنعه بنفسها؟ أن يرضى بها؟. سأرى الآن.

دلفتُ الى المكان. كان صامتاً، معتمًا، الاّ من اضاءة حمراء نائسة توزّعت فوق الجدران الواطئة، وحاجز المشرب، والطاولات. شعرتُ بغرابة ما رغم انها ليست المرة الأولى التي أرتادُ فيها أمكنة كهذه. كل شيء صامت. الوقتُ ما زال مبكراً. ورجل سمين يتقدم نحوي.

«أهلاً بالأستاذ.».

ابتسمتُ له وتقدمتُ صوب الحاجز الخالي من أحد. لم أرَ ثريا. ارتقيتُ مقعداً مرتفعاً، واتكأتُ بمرفقيّ، ناظراً في الغبشة الحمراء أمامي. رأيتُ على الحائط المكسوّ بالخشب زجاجات الويسكي والجن ومشروبات أخرى. كانت مصفوفة بانتظام في خاناتها وعلى أرففها. تحرك الرجل السمين واختفى للحظات وراء الحائط. عاد هاشّاً، وقال:

«دقيقة أستاذ. دقيقة ونخدمك. أهلاً أهلاً!».

وعاود التحرّك حولي فاركاً يديه ببعضهما كأنه يغسلهما. ثم خطا نحو الباب. فتحه وأغلقه. مشى بين الطاولات بخطواته القصيرة. لمحتُ صلعته وقد انعكست عليها الاضاءة الحمراء. كان عصبياً يروح ويجيء. وفجأة، بسط ذراعيه أمام بطنه الكبير، وهتف:

«برافو يا لولو. أمّوره! برافو.».

تطلّعتُ ناحية الجهة التي توجّه اليها، فرأيتُ ثريا تتقدم من وراء الحائط. انها هي. ثريا. نعم. غير انها بدت مختلفة. صارت أمامي خلف الحاجز. شعرها ليس بشعرها. حدّقتُ بها مأخوذاً. شيطانة خرجت من جهنم. لقد صبغتها الاضاءة الحمراء بلونٍ أخفى سمرتها، واضاء عينيها في الوقت نفسه. عينيها المفتشتين عن شيء في وجهي. دُهِشَتْ. نعم دُهِشَتْ. لكنها لم تقلْ ما يدلُّ على أنها تعرّفت عليّ!

«مساء الخير.».

سمعتها تقول لي. ثم اقتربت أكثر، وقالت مباشرة بنبرة قاطعة:

«ماذا يشرب الأستاذ؟».

تلعثمتُ، إذ فجعني انها لم تتعرّف عليّ. لا. متأكّد أنها عرفتني وتتظاهر بعكس هذا. تتجاهلني!. أجل، إنها تتجاهلني. لكنني سأريها كيف ستنتهي الأمور معي. كيف سأنهيها.

«ويسكي. كأس ويسكي مع الثلج فقط.». قلت. ثم أتبعتُ بعد أن رأيتها تستدير الى صفوف الزجاجات: «مع الثلج يا ثريا.». غير انها لم تُبدِ ما يوحي بأنها سمعت كلماتي الأخيرة. بتُّ واثقاً من انها تتعمّد إخفاء معرفتها بي. ربما من أجل الخواجا صاحب البار. استدرتُ فلم أره. كان الباب يتراقص. يبدو

أنه ذهب. وضعت كأس الويسكي أمامي، وأسندت ظهرها الى أرفف المشروب. كانت تتطلّعُ اليّ بعينين لوّنهما الضوء الأحمر. مددتُ لها يدي بعلبة السجائر فاعتذرتْ:

«شكراً. أنا لا أُغيّر سجائري.».

ابتلعتُ الاشارة؛ إذ أعرف ان سجائري هي سجائرها وسجائر نذير، وسحبتُ يدي متراجعاً:

«كما تشائين. أتشربين معي يا ثريا؟».

«اسمي لولو يا أُستاذ.».

خرجتُ على هدوئي، وقلتُ لها بعد أن رأيتُ منها اصراراً على التجاهل:

«كفّي عن هذا التمثيل السخيف.». لكنها قاطعتني كأنها لم تسمع:

«أشربُ ويسكي. هل توافق؟».

جاريتها: «أُوافق. ولم لا أُوافق؟». وكنتُ أحسُّ بتصاعد توتري وبالدم يفور في رأسي. خطتْ صوبي خطوة قصيرة، وزرعت نظرتها في عينيّ:

«نحن نقدم الويسكي لأنفسنا مغشوشاً بسعر الصافي مضاعفاً.».

التقطتُ جُملتها، وبادرتُ متحرّشاً:

«أهذه عادتكم؟».

«ماذا؟». ـ متظاهرة بعدم الفهم.

«تغشّون الزبائن.».

ضحكتْ. ضحكتْ بطريقةٍ عبثيةٍ، وبصوتٍ وضعت فيه غنجاً ليس منها. ثم قالت وهي تصبُّ لنفسها من زجاجة أُخرى:

«أتريد الحق؟».

«الحق يا . . لولو.».

مالت على الحاجز، وصار وجهها قريباً. ابتسمت وهي تنقرُ كأسي بطرف أظفرها. وقالت:

«برافو أُستاذ. ها قد حفظت اسمي.».

أمسكتُ بأصابعها، وجذبتها، دافعاً برأسي الى وجهها. لكنها نفرت كالملسوعة، وهتفت بصوتٍ خفيض:

«أُستاذ! أأنت مريض؟!».

كنتُ قد نهضتُ مستعيناً بحافة الحاجز. رأيتُ وجهها يختلطُ مع صور جوني ووكر والحصان الأبيض والكلبين على الزجاجات اللامعة بسائلها الذهبي اللون. رأيتها تصالب ذراعيها فوق صدرها نصف العاري. كانت هادئة ما تزال. جلستُ كابتاً غيظي، وسمعتها تقول:

«الحق أن لولو لا تغش يا . . أُستاذ!».

وعلّقت محاولاً بداية أخرى:

«أبداً؟».

«أبداً والله العظيم يا أُستاذ.». وكان صوتها تتخلّله نبرة السخر.

«ولو يا لولو!».

رشفتْ من كأسها، وزمّتْ فمها، غير انها عادت لابتسامتها الساخرة:

«أنت لا تعرفني يا أُستاذ.».

«لولو.»، قلتُ مُبدياً لها أن لعبة التخفّي المكشوفة باتت سخيفة. ومددتُ ذراعي نحوها قائلاً: «تعالي. كفّي عن تمثيلك فلن يعرف نذير.».

وهنا رأيتها تندفع نحو الحاجز وتلتصقُ به. كان وجهها قد تغيّـرتْ ملامحه على نحوٍ مفاجيء. صغرتْ عيناها وضاقتا. ما اهتمت بارتجاج صدرها نصف العاري واصطدامه بخشب الحاجز أمام عينيّ. أمسكتْ بياقتي وفحّت في وجهي:

«اسمعْ. أُستاذ.». ورأيتُ التماعة تومضُ في عينيها مثل قطة، بينما كانت أصابعها ترتجفُ وهي تشدُّ قميصـي من ياقته. ظلّت هكذا تتفرّسُ بي دون أن أعي كيف أتصـرّف. أُخِذتُ بردّة فعلها. ثم أفلتت أصابعها الياقة، وتراجعت.

بقيتُ مشدوهاً أنظرُ اليها دون كلام. مرّت دقيقة قبل ان اسمعها تقول:

«اذهبْ!».

وكان صدرها الصغير شبه العاري ينتفضُ على ايقاع تنفسها اللاهث. كانت تصوّبُ عينيها الى الأسفل هذه المرّة. وكانت تطرقُ بحذائها على أرضية المكان الخشبية.

حدّقتُ بها رغمًا عني وعن الإهانة التي ألحقتها بنفسي. ووجدتني أتمتمُ:

«أنا آسف.».

ولـمّا لم تُجب، وظلّت تطرقُ الأرض بحذائها؛ قلتُ مهدّئاً من تأثرها الغريب:

«ثريا أنا آسف.».
«اذهبْ!».
قمتُ وهبطتُ الى الأرض من مقعدي المرتفع. سرتُ نحو الباب. ثم سمعتها عندما صرتُ قريباً منه:
«الحساب يا أستاذ..!».
التفتُّ صوبها، فرأيتها تنظرُ اليّ بعدائية صريحة:
«لم تدفع الحساب.».

□

خرجتُ وكانت أنوار بناية يعقوبيان كالمنائر.
وما إن ابتعدتُ بضع خطوات حتى سمعتُ، وراء ظهري، اصطفاق الباب كالفرقعة.

□

ليس من ذكرى كتلك التي تضرب في القلب فتوجعه. تسكن الرأس وتلغي ما عداها وتقصيه. هبّةٌ كالرغبة تهبط من عليائها وتستقرُّ على مساحة الجسد. تخدش الركود. ذكرى ورغبة. توقٌ واشتهاء. مستحيلٌ وكافة الاحتمالات.
ثنائية عجيبة تعصف بخالد الطيّب. تزوبع هياجاً في داخله. جلده دبق، ومسامه تفرزُ فيتعرّق ويتعرّق. يكرع من فم زجاجة البيرة. ما عادت بيروت قريبة. استقرت عند الطرف الآخر من هذا البحر. الأبيض المتوسط. خلف الحواجز، وخارج مدار الطيّب الجديد: حضرتْ الاسكندرية.
«فليكنْ الوداعُ خاطفاً.».
تلعبُ المفردة بخبث، فتلهبُ حريقاً شبَّ في روحه. «فليكن خاطفاً. فليكنْ كالخطّاف يُشنق ويدّلي؛ ولأكن مثل الذبيحة. مَن ذبحَ مَن؟ أي ذبح؟ هل أستطيع التحديد؟ أأقدر أن أواجه، وجهاً لوجه تلك التي خلّفت لها ظهري. لم أقلْ كلمة رغم رؤيتي للاحتراق في عينيها. لم أتفوّه بشيء. لم أنبس حتى بتبرير

متهافت. لا جدوى ـ قلتُ لنفسي، وأبقيتُ الصمت حاجزاً بيني وبين المدام.

كيف أكسر الحاجز وأنفذ اليها!

ماذا عساها أن تردّ لو أسمعتها لا جدواي؟. أنا أعرف. ستكتفي بالصمت، واذا قالت فستقول: تبقى أنت. لن تتغير!. وربما لا تقول أبداً. لكنها إن قالت، سأجار في وجهها: نعم. أبقى أنا. ألا تدركين أن الوقت فات؟

ستقول: لا جدوى منك.

وسوف ترخي ذراعيها على طولها، فتبدو مثل طائر تعب.

نعم سأجأر: ألا تفهمين! لن نقدر أن نغيّر ما فات.

لكنها لم تقل، وأنا لم أجأر. فاتني القطار. فاتني الزمن. فاتني الرفاق والأصدقاء. فاتني مروان هناك، وبقيتُ وحدي أعزل في عزلتي. وحدي، وعاد نذير الحلبيّ الى بيروت. انقطع الحوار وانتهت المساجلات.

□

«ها القارب الأخير يقترب. يتماوج. تنخسفُ روحي كالشمس، وتغورُ في حلكة يسودها فحيح المخاوف، والاحساس بالخجل.

أهربُ؟

ربما.

اذن: لماذا الخجل!

يرنو زاهر الى القارب المقترب. أرى في وجهه سقوط أشياء تتماهى. مقبل هو على السير في تيهٍ طويل. أأحدّثه عن عمه أبي الحكم؟ انه يأمل بذلك. ولكن، ماذا أقول؟ لو لم يعيدوا نذير. هو القادر على الافصاح.

أرى في وجهه اركاناً كثيرة تتهاوى. أركاناً تخصّني. نعم. انها تمثلُ لي كالشواخص. تنهض وتقف. تحرجني كي أراها وأحدّقُ بها. لا تترك نفسها تتهاوى قبل أن أشهد. لا تدعني أدير لها ظهري قبل أن تأفل. أفلت شمسي والنهار ما زال قبل الظهيرة. هيا اذن. ناولني يدك، يا زاهر، لأساعدك على ارتقاء القارب. هيّا. لنتمم مشوارنا الى السفينة. هيّا اسرع. اني أسمع دوي الجحيم يقنبل المدى وما خلف المدى، ولا أرى منجاة الاّ السفينة. بيروت بعيدة لا تراها عيناي. غاب

نذير فيها. غابت المدام. غابت هي في المدى الذي مزقته زلازل الأحمر والقنابل. وصور الآن تبتعد. صور تبتعد أيضاً.

أراها صغيرة مفردة مستفردة بالبحر الآمن. تسكنُ اليه في آخر وضوح النهار، لحظة هجعتها، وتستقبل هدير اندغام زبده برملها الناعم.».

ها هي، وها هو يتأملها تتمايل خلفه بينما يلتفت لاوياً رقبته. يصعد متسلقا الدرجات الهابطة على جانب السفينة. نظر الى أعلى، رأى عجوزاً أعجزها ثقلها. كانت تلهث. سمع الأصوات تشجّعها، لكنها بدأت تنتفض وأخذت ركبتاها بالارتجاف والتراقص. قال كلاماً مشجّعاً فتجرأت، وقالت دون أن تلتفت اليه: «ادفعني كي أصعد. أنا مثل أمك.». تحرّج في بادىء الأمر، غير أنه استجاب لطلبها. فرش كفّيه تحت عجيزتها ـ رخوة كانت ـ وبدأ بدفعها الى أعلى.

ارتقى حافة السفينة. التقط أنفاسه ودار البحر في رأسه. تيقّظ على مَن ينادي باسمه:

«خالد الطيّب؟».

رفع عينيه، فكان رجل الميليشيا عند الحافة. قدم على السفينة، وقدمٌ كأنما تغوصُ في قلبه.

«نعم! هو أنا!»، هتف في داخله. ورأى جواز سفره في يد الرجل. لم يرَ حدوداً أو حواجز أو مخافر شرطة، الّا انه دهمه مثيل شعوره حين ودّع العاصمة قبل خمس سنوات. خالد الطيّب. تعال! زعقوا عليه. وكان قد أُسقط في يده. تماماً مثلما أسقط في يده يوم عرف ان كل شيء انتهى. انتهى، وقال مع مَن قالوا: هي مرحلة انتهت وأخرى ستبدأ. لم يلحظ وقتها، أو يتبادر الى ذهنه، ان ذاك لم يكن أكثر من مقولة. تخريج جاهز لا يدري كيف جاءهم، وكيف نضجَ حدّ الاقناع.

على حدود البّر نادوا على اسمه فاستجاب كنابض شالوا عنه ثقلاً ما. سمع اسمه فكان كالذي يحطّ على قلبه ثِقلٌ ما. في القلب تماماً. يا للقلب، هذه الأيام، ما أغلاه! هو الهدف. طاخ! ـ رصاصة أو أكثر. ويتفتتُ في نزف الدم. هو الهدف. يا للقلب ما أرخصه!. انه مطلوب دائماً. في البّر زعقوا باسمه. وها هُم، على البحر، ينادون عليه أيضاً.

«خالد الطيّب.». قال رجل الميليشيا الذي وزّع قدميه. واحدة على ظهر

السفينة. وواحدة في قلب الطيّب.

«التصريح. تصريح القائد العام!». قال الرجل. لم يفهم خالد الطيّب. لم يفهم الأمرين. كيف على هذا البحر يسمع ما سمع!.. وكيف يكون التصريح!.. وممن؟!.

«حصار الزعتر يا رفيق. التعبئة عامة. المغادرة بتصريح من القائد العام!».

وتذكّر خالد الطيّب ملهوجاً: «هذا تصريح المكتب. أنا في اجازة.». وأخرج الورقة من محفظة يده الصغيرة. تفرّس بها رجل الميليشيا. قلّبها. قلّب شفتيه. وأعادها اليه.

«حسنٌ. اهنأ باجازتك!».

ونطقت عيناه بما هو مختلف.

□

يصل اليه صخب البحر مع ريح البحر مخنوقاً. يزدردُ شيئاً كالغصّة. كالحسرة. أو كجملة ناقصة تأبى أن تهادن لتسقط دون بيان نعي. يختنقُ البحرُ في سمع خالد الطيّب. يُلجم.

ينبشُ في داخله عن مقدرة ما. لا يجد. هذا ما يسمّونه بفقدان الحيلة. بلا حول أو طول. وطوال الاسبوع الأخير كان يتنقلُ بين الشقة والمكتب. يتفادى الشوارع التي تتقصدها صواريخ الـ إس إس. صواريخ الجيش الذي جاء الى بيروت، وحلّ في خلدة والأوزاعي والمدينة الرياضية، وذلك كي يحلّ المشاكل. وها الفاكهاني شارع موت. ومباني الجامعة أهداف تصويب للصواريخ الميدانية أرض أرض. وها هو يزور «الشباب» حتى آخر طلقات الليل. حتى آخر مقاتلٍ يحرس المسارب ويغفو على متراسه. حتى آخر رجل ملّ السكون الـمُكهرب، والليل، وانقباض القلب؛ فأطلق نصف مخزن رشاشه، وهمد. في السماء أطلق حواره العلنيّ، فأضاءها ولوّنها لدقيقة، أو أقل، ثم خبا.

حينذاك: يشقُّ الشارع ليكون في مواجهة شرفتها المطفأة.

أهي نائمة؟

لم يقل لها وداعاً لائقاً بسيدة أحبّته ذاك الحب. أهو العجز، أم المكابرة في

إقرار هذا؟ . عندما التقت عيناهما حادَ عن وجهها وارتدّ . قال بأنه سيرحل . اجازة . وسيعود . لكنه لم يقوَ على النظر في عينيها . لم يجرؤ.

لم تقل هي سوى : أعرفك يا خالد . أعرفك .

وصمتت فصمت العالم في قلبه . أدرك أنه هو، وليست السيدة ـ المدام ، مَن أوقف عقربي الساعة على وقت انصرم . إذ ذاك : لفظ جملته بصوت لم يطلع : «لم تودّعني يداها . رأيت الاشفاق في نظراتها . وكانت الفراشات تصخبُ بيننا! » .

الفراشات .

يذكرها خالد الطيّب . يذكرها رغم انه لم يرها أبداً . هي الوحيدة التي تراها . هي المدام التي تولّدها من روحها بقدرة عجيبة كأنها السحر . تحمّلها جثث أحلامها علّ أجنحتها تنعش فيها الروح . تروحُ تجوس أثير الفضاء بعينيها اللوزيتين، العسليتين، وخالد الطيّب الى جانبها . تراه ولكنها، رغم احساسها به، لا تجدُ مفرّاً من اطلاق الفراشات .

مرة، والسرير مترطب بعرقهما، مغضّنٌ بتقلبات جسديهما اللذين نفثا بركانهما للتو؛ سألها وذراعه تحجبها عن ناظريه :

«ما سر هذه الفراشات؟» .

«هل رأيتها؟» . وكانت قد قالت بصوت بدا وكأنه طالع من حلم .

«بالطبع لا . » .

«كنت عرف هذا . » ردّت بتنهيدة، وأكملت : «مثلك لا يرى الفراشات . » .

أدرك لحظتها انه سقط في امتحان غير معلن . فشل مع المرأة التي منحته فُرصاً من جسدها وأحلامها، لكن تفكَرَ . لم يتوان عن اضاعتها الواحدة تلو الأخرى . رسب في فتورة الفراش المتقعّر تحتهما . هالهُ أن صوتاً طلعَ من داخله ليهمس له ساخراً، مماحكاً، مستفزاً : (ألا ترى انك تغور في قبر؟) . نفض الصوت عن سمعه بعد أن ارتعش . مالَ عليها مدنياً فمه من أذنها العارية من قُرط : سعيدة؟ . ولمحَ وريد رقبتها المتعرّقة وقد ارتجف لثانية . لمحَ الأزرق الداكن وقد تشرّبَ ببريق ومضَ وانطفأ .

برد جسمه إذ تبيّـن دمعة انبجست من زاوية عينها اليمنى. زمّتْ شفتيها، فتقبضت ذقنها كاشفة عن نتوءات صغيرة فيها، وسالَ حزن من عنقها حتى الصدر. انكفأ على ذراعه موسداً رأسه فيها بين المرارة وتأنيب الضمير.

هي ذات الدمعة النادرة كاللؤلؤ. تساءل إن كان هو الذي ذرفها أم المدام. تلك التي تقطّرت من عينين يعلوهما أفق أسود. غرة تشطر الجبين في أعلاه.

كانت تعلم انه سيظل هو هو. انه لن يتغيّـر. انه سيجأر يوماً في وجهها وكأنها هي المسؤولة عن تفككه. ومع هذا لم تتراجع عنه. ظلت تبعث برسالتها الى نفسها: نعم يبقى هو. العاجز. الطفل. المخذول من داخله. وتساءلت كيف جُنّتْ وتوقعت منه ما لا يملكه. أن يرى فراشاتها.

استمر الصمتُ حاجزاً يفصلها.

أبقى هو عليه. لم يقوَ على تحطيمه والنفاذ اليها. وتساءل إن كان يرغب بها أم بالصورة. مَن الأجمل؟ مَن الأقوى على إحداث الرعشة؟ الجسد أم الطيف؟.

تركته بعد المرة الأولى. أغلقت عليه بابه، وذهبت مرسلة وقع كعبي حذائها على رخام الدرجات. ذاك الوقع للخطوات الدقيقة، الهابطة، الطاعنة مثلما رأس حربة في صدره. لا دم. فقط، وقع الخطوات.

□

تحرّك في غرفته عندما غابت. الشهر السادس على قدومه الى بيروت والبحر بعيد. ليس في الصَـدَفة الموضوعة في بيتهم. ليس في الصورة المؤطرة بخشب الصندل وبراز الذباب الجاف. لا يسمع صوته لكنه قريب بعيد. البحر بعيد، قريب؛ يمسّ جسده ويدبق على شعر صدره العاري. هواء ميّت. لا هواء. لا نسمة. وبيروت بحرها بعيد عنه قريب منه يمسّه ويدبق. لا يسمع موجه. لا يصل رذاذه المالح الى عينيه. هذه الرطوبة. انها الرطوبة وهذا الدبق! يتلوّى دخان سيجارته فوق رأسه ويربض. لا هواء. يحترق الدخان في صدره ويحرقه. امرأة عارية متكومة على نفسها وسط سرير بلا وسادة ولا غطاء. بلا ملاءة. رأسها مدفون بين ركبتيها، وذراعاها ملتفتان تحضنان قصبتيّ الساقين الملتمعتين. الظلال تلف الجزء الأكبر من جسدها. الغرفة فارغة الاّ من سرير ثان. عارٍ حتى من الفراش.

هيكل سرير حديدي ونوابض مرتخية. نافذتان طوليتان. ولا ستائر!.

يهمُّ الى ستارة النافذة في غرفته ويزيحها. يبرقُ في وجهه زجاج الشرفات المقابلة. يدخل بعض الهواء ثقيلاً ساخناً. يتحرك ثقله على الحائط فتهتزّ الورقة. تهتزّ ثم تهمد. تبقى المرأة العارية على عُريها. يبقى السرير الخالي على قحطه. ليس من شيء يفعله، منذ وقت، غير التفرس بالصورة على الحائط. بالمرأة المتوحدة في غرفتها بالأبيض والأسود فقط. لا ألوان.

«لقطة جميلة.». قال نذير الحلبيّ عندما رآها أول مرة.

«الا تبدّل من عادتك في صلب النساء على حائطك؟!». قالت المدام، ورفّت رموشها تحت غرتها السوداء.

«لا!»، قال، وتردد متفكراً كيف يكمل الاجابة. «لا لا أبدّل؟ لا لا أصلب؟ لا لست بالذي يقدر على استيعابك رغم توقي واحتراقي. أنقلبُ الى الصورة، وأعلّقها على حائطي؟. يا الهي كيف تكون المصادفة! ألم تري الورقة الأخرى أسفل الصورة؟ انها كلمات درويش. لكنها ليست لك. لقد رسمتها بيدي. أرأيتها؟. ليست لك. الدروب اليك حبل من دمي. انها لها. هي التي تتجاهلني، فيدفقُ فـيّ شعور بأنها دربي الخفيّ. قدري. انت على النحو الذي لا تتحلين بقوته. أنت؛ ولكن برأسها الصغير المنخفض دائما. ثريا السمراء غير الممسوكة. هي أنت بلا تراقصك المحسوس الواضح ثم.. ويكون مرفقاك جسراً تتكئين عليه ليستند ظهرك الى الحائط. وإذ بجسمك يتمدّد ليقسم عرض السرير. عرض التشوّش القلق للقماش. يقسم التأمل ويشطر أنفاسي كأنما أنهج غبّ عدوٍ. ـ عيب! ما زلت فتياً على اللهاث. هذا بحري فأحرثه واكسره وغص في عمقه حتى قواقع الزمرد وأعشاب البحر ومواقع المرجان وقيعان اللؤلؤ. الا تعرف؟..».

هو يعرف أن المدام لم تقل هذا. يعرف انها قالت ما يشبهه بلغةٍ صفعت جسمه، ولم يسمع منها إلّا الصمت المملوء.

تضوّعت رائحتها الخاصة في هواء الغرفة واستقرت في حواسه. أدامها العرق على جلده. كالجنون. اعتادها كالجنون، وصارت اشارة المدام التي لا تخطىء. ترسم له تشكيلها في المخيلة، وتفرشها على امتداد بدنه، ألصق اليه من ظلّه. بل ألصق من جلده. لقد تغلغلت في مسامه، فتشـرّبها كاللعنة!.

لعنة جميلة وتعذّبه!.

لصيقة به التصاق الجلد باللحم، وتبقى أشفّ من اللحم. هي حلم كلما أمسك بطرف منه أفلت من قبضته جماع الأطراف!. هنا اللعنة. لا يدرك كيف بامكانه تجسيم طيفها، وتجميعها، ولملمتها في كفّه امرأة حقيقية يقدرُ عليها!.

تارة جسد من عرق وأصوات وطعم لقاء أول.

وتارة طيف!

وفي الحالتين تطفو الفراشات فوقهما. أزهى منهما، وأرقّ، واكثر حرية. ووحدها ترى الفراشات. تصفها له كيف تبزغ كالشمس من صدرها، وتفزّ مثل طلقة لها صوت مكتوم رهيف ناعم. كيف تنفرش في فضاء المكان. تغطّي الجدران، وتتكوّم على «لمبة» السقف فتحوّلها الى ثريا مزركشة وملونة لا قبل لانسان بها. لا من قبل ولا من بعد. تقول ان الثريا التي تراها تبدأ بالارتجاف، ثم تأخذ بالترجح والارتجاج، بايقاع يخصّها وحدها، كأنها موسيقى من الأصوات السماوية تنبعثُ من قلب الكتلة الفراشية، فتوحّدُ حركتها، وتكون الرقصة!.

«أعرفت لماذا أدمدمُ بعد المضاجعة؟».

قالت المدام يوماً.

«لأنني أفتقدُ فيك حلمي. مشروعي الذي ظننته أنت. أنت البعيد عن أن تخلّص نفسك. فكيف ارتجي فيك خلاصي!.. لكنك تبقى المتاح الممكن. حقاً!. اني أجذبك محاولة تقريبك الى صدري. الى مكمن الفراشات، علّك تتلوّن بألوانها، فتصفو فأصفو أنا. تظلُّ ملوّثاً بالذي ولدت به. كأنها دم الحيض ما غادرك. لم تغتسل كفاية. ها هي الفراشات تكسو جدران غرفتك القاحلة الّا من الكتب، وتلك المرأة المعزولة مثلك، وجملة شاعرك بخطٍّ أحمر. أسألُ نفسي كيف تنتقي أشياءك. كلها شبه واحدة. كلها خر جت من عالم واحد. كأن العالم كتاب جّمعت فيه نُتفاً منك. ألا ترى؟. امرأة معزولة في عتمة ليست بعتمة. غارقة في ظُلمة أقل درجة من الظلمة. ما بين. أجل. الحالُ هو المابين. أتذكر؟.. انه تعبيرك الدائم. لازمتك في كل المواضيع. قفلتك لكل المسائل. وهنا نختلف. فالفراشات ليست ما بين. انها خضراء صفراء زرقاء حمراء بيضاء وأحياناً كامدة، لكن نقط اللون الفاقع تبعد لون التراب الفاسد عن أجنحتها. أنت مابين. لست بقادر على اكتساب ألوانها. لونك لونُ التراب الماحل. أسأل نفسي لـمَ التصاقي

بك هذا الالتصاق!. أنت حلمي المشوّش. المجهض من قبل. الملوّث قبل ان يطأ الأرض!.».

لكن المدام لم تقل هذا لخالد الطيّب.

أبقتهُ حوارها السـرّي.

كان السقفُ عارياً فوقهما الاّ من حبل الكهرباء المتدلّي. بدا مثل انشوطة مشنقة. ثمة «اللمبة» التي أفقدها الغبار لمعتها البللورية. شباك العنكبوت الخفية في الزاوية فوق النافذة الـمُسدلة ستارتها. يتقلّب أحدهما. يتحرك الهواء الرابض في حيّزهما. فتنفضحُ شباك العنكبوت الذي انكمش غائراً في خيوطه الدبقة المرتجفة.

تدمدم المدام لحناً له ايقاع مألوف. تسكت بغتة. تستدير جهته وقد لفحتها رغبة في العبث. تفردُ أصابعها اللدنة، وتُدني أظافرها الرهيفة التي بلون الجلد الوردي؛ وتبدأ مشوار التسكع على شعر صدره الـمُندّى الذي طفق يبرد. تعودُ الى دمـدمتهـا بنبرة حلقية تقصّدت الدلع فيها. أخرج الطيّب صوتاً مشجعاً. واصلت مشوار أظافرها الرهيفة. وفجأة، ارتفعت الى أذنه وقرصتها. انزاح مبتعداً عن متناولها كالملسوع. أطلقت ضحكة خاطفة. ثم أتبعتها بآه ممدودة ممطوطة.

«قل لي. كيف تفسّـر المابين؟».

عاوده احساس العجز على الفور. طفح مثل الحرقة في حلقه. اهتاج فيه احتراق اندلع نحو المعدة. شاب كيانه الحاحٌ يبغي اطفاء الظمأ المتولّد كصرخة خرقت هدأة الليل.

اشتبك معها، علّ العجز يزايله؛ فكان كالرؤى المحاذية للمس الموجودات الحسيّة، رأى، وقال «مثلما الوجه الذي يُطلُّ من عل، من خلال غيمةٍ رقيقة تراوح بين السخونة والصقيع، رأيتُ وجهها يملأ عينيّ فلا أبصـرُ سوى استدارته وضفاف شعرها المنسدل على جانبيّ وجهها. وجه كبير ذو ملامح صريحة. وميضٌ باهت يتخطف من شقّي عينيها الـمُسبّلتين فوقي وأنا طريحٌ تحتها. حاجباها الأسودان مرسومان مثل خطّين لا يمكن أن يكونا لغير هذا الوجه. لها. لهذه المرأة القادرة على خلق توازن في كل حركة منها يطغى ويأسر. يشعُّ منها، ويذهبُ منتشراً في جميع الزوايا والأنحاء. يتسلّلُ الـيّ فيعيدُ ترتيب أشيائي. يرتبني. يوقظني على إحساس قابض، لكنه ناعم ـ بأنني أتكىء على قوة هي هي. هي المرأة الوجه

الـمُطلُّ. ضفتا الشعر المفروش بسوادٍ كالليل. هضبتا ذراعيها المنسفحتين بتراخ ظاهري، بتصميم داخلي مبعثه الرغبة في الاحتواء والامتلاك. بملمس أصابعها ذات الأظافر تخدشُ جلد ظهري المتوفز الذي طفق يتعرّق بفعل انصهار البطن الذاهب في البطن.

احسُّ بانهراس ثدييها على صدري فأشتعل. أحسّها ولا ابصر عبر التماوج غير شطرٍ من الوجه المحموم المحتدم بعراكٍ مع قوةٍ داخله هو. اللحاق بنزالٍ ضد رغبة تتفلّتُ وتتصاعدُ وتتجذّر وتتأجج ولا مندوحة من مسايرتها والوصول وايّاها الى قاع الآخر. الولوج فيه حتى أعماقه. تملّكهُ ما دامت هبّة الرغبة تعدُ بهجةٍ بلا حدود إن غار الواحد في الآخر.

الأصـوات، والأمـواج، والانشـطارات، والتثنيات، ولفـح الأنفـاس المتداخلة، والزوايا المتغيّـرة المتبدّلة اللحوحة تحت نذير قوة في الداخل أبطلت ما عداها وهيمنت علينا. جسدان. روحان. غريزتان. أطراف لا تني تشتبك حتى تعود لتنفكّ سريعاً، داخلة في تخوم الآخر، ثم تعاود جزرها نحو مواطىء تجهل كيف تهدأ أو تثبت على وضع.

تارة أراهـا تغـطّي وجهي بالكامل. وتارة أحسّها تنزلقُ عني لتظهر على جانبي، متثنيّة مشدودة كوتر. أسنانها تعضّ خاصرتي بين الافتراس والمداعبة التي تخز وتؤلم. انتشاء راغب بالمزيد. لكنها تبرح اللحم المهتاج لتنتقل الى صخب يغمرني ولا أبصـرُ تشكيله أبداً.

تلفحني أنفاسها المتلاحقة، فأنشد سماع كلمة من خلل صوت تخلّى عن تحديدات اللغة، وضاع في بربرات التعبير عن معنى لا يُقال ولا يُرسم ولا يُحفظ ولا يدخل في أُطر التذكر أو الملاسنة الخاضعة لآلية انسجام اللسان مع العقل!

لا عقل.

والعالم جسد.

أتوقُ الى ماء يساعد على الإطالة. أنظر. فأواجه بالوجه ثانية. الحاجبان الأسودان يتركزان في استدارة الجبين ليخلقا توازنه. اختفى وميض العينين، إذ غابتـا في كهفين معتمين لا قرار لهما. صارت الروح جسداً. باتت المرأة شهوة تتحقق. وسوى انعكاس الضوء الخفيف على عرق الجلد ليس ثمة من ضوء.

يلتمعُ فجأة في الفم شيء. تنفرجُ شفتاها على ما يشبه التكشيرة العصبية

ـ حيوان يهمُّ بالافتراس. تنكشفُ سنها الأماميّة برضابٍ يبلّلُ شفتها السفلى، وتفرجُ عن قدومٍ هاطلٍ مصمّمٍ عنيدٍ آتٍ، فيزداد البياض، ويزداد توقي الى بللٍ يهديء فـيّ الجفاف الملفوح بنار الصدر. لا أدركُ مَن أقبلَ على الآخر. مَن أطبقَ على الآخر. مَن بدأ يتهشيم الآخر وتحطيمه وافتراسِ ما يمكن افتراسه منه!

كانت اطباقةً لفكّين يفلتان أنيناً مسعوراً، ويرتعشان في ذروة لم تترك لحظة التركيز الاّ على رضابٍ يتمسّح بفمين قالا ما لم يستطع أحدهما يوماً الافصاح عنه بهذا الحذق والوحشية! . ».

كانا قد إعتليا مكاناً مرتفعاً على دكّة سفينة الشحن.

أحاطا جسميهما بالحقائب، وجلسا على الأرضية الخشبية ينتظران الابحار.

هتف زاهر: «أنظر. هاالرفيق علاء قادم الينا!».

«أين؟». تلفّت خالد الطيّب.

«هناك. »، وأشار بيده صوب قارب يمخرُ الماء، مقترباً من السفينة، جارّاً خلفه حبلاً غليظاً من زَبَد يرغي.

كان علاءاً بالفعل. رأياه يلوّحُ بذراعيه فيما يحاذي قاربه السفينة. سمعاه يصيح وسط هدير المحركات ولَغَط الركاب المتكوّمين فوق حاجياتهم في الأسفل. اقترب القارب أكثر. وصل صوتُ علاء:

«خالد! خالد!».

تحبب جلد زاهر. جحظت عينا خالد الطيّب ولم يجرؤ على النطق. صار القارب في وضعٍ ملامس لجسم السفينة حين هتف علاء:

«خالد! ألم تسمع؟!.. برب الملائكة!».

صرخ الطيّب من قلب هلع: «ماذا؟.. قُلْ. ماذا هناك؟!». وراقبه وهو يلتقط أنفاسه، بينما تتلمس أصابعه مُرتكزاً على حديد السفينة.

«الزعترا. تلقيت اشارة تفيد باحتمال سقوط المخيّـم الليلة او غداً!».

«متى؟». زعق الطيّب.

«منذ ساعة!».

ولم يصح الّا وهو يسأل: «ونذير؟ . . هل تحرك؟».

أجابه علاء بحلقٍ جاف: «قبل الاشارة الأخيرة بساعات . .».

صمتت الأمواج في رأس الطيّب، الّا انها واصلت لطم حديد السفينة. فقدَ قدرة الكلام. انهدّ. أبصر علاءاً في قاربه المتأرجح، ورأى نورسين يحلّقان في الفضاء القريب وراء ظهره.

«خُذْ!». صرخ علاء بعد لحظات الصمت، ثم لوّحَ بشيء وقذفه باتجاهه. «خذْ الخبز. لن تصلا الى الاسكندرية قبل ليلتين!».

تطوّحتْ رزمة الأرغفة وارتطمت بصدره. سقطت. لم يتحرك ليأخذها، فظلّت هناك بين الحقائب، حتى صحا زاهر من هول الخبر، وتناولها من على الأرض الخشبية.

١

# 7

«ستخاطر بحياتك.»، قالوا له في بيروت: «وربما تفقدها.».

«أدركُ هذا.». قال لهم، وشيء من خوف يستترُ وراء كلماته.

«هذا خياري.»: فكّر. «ليس الوحيد. ربما. لكنه يبدو لي أنه كذلك. صوت يقول هذا، وأنا أنصاعُ لحكمته. أهو قاعُ اليأس؟ قمة الشجاعة؟. لا. ليس هذا ولا ذاك. متأكد انه ليس واحداً من الاثنين. اذن؟..».

«نراهن على أن دينكَ سيشكّلُ عاملاً يؤهلك لأن تكون الرجل المناسب.».

شرحوا السبب وأسهبوا في وصف المهمة التي سوف ينفذّها هناك. في الجانب الآخر من المدينة. في الشرق منها.

«لن تقوم بشيء ينبههم الى وجودك. عليك فقط أن تنقل الى الرفاق، وشفهياً، التغيير الذي طرأ على مهماتهم هناك. ثم تعود.».

ظلّ محدّقاً في وجوههم كأن الهدوء حلّ عليه، فجعله كأنما يتلقى ولا ينفعل. قال أحدهم مبرراً المهمة:

«نحن نعرف أننا ننيطُ بك مهمة شبه انتحارية. غير اننا لا نملك الخيار. فالمكالمات الهاتفية مكشوفة. والاتصالات اللاسلكية لم تعد تفي بالغرض. ناهيك عن أننا نفترضُ انهم وصلوا الى مفاتيح رموزها. الزعتر على وشك السقوط. وربما يكون في ذهابك وإبلاغ الرفاق بالتغيير بعض الأمل. أو تأجيل السقوط. لا خيار لنا.».

لم يقل نذير الحلبيّ كلاماً يتعارضُ وما سمع. لم يقلْ انه يمانع. أُخِذَ بالصوت الذي أكّد له أن هذا خياره الوحيد. حامت في رأسه خواطر سبق وأن عبَّر عنها للطيّب وزاهر. مهمة بدلاً من مهمة. سيّان. الوطن يطلب، الوطن يأخذ.

كان هذا في وقت الافتراق. حين ودّعهما في صور، وكان البحرُ شاهداً على صلابته. لم يُبدِ ما يوحي بالتضعضع. ببساطة: مهمة بدلاً من مهمة.

كانت الاشارة التي تلقاها المكتب في صور تختصر الوضع كالتالي: (أبلغوا الحلبيّ بالغاء البحر. بيروت تنتظره. الوقتُ من ذهب!).

تلقّىٰ الرفيق علاء الاشارة بوجهٍ يدفقُ حياة. اندلعت من عينيه ومضات اللهاث. تمنّىٰ لو كان هو المطلوب لا الحلبيّ. «أبهذه السرعة!. الأمر مهم.. كما يبدو.». وكان كذلك. اذن: وداعاً لرفيقي البحر.

غطسَ رفيقاه في وجوم.

تجهّما.

«أنت ثالثنا، ونحن دونك حوارٌ مقطوع الصوت.». حدّث زاهر نفسه. انه يواجه الأمر بسماكة الذهول. هذا لغزٌ جديد وعليه أن يحلّه. هي تجربته الثانية بعد أبي الحكم. تجرّع حيرته: «الآن بدأتُ أفهم كيف عليّ أن أواجه الأحداث بنفسٍ طويل. كيف تكون الأيام سيوفاً تبتُر الصلات. كيف ان خياراتنا محدودة. لكن.. ها اني أرى في الحلبيّ شخصاً آخر. هذه اللحظة فقط. ما الذي غيّره؟. أراه ينأى عني ولا أسمع صوته الاّ خافتاً يتلوّى في أمواجٍ بعيدة! يقول كلاماً يصل الى مسمعي، وينزلقُ عني، ويضيعُ في ماء البحر. أرى خالد الطيّب صامتاً أمام الحلبيّ الهازىء. أراه يهزّ رأسه نافياً طلباً ما. كأنه يرفض أن يقوم الحلبيّ بشيء يخصّه هو. يخصّ المدام وبيروت. لا شيء مكتمل. الأشياء مبتورة ناقصة وغير واضحة. حتى المراكب السابحة صوب السفينة. هي كذلك مضطربة تتأرجح وتهتزّ. تتمايلُ مُثقلة بالبشر. تتقدم بطيئة من السفينة كأنها في نهايات قوة الدفع فيها. قد تنقلب الآن! قد تفقد توازنها! قد يغوص راكبوها في الماء وتنتشر قيعانها المنقّعة تحت السماء! قد أكون أنا واحداً من الغرقىٰ!.

□

قال له أبوه: «زرْ بيت عمك هناك. في الأشرفية. قد لا تستريح لهم. انهم مختلفون. الاّ ان الواجب وقرابة الدم يفرضان عليك الابقاء على صلة الرحم.».

قالت له عبر الهاتف: «تستقل السرفيس من موقفه عند الكنيسة. وتخبر السائق بالعنوان. يدلك.» وأغلقت الخط.

قالت له ثريا: «تذهب الى هناك! أأنت مجنون! لا تراهن على ما تعلّقه على صدرك.».

ثم، بعد أن أفرغت مخزون عينيها، عادت لتقول:

«لن تذهب. أجبني.».

ولكنه ذهب.

الكنيسة.

وسط المدينة.

واليوم أحد.

ست سيارات تقف الى جانب الرصيف. المحالّ مغلقة. السائقون ساهمون في عوالم خاصة. يشعر بالتوتر. يجازف. يدخل السيارة الأولى ليكون الراكب الرابع. تنطلق السيارة في شوارع ضيّقة. تعلو مع الطريق. تصعد. تحّفُ بها بيوت قديمة. يدهمه شعور مباغت. يلتفت للوراء، عبر الزجاج الخلفي، فيرى برج الكنيسة وقد غمرته الأسطح المتراجعة، ولم يبن منه سوى رأس الجرسية. صار في البعيد. اختفى.

لم يسمع نذير الحلبيّ قرع الأجراس. الأصوات هامدة. حتى السائق والركّاب. أطلق لعينيه فسحة التجوال في الموجودات الآخذة بالانزلاق. رآها تذوبُ في الاتجاهات الثلاثة. سكون وسكوت متربان ومغبّران يكسوان الأشجار المتفلتة من الأسوار والبوابات الحديدية. الأشرفية تتسلق السماء ولم تبلغ العتبة بعد. عيناه تتسلقان الحيطان المتقشرة. تقرآن الكلمات السريعة. السوداء والحمراء. تتذبذبان مع تعرجاتها المنتهية بـ«لبنان الحر». تقفزُ شرفة الى عينيه فتلمّها الذاكرة وتخزنها. رأى فنجان القهوة في يد رجل عجوز. كان في منتصف المسافة بين ذقنه وفمه المتأهب. كان الرجل العجوز يرتدي منامة مخططة. الى جانبه امرأة

بعد الثلاثين. فكّر: رغم ثوبها الأسود. وشعرها الكستنائي الململوم الى وراء رأسها. وجلستها المتحدبة. لكنها تكتنز عافية عارمة. ربما ابنته. زوجها مات. زوجته ماتت. ربما. أي أفكار!. طرد الخاطرة والصور. واصلت السيارة صعودها الى عتبات السماء. واصل نذير الحلبيّ تسلقه للجدران والشرفات. استعاد صورة شرفة العجوز والمرأة كستنائية الشعر. كانت غاصة بأصص فخاريّة مصفوفة أسفل الدرابزين الأخضر. مفتوحة على فضاء راكد. نهضت منها ورودٌ وهبطت عليها متدليات على شكل قلوب صغيرة. غمرت الشرفة خضرة يانعة، وخضرة ذابلة مصفرّة شاحبة. واسمنت خشن محبحب بانت حوافه المترطبة حيث تحوّلت الى لون التعفّن. شيء يشبه الطحلب اللاصق. المتماسك. المتيقّن من رسوخه على المكشوف من الاسمنت. الناغل في قلب الصلادة القديمة.

شيء كالرائحة. كالماضي. مثل تيقّظ صوّر بنيّة، متقوّسة الأطراف، بدأت تطفو وتملأ الروح. الأشرفية. عبرت السيارة منعطفاً، فبرزت واجهة كنيسة. علت، تلك اللحظة، أولى قرعات الجرس. أحسّ بها كصنجٍ هائل أتى من عالم منسيّ. باغتته. ارتجف. لحظَ اثنين من الركّاب يرسمان شارة الصليب. تذكر أمه. وعندما حاذت السيارة الكنيسة، لمحَ امرأة برأسٍ مترمّد، تدبُّ بوهَن، تتوقف، تجابه بوابة الكنيسة، ترسم شارة الصليب، تُحني رأسها بخشوع العادة المتأصلة، ثم تواصل مشيها الرتيب.

«بسطاء». حدّث نذير الحلبيّ نفسه. «أين السياسة في حياتهم؟!». وتذكر: الشعارات السوداء والحمراء على الجدران المتقشرة. لبنان الحر. الغرباء. أنا غريب! لستُ أدري.

زفرَ، ونظرَ بجانب عينه الى أحد اللذين رسما شارة الصليب. ذقنه حليقة مخضرّة، مثلما الطحلب الخفيف. تثنيات في وجهه المستدير. عيناه غائرتان في دائرتي زرقة. أوداجه منتفخة هابطة تستدقُّ عند ذقنه المدببة، وتعود لتنتفخ في رقبة انفلتت عنها ياقتا القميص. «كي يتسنّى له ان يتنفس.». علّق نذير الحلبيّ فيما هو يدرس الوجه. «أهو أحد المؤمنين حقاً؟». ثم استرعت انتباهه صورة لمارجريس على حصانه يطعن التنين. كانت ملصقة على الزجاج الأمامي. مرّ شريط يوم الفصح سريعاً، وقال مؤكداً لنفسه: «أيقونة بيزنطية». وهاجت ذكرى مثل موجة.

(ـ ما الفرق بين شارتي الصليب؟
ـ ماذا تعني يا نذير؟
ـ قال لي مدرّس الدين انني أرثوذكسي. من طريقة رسمي لشارة الصليب، قال.
ـ صحيح.
ـ هل هناك مسيحي غير أرثوذكسي.
ـ كاثوليكي وغيره.
ـ كيف يرسم الكاثوليكي شارة الصليب؟
ـ بكامل أصابع يده مضمومة، وينزل بها حتى منتصف الصدر.
ـ ونحن؟
ـ بضمّ الابهام والسبابة والوسطى، وحتى مستوى البطن. هل يهمك الموضوع؟
ـ الأستاذ قال انني رسمت الشارة من اليمين الى اليسار.
ـ والكاثوليكي من اليسار الى اليمين.
وعلا صوتها فيما يشبه نفاد صبرها. قالت وقد أخذته اليها:
ـ ليس هذا بمهم يا حبيبي. ومسّدت على رأسه وقبّلته على جبينه:
ـ القلب الصالح هو المهم يا حبيبي. أليس كذلك؟).

تساءل متجنباً النظر للراكب: «كيف رسمها؟. من اليمين الى اليسار أم العكس؟». ثم تنبّه الى أمر فاته أن يحسم معرفته به: «والماروني؟ كيف يرسمها؟.». وأنهى الدائرة: «يا له من وَجَع للدماغ!».

الظهيرة.

أنزله السائق أمام بناية كبيرة. قال: هنا. وانطلقت السيارة في شارع لم يستيقظ ساكنوه من اغفاءة ظهر الأحد.

السماء ما زالت عالية. قصية في ارتفاعها. والأشرفية ما برحت الأرض. كان يراها، من منطقة الدكوانة القاحلة، أشبه بقلعة شامخة تشرف على بيروت. بيروت الأخرى. الكرنتينا من أسفل. الاشرفية من أعلى. والسماء تقبعُ عالية حيث النجوم لا يلمسها بشر. بوابة البيت من حديد مشغول بأناةٍ وصبر طويلين.

حديد مطليٌّ بالأسود اللامع . ضفائر ضفائر على شكل أوراق التوت . ومن فجواته الضيّقة انبثقت فروع توحّشت فطعنت الفراغ واحتلته بخضرتها الشرسة . انفلتت تنعرُ الفضاء المحيط بها بما يشبه أذرعاً دقيقة ، مزغبة ، تتفرع عن أذرع أكبر منها . متثنّية برهافة اصابع تستغيث ، أو أكف مفرودة تضرع . نسغها غنيّ ، رطب ، مخزون من دهور مضت الى دهور سوف تأتي .

بدت الحديقة كومة أشجار رابضة كالحجر. لا هواء . متلاصقة بثراء أثقل أغصانها . توقّع ان ثمرة ما ستسقط الآن لا محالة . اجاصة أو تفاحة سترتطم بالأرض المعشوشبة ، ويبقى السكون سكوناً . هذا هو المكان . العنوان . متشخّصٌ كأنها قصر . قصرٌ عتيق . لون قصارته الخارجية أصفر باهت . عمر أشجاره يدلّ عليه . أحجار ممره المتلوّي . بزغت نبتةٌ شيطانية بين أحجاره . مَرَقَتْ زاحفة ناعمة ملساء ، واختبأت في دغلٍ فقير بين حجرين . اللون مثل تراب تراكم على مرّ السنين والسنين . يغلّفُ سيقان الأشجار . يكسبها ثقلاً زائداً ، وضخامة مفرطة ، ورسوخاً في الأرض كأنها للأبد . كأنها للأبد سيمتد ، ويطول ، ويعمّر حتى يقصف أعمار أجيال ستتعاقب . تماماً مثل الغصن المنقصف والمتدلي ، باهمال ، وسط بدائية الخضرة السائدة . لكنه غصن ناشف عند ناحية انكساره . جاف يكذّب وجود النسغ . أيّة كذبة؟! . خداع البصر؟ فكر: «لو كان غيري لرسم شارة الصليب ثلاثاً . باسم الآب والابن والروح القُدس . ولاستعاذ بالعذراء شفيعة البشر من انقراض وموت قد يهبط آخذاً معه كل شيء!» .

كان قد همس لنفسه : «المهم القلب الصالح . » ، عندما سمع صوتاً يهتف به :

«أأنت نذير باسيل . . ؟» .

فرفعَ عينيه ليرى .

# 8

## من دفاتر زاهر عيسى النابلسي

الأحد ٤ نيسان ١٩٧٦

يهطل المطر في الخارج.

انفجر الرعد بصوتٍ ظننتُ أنه القذائف. ثم سقط المطر. أحبُّ بيروت تحت المطر والسماء الرمادية والفضاء المغسول.

بدأتُ أحبُّ بيروت على علّاتها. رغم الرصاص والموت والخوف اليومي. صرتُ أحبُّ بيروت وقادراً على احتمالها رغم ان عمي ليس معي. بدأتُ أفهمها وأفهم لماذا أبعدوا أبا الحكم.

طرقت الجارة باب الشقة. قمتُ وفتحته لها. كان الممر بين الشقتين مظلمًا الّا من النور الخارج من شقتها المقابلة. وكانت الساعة بعد التاسعة ليلاً. استغربت عندما رأيتها وقلت لها: أهلاً جارتنا. قالت تسألني اذا كنت أرغب بشيء. أو ينقصني شيء. قلت لها: شكراً خالتي أم فايز. قالت: أنت مثل ابني فايز. لا تستح. قلت لها شكراً، فعادت بعد أن قالت تصبح على خير.

جارتي أم فايز امرأة طيبة. أعرف ابنها فايز الذي هو في مثل عمري. يقاتل الآن مع «المرابطون» في الأسواق التجارية. أو ربما حوّلوه الى منطقة الفنادق. لبناني يحترمني لأنني فلسطيني ويحترم عمي منصور الذي قال بأنه صديقه ومعلّمه.

لم أستطع النوم. تصفّحتُ العدد الأخير من مجلة شؤون فلسطينية. يوزّعونها علينا في مكتب الاعلام. قرأت الذي نشره محمود درويش عن بيروت. نصحني بذلك نذير. أحببته، ونقلتُ هذا المقطع الى الدفتر. كان عنوانه (يكتب الراوي: يموت.).

وهنا بيروت في الصفر التجاري وفي اقراص منع الحمل والحنطة ـ تبكي وقتها المكسور في الاعلان عن أقراص منع الوطن الآخر ـ تبكي وقتها المهدور في هذا المساء.

ليس لي وجه على هذا الكفن.
فلينم أصحاب هذا الوقت في ساعاتهم.
ولينهض الموتى من الموت لترويض الزمن.

**ـ من الدفتر السادس ـ**

□

الاثنين ٥ نيسان ١٩٧٦
الثامنة والربع صباحاً.

انقطعت الكهرباء عندما خرجت من الحمّام. نظرتُ من نافذة المطبخ، كانت الغيوم الثقيلة تغطّي السماء. الضوء في المطبخ ضعيف. فتحت الشبّاك ورأيتُ أن السماء ما تزال تمطر. رغبتُ بالمشي في الشوارع. ارتديتُ ملابسي وذهبت الى محل حلويات الداعوق. قلت ان فطور الكنافة مع الكعك المسمسم يكفيني طول النهار. الخبز شحيح في الأفران. ستكون وجبة كاملة.

مررتُ أمام مكتبة الطليعة. كانت مغلقة. ثم صعدتُ عائداً باتجاه الجامعة وسجن الرمل. كان بناء السجن مهدوماً، ورأيتُ اليافطة القماشية التي علّقوها بعد أن فرّ السجناء وهدموا السجن. قرأتها للمرة العشرين أو أكثر. افتتح مدرسة تغلق سجناً. دخلت شارع الفاكهاني بعد أن عبرت الصيدلية والكازية. وصلت

الى المكتب وقلت صباح الخير للحارس نعمان، الذي كان يشرب الشاي في مدخل العمارة.

في التاسعة والنصف جاء نذير وفي العاشرة اتى خالد مكتئباً. شربنا القهوة من يد العم زيدان. سأله نذير كالعادة عن أحوله في المخيم. قال العم زيدان ان الأمور تعبانة هذه الأيام. فالقصف لا يدعهم ينامون. خلّها على الله. وكيف الختيارة والأولاد يا عم زيدان؟. سأله خالد. فوضع الصينية على الطاولة، وقال ان الختيارة تقول ان الفلسطينيين ملعونون. عقلها قال لها هذا. وضحك معتذراً. ولكنها قالت شيئاً يا اخوان يشبه الكلام الذي تكتبونه في المجلة. جاراه خالد: ها؟ ماذا قالت الختيارة؟. قال العم زيدان ان ختيارته قالت له يوم أمس اننا نحن الفلسطينيين في المخيم بدون هالشباب اذا عشنا سيأكلنا «الذبّان»، واذا متنا لن نجد «الكفّان». فهزّ خالد ونذير رأسيهما، وقالا له: صحيح يا عم زيدان. وعلّق نذير بعد هذا قائلاً: البركة في الختيارية يا عم زيدان. أنتم الاصل. الله يعطيكم الصحة.

- من الدفتر السادس -

□

٢١ حزيران ١٩٧٦

وصلتني اليوم رسالة من عمي منصور. أول رسالة وآخر رسالة.

كانت مُرسلة في مُغلّف عليه طابعان من ايطاليا. فرحتُ بالرسالة كثيراً. وصلتني على عنوان الشقة ظهر هذا اليوم.

قال عمي كلاماً قليلاً وفهمت القصد. لم أعد بحاجة الى تفسيرات خالد ونذير بعد الآن. قال انه رغم كل شيء سيبقى ولن يترك الجماعة. وقال بأنه يتعذب لأنه يعيش في تناقض بين ما يصرّح به رسمياً عن وجهة نظرهم، وبين ما يقوله في أحاديثه الخاصة مع الشباب. قال في رسالته جملة استوقفتني اذ رأيتها تحكي القصة الكاملة. قال (نحّوني باعطائي مركزاً لامعاً). قال باختصاره الشديد أن عليّ أن أنجح في الامتحانات. وأن لا أنسحب رغم كل شيء كما سيفعل خالد الطيّب!. فالعمل في الخطأ لتصحيحه وانقاذ أنفسنا أفضل من العمل في الفراغ.

ثم كتب ان الذي يذهب مذهب خالد إنما هو الرجل غير الممتلىء بالحرية. وقال بالحرف الواحد (انه يحوم حول الفعل. ينظر اليه. يتوقُ اليه. ولكنه لا يفعله. ثمة عطب في داخله. الحرية والوعي.). هكذا كتب.

ثم شرح لي ما كان قد قاله مراراً عندما حدّثني عن الثورة بالمعنى غير المحدود بعملنا الفلسطيني. قال (الثورة ليست مثاليات يا زاهر. هي شيء لا بد منه في نظر الفقراء وأصحاب القضية. لكنها حلم في نظر البورجوازيين المثقفين يتحقق جزء من ذواتهم بتحققه. الثورة مثال أفلاطوني في نظرهم. ينسجون خططها ولا يقدرون على دفع ثمن تسجيلها على الواقع بلغة الدم. فينسحبون الى شرنقاتهم. ربما تكون الثورة نقطة انحراف في الحياة تؤدي الى الهلاك. لكنها ضرورة من أجل حتمية حرية الذين يدفعون ثمنها. وصاحبك خالد ليس بالذي يدفع الثمن. انه حالم مثقف وهي مثال لن يلطخه بدمه.).

لم أكن أعرف ان خالد ينوي الانسحاب. فهو ما يزال بيننا. ولكن عمي أوصاني بعدم إخبار أي أحد عن الرسالة.

ذهبتُ الى كتبه على الرفوف. نبشتُ فيها. وسجّلتُ على دفتري ما خطّط تحته بقلمه:

(الثورة الاشتراكية قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية.). / من كتاب لانجلز.

(عندما تصبح «الكلاب الدنيا» غير «راغبة» في استمرار النظام القديم، وعندما يصبح «الكلب الأعلى» غير «قادر» على صيانته، حينئذ، وحينئذ فقط يمكن للثورة أن تنتصر.)/ من كتاب للينين.

(إن الثورة تندلع عندما تصل الصراعات الاجتماعية الى أعلى درجات توترها. ولكن ارتفاع التوتر هذا يجعل الوضع غير محتمل حتى بالنسبة لطبقات المجتمع القديم، أي بالنسبة للطبقات التي حُكم عليها بالزوال.)/ من كتاب تروتسكي، تاريخ الثورة الروسية.

**ـ من الدفتر السادس ـ**

□

٢٤ حزيران ١٩٧٦
في المكتب. الساعة الواحدة ظهراً.

قبل يومين ضربوا المنطقة بصواريخ الاس اس. تهدمت بعض واجهات الجامعة. وصلوا الى خلدة والأوزاعي وطريق المطار والمدينة الرياضية، واحتلوا عمارة معهد المعلمين المواجهة للأرض المكشوفة على طرف الفاكهاني. اشتعلت الحرائق وغطّت البنايات سحابات الدخان الأسود. وضعوا في المعهد القنّاصين، وبدأوا يقنصون ويصيدون. خلتْ طرقات المنطقة المكشوفة بسبب القنص والصواريخ الضخمة.

كنتُ أنظرُ الى الحائط أمامي، وكان ملصقاً لستة شهداء سقطوا عندما تصدّوا لتقدم الجيش الذي عبر الحدود منذ اسبوعين.

في البيت. الساعة العاشرة ليلاً. على ضوء الشمعة، والكهرباء مقطوعة.

مات الرفيق نعمان حارس عمارة المكتب. قالوا بأنه جنّ ولم يستمع للأوامر. ترك موقعه وراء المتراس الرملي الموضوع أمام العمارة، وركض نحو الأرض المكشوفة. مشى فيها وهو يُطلق رصاص بندقيته على المعهد. قنصوهُ في ساقه فسقط وأخذ يشتم ثم نهض. قنصوه مرة ثانية في صدره، ولكنه واصل التقدم مطلقاً الرصاص. قالوا انهم عندما سحبوه بعد أن أظلمت، وجدوه منقوعاً في بركة دمه. لقد نزفَ حتى النهاية. قال أحد المقاتلين الذين تسللوا اليه، انه رأى ثقباً في رأسه. كانوا يتسلّون عليه! الكلاب. قال المقاتل، وخرج الى الشارع المعتم. لكنهم أمسكوا به، وأدخلوه الى الملجأ. لقد كانت صواريخ الاس اس تهز المنطقة.

أتذكر الرفيق نعمان. لم يكن يتكلم كثيراً. اذا قلت له صباح الخير يردّ عليك. واذا لم يجلب له العم زيدان كأس الشاي فانه لا يطلب أبداً.

ـ من الدفتر السادس ـ

□

٦ تموز ١٩٧٦
الساعة العاشرة والنصف ليلاً.

منذ الثالثة بعد الظهر لم أفعل شيئاً سوى النظر في أشياء الشقة التي تركها

لي عمّي منصور. وحدي. أفكّر بالأهل في نابلس وأحزن على أبي وقرشه الأبيض. لقد خاب أمله فيّ. لن أذهب الى نابلس بعد الامتحانات لأنها مغامرة. قد يعتقلونني. أُفكّر بعمي وبرسالته الأولى والأخيرة. أُفكّر بالشباب الذين استشهدوا، وببيروت التي أحبّها والتي تشتعل حتى الآن منذ ١٥ شهراً. كرهتُ الأصوات العالية، وضجيج الناس، وفوضى الشوارع، وقذارة البنايات. كل شيء كريه والمنطقة بلا ادارة او تنظيم. أحسّ كأني مليء بكميات هائلة من الأمور الكريهة وعديمة المعنى.

الاذاعة تذيع أخبار استيلاء القوات المشتركة على عدد من القرى والمواقع و٣٠ آلية عسكرية.

الجو حار مع رطوبة مقرفة. لا ماء لا كهرباء. الفراش غير نظيف والأكل غير منتظم وغير صحّي. بدأت بعض الحبوب تظهر على جلدي. الثياب متّسخة ولا مجال لغسلها، وأنا أخجل من جارتي أُم فايز. خصوصاً غياراتي الداخلية. رأسي يؤلمني ولا أستطيع النوم.

منظر الشقة مُبَهْذَلْ ومُزْرٍ. وسخة وكلّ شيء مبعثر. ليس فقط بسبب عدم وجود الماء. بل أيضاً لشعوري باقتراب السفر. لم تعد هناك أهمية للترتيب. أعذرني يا عمي اذا تركت شقتك هكذا. سأرتبها عندما أعود. فما دام التفكير مشوّشاً والرأس دائخاً فلا معنى للبيت المرتب.

أطفأت الشمعة.

سأحاول أن أنام.

ـ من الدفتر السادس ـ

# القسم الثالث : وقت أخير

# 1

«كم من الحواجز علـيّ أن أجتاز؟.

كم من الشرفات الخائفة علـيّ أن أتخطّى ظلالها، وأمرُّ عابراً شوارعها حتى أصـل الى ذاك المنـزل؟. ولكن: هل سأجد شبابنا فيه؟. والعيون المتخلّعة، الجاحظة، النافرة من محاجرها، والـمُطفأة في وجوه مسلّحي المنطقة، تلك المترمدة غير الحليقــة؟!. أهي عيون غافلة عن جسمي الغـريب إن هي غفلتْ عن الشبـاب!. قد تفـطن الى انني لست من الحي! قد تبرق شهبُ التحسب في خلاياهم، ويفيق الغضب ويضرب!.

مخاطرة.

حسناً، انها مخاطرة. ولكن خطوة التراجع باتت أميالاً. وحواجز الخلف التي اجتزتها لا أُراهن على غفلتها الدائمة.

اذن: كم من الحواجز علـيّ أن أتخطّى؟. ربما حاجز الخوف هو الأول. وهو الأخير.».

طلعَ من روحه، تلك اللحظة، صوتُ ثريا المنفيّة: أنت مجنون! تدّعي الشجاعة وتضع نفسك في جُب الضباع؟. تُلقم رأسك لفم الذئاب!. مجنون. دينك لن يحميك. أنت تدرك هذا أكثر مني. الدين ليس المسألة. أنت قلت لي. لا تذهب. أقـاربـك لا يحمـونك. قد يودون بك. اكتفِ بالمهاتفة وابق لي. أحتاجك. لا تذهب. ابق. لا تذهـ...

الحاجز الثالث والخطر مفتوحٌ على المدى.

ها البيت الكبير. الحديقة الرابضة وراء السور القديم. وراء الحديد الأسود المشغول بعناية لا تكلّ لتخلق من المعدن أوراقاً لتوتٍ وعنب. حاجزاً من ورق التوت والعنب المعدني. يدخل البوابة الثقيلة. أشجار في قدم العمر الطويل. حشائش وحشية في الممرات المتربة. سيقان كستها ألياف فما عادت للشجرة رشاقتها. تورَّمَتْ. تضخّمت مثل أعمدة خرسانية. مثل حواجز ثابتة. اسمنت وحديد. كأنها قوائم خيول جرّ المحاريث. غبية. ثقيلة الأكفال. لا تقوى على العدو في المسافات المفتوحة. يضطرب شيء بين قدميه. يجفل. تختبىء سحلية في دغلٍ صغير من نبات لا اسم له. تقوده خطواته الى الأمام. تقوده نحو البناء القديم فيراه. عالٍ بشرفاتٍ نغلت الأتربة والريح في حجارتها وأصصها المرصوصة بين الأعمدة القصيرة. يستردُّ شجاعته ويقدمُ على خطوةٍ جديدة. يكون قد امتثل لحكمة أمه: المهم القلب الصالح. لا خوف عليك! . لكن صوتاً باغته في اللحظة ذاتها:

«أنت نذير باسيل؟ . . ».

التفت صوب مصدر الصوت.

يتسلل بخطواته السريعة، الخفيفة، في المسارب المحايدة. يمرُّ وفق خريطة شباب الرصد. المسدس تحت قميصه عند الظهر. ويتوغّلُ في الأطراف مقترباً من داخل منطقة الآخرين.

تنداحُ الصور القديمة والأحاديث لتعيده الى اليوم الأول.

ذاك الأحد. بعد الظهر. وقت القيلولة. مأخوذٌ بالقدم المحيط به. مظاهر العراقة في أشياء المكان. السقوف العالية المزنّرة بتشكيلات جصّية طراز لويس السادس عشر. الثريا الهائلة وقد تدلّت من منتصف السقف، واستقرت في قلب فضاء الصالة. فوق الطاولة المستديرة أمامه. يذكرها جيداً. الطاولة المفروشة بغلالة رهيفة حليبية اللون. تلك التي خمّن انها مشغولة باليد. «قد تكون من حاجات العائلة منذ زمن حلب»: فكّر. والتدرجات الناعمة بالخيط البنفسجي تسقط من ملاسة السطح، كالشلال الهادىء، وتنفرش متدلية نحو الارض بخفّة. لكنها لا تصل. ينتهي المفرش قبل الأرض بما يقرب امتداد الكف. يذكرها جيداً. لماذا؟. ألشعوره بالحرج والارتباك وهو يجابه نظرات المرأة المشرفة على الستين؟.

أم هي المظاهر قد أسرته وأوقعت في قلبه لحن السحر المنوّم؟ .

ليس من خوف هنا. هدوء. دِعَة. وهواء يردّ الروح. غير انه أحسّ أن في المكان قوة لا تُرى. قوة لا تُخفىٰ أيضاً. يشعر بها حالما يبدأ بالتفكير فيما وراء مظاهرها: السجادة الفارسية التي بُسطت من جدار الصالة المقابل حتى الجدار خلفه. «كم ثمنها؟»: برق السؤال في خاطره وانطفأ في الحال. ساعة الحائط القديمة. زجاجها المزخرف بالذهب. بندولها المنتهي بدائرة تراوح في مسافة محسوبة. ليست الساعة وحدها. كل شيء محسوب هنا. حتى الكلمات. الترحيب الفاتر. المتقطع. المتردد. وهو موزّع على مساحات الانشداه. ليس فاغراً فمه. ليس مُضحكاً. لا. ليس مُضحكاً أبداً، لكنه ليس هو. أحسّ بتغيّره دون الحاجة الى مرآة. «عجيب!»: همس لنفسه حائراً، ولم يستطع الاستطراد في تأويل او تفسير ما اعتراه من تبدل. ترك هذا الى حين رجوعه الى الشقة. قد تساعده ثريا. لكنها سوف تستقبله بواحدة من ثوراتها الهائجة. هو يعرف هذا. سوف يردُّ عليها ـ كعادته ـ بوجوم أخرس. سوف يرشح العرق من صدره حتى نهاية بطنه. يتركها تصخب وتتنقل بعصبيّة أمامه. ستكون مثل ذبابة تلقت ضربة. لا يملك من الكلمات ما يردّ عليها بها. ليس للمنطق في مثل هذه الأمور مكان. خائفة عليه. خائفة وحسب. وهو؟ . . لا يرد. لأنه يعرف أيضاً ان ليس للمنطق مكان عند المحبين الخائفين. أو للتبرير.

تشتعل الذكرى في روحه. يتوقُ الى ثريا. هاكلماتها تنبتُ في رأسه فيأخذه الاكتشاف. قالت يوماً: كونك لا تملك أن تردّ على الحجة لا يعني صحتها. أو بطلان ما تقول. وكانت تقصد نفسها.

تذكر هذا الآن. الآن فقط. يلوم نفسه لأنه كان أهوج، ولم يلتقط المعنى. تركها تتلوى من الغيظ. «تأكل نفسها» لأنها عاجزة عن تفسير أزيز النحل ـ هكذا قالت ـ المدمدم في رأسها.

«وتندم؟ .»: يجلد ذاته.

لا مكان للندم. وها جميع الأركان تفشي سرّ الموت المتخفّي.

«ماذا أصابني؟ خائف؟!».

يشدُّ قامته لكن قلبه يتساقط بين حذائيه.

«لا خوف عليك. .»: قالت أمه. وكانت خائفة. «المهم القلب الصالح».

أقسمَ بايماناته المتراجعة أنه لا يريد شراً بأحد. مهمة تبليغ ليس الآ. لمصلحة الوطن. من أجل الوطن الـمُباح للجميع سوى لابنائه. راودته صورة أبي الحكم فجأة. لا. لقد استدعاها. لم يدرك انه يواجه عدوه في عرينه وهو عارٍ حتى من عزيمة الذود عن رأسه. «هل خارت قواي!». لا أحد يسمعه وكلهم يرصدونه. يرونه. يتشممونه. «كلاب!». يقذفها من عمق قلبه. يتشممونه، فتدوي طبول صدره، وترتجف الملائكة في عروشها ترقباً.

تك. تك. تك.

يفصحُ الحائط عن لغة الوقت الذي مرّ. يتذكّر. يرجع الى المرأتين اللتين تسألانه. تستفسر السيدة الستينية:

«أين تسكن؟».

يستجيب كالنابض، ويجيب خارجاً من الذهول:

«أبو شاكر.».

تنعكس الحيرة في العيون. يصمتُ لثوانٍ تكفيه لتأمل شعرها المترمد اللامع. القلادة العظمية لرأس امرأة تدلّتْ واستقرّت على نحرها المتثني الجلد. يراها ترمق الفتاة الجالسة على يمينها. القريبة من النافذة المشّرعة. كأنها تستفسر. تقلبُ الفتاة شفتيها وتحدّق به.

«أين هذا؟». تسأل السيدة.

«في منطقة الجامعة. بيروت العربية.».

«يعني البسطة؟».

«ليس بعيداً عنها.».

«منطقة السُنَّة!».

لم يُجب. أباح لوجهه أن ينطق باشارة استغراب دهشتها. تحرك شيء في الجو - القوة الغريبة غير الخافية غير المرئية -. انجذبت عينا الفتاة اليه. تراجع ظهرُ السيدة كأنها صُفِعَتْ. تضاعف ارتباكه.

«ألا تخشى السكن هناك؟!». سألت السيدة.

«لماذا؟». قال مواصلاً استغرابه. لكن الفتاة عاجلته بنبرة متحسبة:

«تسكن لوحدك؟».

«لا. مؤقتاً مع صديق.» كذبَ مخفياً ثريا في السـرّ.

التقطت السيدة الجواب. واصلت:
«سُنّي؟».
فذهب مع الأسئلة وقد أدرك الاختلاف الذي أشار اليه والده.
«لا أعرف. صديق فلسطيني.»، وبادر بطرح استغرابه هو: «لماذا؟.. أراكما منزعجتين.».
«الابن لأبيه.». همست السيدة، وقالت: «عائلتكم على هذا المنوال.».
ثم توجّهت بنظراتها نحو الفتاة: «هل تسمعين؟. فرانسواز، هل سمعت ما قال؟!. انه يسكن مع فلسطيني أيضاً.».
نظر الى الفتاة فرآها تحدّقُ به. ورآها تفلتُ من فمها المشدوه: «نعم. سمعت يا خالتي. سمعت!».
أشعلَ سيجارة فاكتشفَ رجفةً في أصابعه.
«ألا تخشى أن يدسّ قنبلةً في فراشك؟!». قالت فرانسواز، المُشرفة على عُمر الطزاجة. أجل. سمعها تقول هذا. «قنبلة في فراشي!. ثريا تتفجّرُ في الفراش وتتطاير أشلاء فنرحلُ معاً الى السماء السابعة. يا للمعجزة. قنبلة في الفراش!».
خوفٌ حقيقي في عيني الفتاة. ريبةٌ تتسلق وجه خالتها وتتوجُ رمادَ رأسها. تنتزعُ الدهشةُ الصوت من حلقه:
«يدسّ قنبلة في فراشي؟. أهذا ما قُلته؟».
تهزُّ الفتاة رأسها. تتحرّكُ خصلة من شعرها الكستنائي الضارب الى الشقرة على كتفيها. تؤكد له. يتراجع بعينيه عن وجهها الذي استطال قليلاً. يدعهما تنزلقان على الأشياء أمامه: السجادة الفارسية تتداخل ألوانها وتسيحُ كأنها أمواج بداية المدّ. يتدفق شلال الخيوط البنفسجية هادراً من على سطح الطاولة الأملس. يزبد واصلاً الأرض. يصل اليه رذاذه لكنه لا ينتعش. تلتمع الثريا الهائلة وتبرق بلونٍ هو الفضة، أو كالماء المعتكر. تُضيء وتنطفىء. يهدد ثقلها بالوقوع وبتفتت كُرات كريستالها الدقيق. يقترب السقف الشاهق. يتدلى. يتشرخ دون صوت. لا يدانيه. لكنه يهبط ببياضه فيراه كالكفن الخشن يُسدل متطايراً فوقه. يسمع أصواتاً. يتذكّر حديث أبيه عن السفن المبحرة بالناس من مرفأ بيروت الى النجاة على أرض القارة القصية. الفرار من وجه مجازر قد تأتي، مثلما أتت مجازر، ومرّت

جارّة في ذيولها دماء لطّخت السهل حتى انحدارات الجبل. تتسع الصالة فتصيرُ ساحة تشعُّ بالبلاط النظيف. تضيقُ الصالة فتستحيل الى حيّزٍ يختنقُ بشاغليه.

تساءل كيف أتاه كل هذا!

«نذير باسيل سمعان الحلبيّ من حلب. كيف أرى ما رأيت وأسمع ما سمعت؟!».

لا يقدر على الاجابة. لا يقدر. لكن الصوت ينتشله. يفيق.

تك. تك. تك.

نصف ساعة. زمن مضى. يتراقص البندول، خلف الزجاج، في مساحته المحسوبة، وعيون أربع ترصد نذير الحلبي. ترمقه. مفتوحة عليه ويودّ لو تبتلعه ليتخلّص من تحرّج بات يخنقه. هو الغريب العجيب الشأن. لكن الحركة التي صدرت من خلفه، ووقع الأقدام على بلاط الردهة، ردّه الى صحوٍ أشبه بالصدمة.

يستدير.

يرى شاباً يافعاً يقترب وقد أدركه تردد ما.

يقف.

يكون الشاب في مثل طوله. أو أطول قليلاً. يمدّ له يده. في عينيه سحابة سؤال. يمدّ يده. في وجهه نضارة فقدها منذ سنوات. يتصافحان. تفضحُ يد الشاب نعومتها. فوق فمه رجولة تخطُّ شارتها الغامقة.

«جوزيف. ابن شقيقتي.». قالت السيدة. ووقفت في وسط الصالة.

خطت الفتاة نحو أخيها. خاصرته بعبث ومشاكسة. إرتّجَ صدرها الصغير المتحرر، تحت قميصها الأبيض الشفيف.

«كيف التدريب اليوم؟ تصويب على الهدف؟».

تحرّج الشاب واحمرّت وجنتاه. توحدتا، في لونهما، مع الشعار الـمُلصق على كتف قميصه الخاكي: رأسُ نمرٍ فاغر شدقه!.

«لا. درّبونا اليوم على اقتحام المواقع.». قال الفتى.

لاحظ الحلبيّ ان الشاب يرتدي بزّةً عسكرية. وأن شقيقته فخورة به. وأن خالته تعمّده بنظراتها الجذلى.

تدعهُ الحواجز يعبر. يمرّ. لكن المدى المتدرج في طبقات العتمة يفيض بالموت.

«ليس لنا الخيار. أنت رجلنا. ان دينك يؤهلك للمهمة!».

يغصّ بالخوف. لا يدّعي بطولة. إنما المسألة أن لا خيار..

«اذن. ليست مهمة بدلاً من مهمة. ليس الأمر سيّان. قد يكون حتفي!».

ويسأل نفسه: «نذير باسيل أين اختفت ابتسامتك الـمُرّة؟. روحك الهازئة من أشياء الأمكنة؟. تُراك فقدتها في الجانب الغربي، أم خلعتها هناك كي تجابه ما يحتاج الى اكثر من هزئك وسخريتك؟. أنت لا تعرف. لا تعرف. حتى الصوت الذي هبّ فيك رافعاً إيّاك الى اتخاذ القرار. وأي قرار؟. أن تضع رأسك في أفواه الذئاب. أو النمور.

لا خوف عليك. المهم القلب الصالح. تميمة أمي. شفاعتها الطالعة من القلب. الحالمة بعرش السماء يسمعها فيصونني.

صانني الذي على عرشه ياأمي. صانني، غير اني أرى انحداري في جرف غامض. عتم بلا قرار أو ضوء.».

## 2

دخلت السيارة منطقة شبرا حين استيقظ. فتح عينيه منسلاً من اغفاءة احتوته عندما غادروا قليوب. احتلّه شعور جديد مذ هاتف ثريا صباح اليوم. شعور غامض نحو نذير. قرأ الجريدة، ولم يكن سقوط المخيم مؤكداً. ثمة الشيء الخفي، الزاحف اليه، يقبضُ على داخله. أحسّ بكتفيه ينضغطان بين السائق على يساره، والراكب السمين على يمينه. مرّت عربة كارّو، ورأى فوق صندوقها المتخلخل امرأة نائمة. ثوبها الأسود كامد مغبر. رأسها يرتج على ضُمة خضار كبيرة. عبرت السيارة الشارع المزدحم بصعوبة. كان السائق يشتم فيما خرج من المسجلة صوت أم كلثوم تغني هل رأى الحب سكارى مثلنا؟. انعطفوا على يسار عربة الكارّو، فرأى لوحة كبيرة للرجل بالزي العسكري، وتحت ابطه عصا الماريشالية.

صار النيل على يمين سيارتهم البيجو البيضاء الستيشن. غباشٌ يغلّفُ وجه القاهرة الممتدة والمترامية في أُفقٍ رصاصـيّ. مداخن مصنع. آذان العشاء في المآذن يرتفع. تسلكُ السيارة طريقها بسرعة اكبر. يأتيه هواء منعش فيفيقُ تماماً.

أخيراً. القاهرة. الخيط الفاصل بين الليل والنهار. مدينة ثريا.

يكبر شوقه الى المجهول الذي سعى الى اكتشافه مذ صعد الى السفينة بلا نذير. وها هو في القاهرة بلا زاهر. وحده. تقترب السيارة من موقفها الأخير.

لم يستقل القطار الذي كان سيلزمه، إن فعل، الانتظار ثلاث ساعات. وكان عليه، أيضاً، أن يُمضـي هذا الوقت مع زاهر. تحجج بأن عليه أن يصل الى القاهرة قبل حلول الظلام. فالعثور على شقة جيدة ليس بالأمر السهل. قال. لا يحب الفنادق. لا يحب الارتهان الى الخطوات المحسوبة والعامة. قال لزاهر بأنه يريد ان يقضـي اسبوعاً كاملاً في السرير. يريد أن يرتاح وأن ينسى. ينسى شهـور بيروت الأخـيرة. والـرصـاص. والقصف العشـوائي والهادف. والموت بالصدفة. والعيش على الصدفة. وكان يُضمر تمزيق الهالة التي تتحصن ثريا خلفها.

انتقل الى سيارة تاكسي. أخبر سائقها عن هدفه، وقال بأنه يفضّل الدقي. ابتسم السائق وقال، بعد ان انتبه فأزاح الفوطة الصفراء عن العدّاد، بأنه يعرف بناية دي لوكس! لكن ايجارها يا فندم.. يعني ايجارها..، وتلكأ. فقال له خالد الطيّب أن الأمر ليس مهمًا. وان المهم هو النظافة. لا. من الناحية دي مايكونش لك فِكر. نظيفة جداً.

كانت السيارة تمرّ، تلك اللحـظة، فوق الكوبري باتجاه أرض المعارض والدقي. نغلت الأضواء في الليل الذي طغى. أنوار كازينو قصر النيل على الجانب الأيسر. مصابيح الجسر على الجانبين، وقد انعكست انارات البنايات العالية على صفحة الماء المعتمة؛ فبدت مثل الارتعاشات.

سأله السائق بعد فترة صمت عن الجهة التي جاء منها. بيروت. قال. دي حاجة صعبة أوي. بيقولوا في الراديو الحرب هناك لسّه شغّاله: دي حاجه مش كويسه يا فندم. حاجه وحشه. ثم سكتَ لثوانٍ قبل أن يتذكر: بيقولوا عنه ايه؟.. آه الزعتر. حاجه زي كده. جبل..، قاطعه خالد الطيّب وهو ينظر من النافذة صوب يافطة ملهى يغنّي فيه محمد عبده: تل الزعتر. فردّ عليه السائق بعفوية، وهو يقود سيارته في زحمة شارع سليمان جوهر المسائية: أيوه يا فندم. عليك نور. تل الزعتر.

خلّفا ميدان الدقي خلفهما، وتوغلا في استقامة الشارع العريض الـمُضاء. بيوت واطئة. فلل. مقاهٍ شعبية ومطاعم صغيرة. بنايات عالية. ثم انعطفوا نحو اليسار في شارع ترابي. بعض البنايات فيه ما تزال قيد الانجاز. أوقف السائق سيارته في عطفة شبه مظلمة. قال للطيّب ان ينتظر حتى يرى صاحبة الشقة.

وغـاب في مدخـل البناية المظلم. مرّت دقائق أمضاها الطيّب بتفحّص طبيعة الشارع. رأى على اليمين بقالة صغيرة. ورأى، الى جانبها، دكّاناً للكواء. أشعل سيجارة. أخذ نفساً عميقاً، ثم خرج من السيارة. دار حولها خاطياً على رمل ناعم عندما ظهر السائق. قال ان كل شيء كما يريد. شقة نظيفة. كان في أثره رجل ضخم بجلابية فضفاضة. تناول الحقيبة الكبيرة من صندوق السيارة. وسار خلفهما.

لم يدقق بمحتويات الشقة. كان متعباً. وافق على الأجرة التي طلبتها السيدة الاربعينية. وأغلق على نفسه الباب.

خرج من الحمام بعد أن اغتسل ولفّ نصفه السفلي بالمنشفة. سمع رنين الجرس، فقام وفتح للسائق الذي دخل حاملاً كيساً ورقياً طافحاً، أسند ثقله على صدره. شكره، وناوله من الجنيهات التي جلبها معه. وعاد ليغلق الباب خلفه.

أخرج زجاجات البيرة ورتّبها في الثلاجة. فتح واحدة ومشى نحو الصالون. كرع من فمها حتى ثلثها. تجشأ. تسـرّب اليه دفـء لذيذ وراحة. أشعل سيجارة. ثم أخذ بيده الورقة من على سطح الطاولة الواطئة.

أنا الموقعة أدناه صبحية أبو الفتح البلبلاوي أُقرّ بأني أجّـرت الشقة الكائنة في ٣ ش صلاح سالم بالدقي، وراء المطافي، الدور الثاني، رقم (٦) للمدعو خالد سميح عبدالله الطيّب، عربي الجنسية، ورقم جواز سفره ٤٦٣٨٨٥ الصادر بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢، والمولود عام ١٩٤٨. وذلك لمدة شهر كامل يبتدىء من ٧٥/٨/٢ وينتهي في ٧٥/٩/١.
وقيمة الايجار الشهري (٦٠) ستون جنيهاً مصرياً قبضتهم بالاضافة لمبلغ (١٠) عشر جنيهات تأمين.

على ذلك أوقع

المؤجرة — المستأجـر

طوى الورقة ووضعها الى جانب زجاجة البيرة. قام وأطفأ ضوء الصالون، مبقياً على ذاك المنبعث من الحمام، والذي شعّ طويلاً على بلاط الممر. كرعَ البقية الباقية

من الزجاجة. لم يكتفِ. ثمة صحوة تمسك بدماغه وتهزه. يفتح أخرى ويغرس نظرته في الجدار العاري أمامه. يسكن للحظات. ثم يرفع رأسه ليحدّق بالسقف الذي تعرْبَشتْ اليه إضاءة الحمام.

**لا شيء يعلو هامتي غير السماء!. فكّر.**

**لكنها سقف جامد وأعمى. أنا خالد الطيّب ابن النكبة والهجرة. ولدتُ مع زوبعة الثلج المزوبع ليلاً. دائمًا يكون الليل موعداً للثلج. خرجتُ ملفوفاً بالدم وابتهالات البشارة. ذكر. وفي الخارج ابيضّتْ الأرض تحت فضاء بهيم. يغسلُ** الطبيب يديه، ويناولني للداية «الحاجة أنيسة». ويقول بلهجته الرخيمة: هلّق بنقعد وبنشرب القهوة. وكانت العاصمة الصغيرة تتشرب الندف الثلجي وتفردُ صدرها لمزيد من جحافل المهاجرين.

المنتصف من الشهر الثالث من العام ١٩٤٨: مولدي.

العيون محتدمة بأسئلة عن الآتي. محرورة من السهر الطويل. القلق اللاعج في الروح. البرد المتناوب في جولاته مع جمرات «المنقل» المتوهجة. تعرّق زجاج النوافذ. الدفء من داخل والصقيع في الخارج. امي الطالعة من هاوية الموت الى شاطىء الحياة. حياة من حياة. وريد من وريد. يُقطع حبل السرّة. الحبل السّري. تنفصل حرارة الرحم عند البطن. أتلوّى. تصفعني «الحاجة أنيسة» على مؤخرتي فأصيح. أصرخ لغةً وسط صمت القلق. أثقبُ ليلاً كالثلج بفعل الثلج وزحف المهاجرين من الغرب يتوالى مع هزيم الريح.

وكان حصار.

الثلج في الليل. تتوارى الحجارة والأسقف والعتبات والدرجات ورؤوس التلال السبعة. تتجمد ضفاف السيل وتتغطى جدران المنازل الشركسية، المبعثرة على ضفّتيه، بالندف. تنحجب النوافذ وتستتر بجلاله الأبيض. يطول الثلج ويطول. تتفجّر المزاريب وتتصدّع الحجرات وتذهب مع أساساتها في بحيرات الطين الزلقة المبيضّة المتيبّسة وليست بيابسة. مستنقعات تفتح بطونها الباردة للانهيارات والمنهارين. تبتلعهم الى الأبد. كانوا وما عادوا.

عادت السماء، فانقشعت الزرقة تجاهد مختنقة بين طبقات الغيوم. ذاب الثلج وطفقت الأرض ترسل أمواهها بانبجاسات لا تتوقف. ماء بارد وأمواج من سمك ميت. مهاجرون لفحهم الموت والصقيع من الغرب، فارتدّوا الى الشرق،

وبانوا مثلما الينابيع المتفجّرة. العيون حمراء. الفكوك تصطك. والبخار يخرج مع زفراتهم فلا يرون إلّا الانهيار الخارج من أكوام الطين والثلج الذائب.

أذكر أن أبي قال: ان المصائب لا تجيء الاّ مجتمعة.

جاءت عمتي مع من عصفت بهم النكبة. اكتظّ بيتنا بوافدين جديدين: عمتي وأنا. دخلتْ الجرائد البيت. دخلت الأحاديث في السياسة. عمتي تجيد القراءة وتتقن الكلام. تفيق في السابعة. تصنع القهوة للجميع. تسرد قصص المدن البحرية. والقرى. وجيران المنزل الذي ما عاد لهم. أغلقوه واحتفظوا بمفتاحه. لكنه لم يعد لهم: لم يعودوا اليه. عمتي لا تعرف البكاء، ولا تتنازل عن قسطٍ يسيرٍ من تماسكها الصلب. مات زوجها هناك. حزنت بصمت. ارتدت السواد. كست وجهها ملامحه العادية. يممت شطر الشرق مخلّفة بحر يافا.

نحن لا نعرف البحر. لكنها خلقته فأخذ يكبر معي ويكبر حتى استحال الى حلم وحّمى.

نحن لا نعرف المدن. أبناء قرى كبيرة. والعمّة لا تتعب من الحديث عن بحرها والمدن.

أفصحتُ في يوم لنذير الحلبيّ عن هذا. قلت له ان حياتي متناثرة. مبعثرة. موزعة هنا وهناك. تارة على حُلم البحر، وتارة في مداخل البادية. لا هي بصحراء تتحركُ رمالها وتتهضب وتمحي. ولا هي مدينة أضيعُ تحت ناطحاتها وبين حشود سكّانها. لستُ بالبحري. لستُ بالمدني. لست بالفلاّح. لستُ بالبدوي.

لكن الحلبيّ لم يعلّق، تجرّعتُ آخر ما كان في كأسي: أأنا هجين؟!.

«ربما.». وضحك مؤكداً على جديّة الاستنتاج. فانتفضت متشككاً: أكادُ أكون. بل كنت وما أزال رغم مجاهدتي لأن أنتقل من شيء الى شيء. من هجين الى أصيل. من شريحة الى طبقة.

قاطعني هذا الذي اذا أراد أن يكون جلّاداً يستطيع:

«جميل أن تشّفَ هكذا وتفيض. ولكن لا تغالط.».

تساءلتُ بعينيّ، وكان رأسي قد ثقل.

«لا طبقات عندنا. لدينا نظريات.». قال.

ولم أدرِ كيف أقنعني، فسايرته كأنني اكتشفتُ الذي لم يُكتَشَف: أجل. معك حق. نملك نظريات عن الطبقات مثلما نحتاز شواهدها. ثلاجات جنرال

الكتريك الاميركية. تلفزيونات سوني اليابانية. محركات جنرال موتورز. غسالات فيليبس الهولندية. سيارات مرسيدس الالمانية. آلات سنجر للخياطة. مربّى فاكهة جنوب أفريقيا. مكانس الكترولكس السويدية. ملابس وألعاب تايوان وهونغ كونـغ. أسلحة الشرق والغرب. لماذا نخسر الحروب؟ . . لا نخسرها انما هم يخسرونها. طُزْ! . . نحن الخاسرون. مطرقة تدقّ رؤوسنا. مناجل تحصد جنودنا. ويقولون الخطر الأحمر. لون رايتهم حمراء. حمراء وزرقاء. بيبسي كولا. الولايات المتحدة ونجوم بعددها. أرونا نجوم الظهر. حصلت المعجزة يا رفيق وصرنا نرى النجوم في غير أوانها. تغرب الشمس في الظهيرة. تسطع النجوم في رؤوسنا. آه يا رأسي!

أرى وأسمع ما لم يره نذير ولم يسمعه. أرى فتاته ثريا في البار المغمّس باللون الأحمر والأغاني الصاخبة. أسمعها تقول لي، عندما جئتها في المرة الثانية، وكانت قد تركت الزبون لتكلمني: أنت لا تفهم. فمددتُ يدي الى ذراعها، غير انها نترت نفسها، وقالت دون أن ترفع صوتها: انتهى. ألا تفهم؟!.

جرحتني وفهمت انني أتطوّح بينها وبين المدام. وأني بينهما لستُ أكثر من مُضيّع لنفسه. لم اكسب ثريا، وعجزتُ عن الاحتفاظ بالمدام في داخلي. داخلي غير متوازن وثريا نقطة التوازن. لكنها رفضتني وفضّلت أن تكون لنذير الحلبي فقط. وها أنا في مضيق المابين من جديد. من جديد؟ . . أنا في المابين دائمًا. بين الكتب والفعل الحارق. بين الهروب والمواجهة. بين خجلي وجملة العجوز: أنت لا تنفع. بين الحب المستحيل والحب الصعب. بين الخيانة والوفاء. لقد قالها المدرّب بصراحة. قالها قبل ثماني سنوات. تردد، لكنه قال لي، وأنا أذكر كلماته جيدا: ان أحداً لا يعرف كيف ستكون . . يا رفيق . . في النهايات.

ليس المـدرّب وحده. مارس هذا معي عقاب الطالب أيضاً. قبل سبع سنين. زمن الحريق الكبير. ولكن تلك قصة أخرى. وكذلك المدام. هي أيضاً كشفت عن هذا المابين اللعين واللعنة.

أجـل. انني أتـذكّـر الآن. يهجم المدّ. أتذكر كيف باءت محاولة هربي بالفشل. قالت لي المدام ان المابين صفة ملازمة لي. لم أتحمل. كانت كأنها تُدخل اصبعها في الجرح. هجمتُ عليها واشتبكتُ معها في لعبة الجنس. كنتُ أُريد الانتقام منها ومن المابين. استجابت، وسفحت لي من نفسها كما أشاء وتشاء لعبة

اللذة الحارقة. لم تعترض. شاركتني. ولكن.. ماذا بعد؟. اني أتذكّر. فالمدُّ يأتي معاوداً هجومه: إذ لـمّا سكنتْ، بعد أن جفّ العرق على جسدينا، أرخت رأسها على صدري. توقعتُ انها تذهب في تصوراتها الى حيث لم أصل يوماً. الى حيث لم أحلم يوماً أن أكون. أن تطوفُ في عوالمها تلاحقُ طيفاً. تتعقبه في الساحات ذات الأرصفة المبلطة بأحجار قديمة. تقتفي ظلّه في فوضى الأشجار الغائصة بين أمواج النور المتساقط وانثيالات شلالات صغيرة. أجل. ها هي تركّز ذهنها وتنفذُ الى البقعة حيث لم أحلم أن أكون. ها هي تتهيأ لمتعةٍ اخرى. للذةٍ مختلفة، لو طقتُ على ولوجها للحظة، لأزلتُ محسوسات الكون بضربة واحدة. لكنتُ ولجتُ فيها وأبيتُ الـبَراح. لكنني لا أستطيع. تجذبني قوة الى الخلف. أقوى مني. أنا أضعفُ من أن أسبرها. إلهي!.. ها هي تشخصُ الى الطيف يتطاير في البقعة الشفّافة. بين النور وخرير الشلالات الصغيرة. ها هي تراه في ألوانه جميعاً. في رقطته الزاهية الوهاجة. في رقصته السماوية. انه يتطاير طيفاً على أطياف من الجنة. تعبق روائحه وتنتشر وتنسرب وتتسرب وتتسلل وتنسلّ حتى تصل اليها. تصلُ المدامُ فتقول شيئاً في نفسها. عيناها تطرفان. ربما تقولان: هوذا الوصول بعد الوصول!.

عنـدهـا ارتعشُ أنا. أفيقُ على جسدينا الباردين. أرى جسدها يرتعش بدوره. أسألها:

«ما بكِ؟».

«رأيتها بكامل ألوانها!».

فأستزيدُ علّني على خطأ:

«مَنْ؟».

فتجيبني وهي سابحة في شرود بعيد:

«الفراشة.»!.

أدركُ خيبتي. أدركُ انني أقترب من داخلها المتوهّج. أقتربُ فعلاً.. الاّ انني لم أصل اليه. لم أجه، حتى اللحظة، بعد!.

ليس من سبيل للفرار من المابين.

ليس الجنس بالكهف المخبيء للتطوّح.

ليس بيدي ادارة الظهر للذي حدث. انه يطاردني.

وأتساءل: كم من عُمرٍ سأمتدُّ به حتى أتعرّف خبايا وجوهي المنطوية؟. كم من مروان سأضيّع كي تتشكل، في يدي، حقائق مثل الحجارة. صلبة مثله؟!.

قلتُ لنفسي لـمّا صرتُ في بيروت: ما زلتَ في الماضـي غارساً قدميك. هاك بيروت مفتوحة لك. هاك المدينة استقبلتك دون عداء ولا جفاء، فعشْ. الماضـي في الماضـي، والحاضر لـمّا يزل يتكوّن ويتطاول نحو المستقبل. ولـمّا تزل تحياه. خُذ.. واستقبل.. وانس. هيّا.

نفضتُ رأسي، فارتجّ، وتعكرت الأمور. اختلط حابلها بنابلها. قلت: اذن؛ هي المسائل ليست صافية رائقة فانتظر. عش وانتظر.

فعلتُ، فلم أرَ سوى وجه مروان غارقاً بالعرق حتى الرقبة. رأيته يتضوّع عرقاً. رأيتُ رقبته الغليظة تلتمع بفعل نبض الوريد المنتفخ فيها. سألته عـمّا جرى، قال انه سيذبحهم من الوريد الى الوريد.

كان الدم في عينيه يتلوّى.

قال انه سيلاحقهم حتى أقاصـي الأرض. يتتبعهم الى وسائد نسائهم. لن يفلتوا منه. من العقاب.

«وما أدراك أنت؟». قلت

«عقاب الطالب أمرني. وسأنفّذ..».

«وستنفذ؟!».

«مهما طال الزمن..»!.

نفثَ وعيده وتبخّر في أزقة الفحم وشوارعها. الدمُ في الشوارع. الدم في الشـوارع لم ينـظّفوها منه بعد. هناك رائحة ما. غريبة على الجميع. يشمّونها ويتغافلون عنها. تبخّر مروان في الشوارع والأزقّة. نفذ في رائحتها فما عدتُ أميّزُ بينه وبينها صار هو هي. تلاشى أمام عينيّ وضاع. صرختُ: مروان، أين أنت؟. فلم يُجب. صرختُ أكثر. صرختُ أعلى. صرختُ بارتفاع سمت السماء وعرش الشمس. اكتشفتُ أن صوتي صار بخاراً بدداً. تكشّف مروان عن سُحب مُشـرّبة بدم الجثث التي شالوا ودفنوا مجموعات مجموعات.

تحوّل مروان الى رائحة. الى شوارع. الى دم. الى سحب. الى جثث ما زال الدود ينغلُ فيها وينغل. أصرخ: مروان بن عليك أماني!...

ومثلُ مروان تضيعُ الصرخة في بريّة الفحم.

قلتُ لنفسي: عليك به في المخابىء عند التئام السفح بالجبل.

كان الوقت غبشة النهار لـمّا أسلم ذيله لشدق الليل قبل أن يجنّ. أمامي طريق «عـين الـراس». طويل عريض كأنما بلا نهاية. تتقوّض الضواحي على جانبيه، في حضن الصخور المهشمة والمسننة، كسيوف ثلمت اثر معركة خبت نارها. غبشة النهار. لا شمس تعرّي ذؤابات الجبل. ولا قمر يفضضُ بطون المحاجر المهجورة المكنوزة بألف سرٍّ وسرّ. ألف ليلة وألف أخرى تتبعها والقمر الجافل ما ان يرتعش في الغرب قليلاً، حتى تبدده صرخة ما!.

أتلفّتُ لأتبيّـن الجهة، فألفي البطون غاشمة في انغلاقها المعتم الكتوم. ألقى وخزة القلب خوفاً يهـمّ بي. يركضُ الدمُ صاخباً. أركض. تسبقني سيارة جيب حربية. أتباطأ. ألحظُ تباطأها المتوجس. لا أُصفّر: هكذا أنتَ لا تُريب فلا يأخذونكَ بالمظنّة!.(١)

فاتَ أوانُ السماح وأزف وقتُ الحظر. أصدر الحاكم العسكري بياناً لهذا اليوم الثلاثـاء الأول من الشهـر العـاشر من السنـة الميلادية صفر على يمين العدد..!. أُحصـي بعد البيت الثاني الذي طلاؤه أخضر والذي يقع على يمين طريق المحاجر مسبوقاً بخندق على يمينه أيضاً فيه بقايا «كلس» تلطّخ بياضه بعكرة ماء آسن أغرقَ مجموعة من الجثث التي شالوا ودفنوا، واحدة ـ اثنتان ـ ثلاث ـ أربع ـ خمس ـ ست ـ سبـ.. ها هو الماثل الآن في عتمة السفح ببصيص نوره

---

*ـ يفيد الـمُطّلعون على أحداث تلك الفترة، أن تشديداً أمنياً قد تم فرضه على المدن بأسرها، خوفاً من احتمالات وقوع اصطدامات مسلحة، تزيد من حدة التوتر، وتؤدي الى سقوط ضحايا جدد، بالاضافة الى اولئك الكثر الذين سقطوا.*

*ـ ويؤكد هؤلاء أن حظر التجوّل بعد الساعة الثامنة ليلًا كان شكلًا من أشكال هذا التشديد الأمني. كما يُحكى ان عديدين قد وقعوا ضحايا لغفلتهم، او غير غفلتهم، والمثال على هذا قصة الفتاة الحامل التي ألقى بها والدها في منطقة وسط بين الفـريقـين المشتبكـين، آمـلًا ان تلقى مصرعها بالرصاص المتبادل، ويتخلّص من عارها!.*

الخافت.

فكّرتُ: «كأنما مشهد في فلمٍ محبوك الاخراج!». وأخذتُ أتعثرُ صُعداً في دربٍ ترابي كالأفعى في تلوّيه ورقطته. كالأفعى في ليلٍ تبغتك لسعتها بين الحلم والجزع من الحلم.

عقابِ الطالب نفسه. هو نفسه.

نظرتُ عبر كتف أحد الرجال الذين انسربوا تباعاً. بانَ واضحاً كما عرفته. وافر البدن متماسكاً من الكتفين والصدر حتى استقامة الظهر ورسوخ الوقفة. عرامة شوقه للحياة واقباله عليها متبديان في حركته المستمرة. لم أرَ قسماته إذ جال رأسه في جُزر العتمة. لمحتُ بريق عينيه لـمّا تقدم للأمام قليلاً. أضحىٰ في مساحة الضوء الشاحب. جحيم الشهور التي انصرمت. فحمها الذي كحّل العيون فأورمها وأدماها.

اتكأ على طرف طاولة صغيرة تبعثرت عليها جداول، وأسماء مكتوبة على الورق. قال:

«أهلاً.».

قلت: «أهلاً.».

«ما الذي أستطيع أن أقدّمه لك؟». ـ انه الغليان المغلّف بأدبٍ بارد ـ.

قلت: «أُريد أن أسألك عن مروان.».

وتنبّهت بغتةً الى محتويات المكان. لا جدران بائنة. ارتفعت من الأرض

---

*ـ هذا ولقد ذكر المطلعون إيّاهم أن الاضطرابات قد انتقلت، بعد ذلك، من المدن الى المرتفعات الجبلية. لكن هذا ـ يضيف المطلعون ـ لم يمنع من بقاء بعض عناصر ومظاهر الاضطرابات والتوتر في داخل المدن.*

*ـ ومن جهة أخرى أفاد أحدهم أن عدة اصطدامات قد وقعت في شوارع المدن راح ضحيتها عدد لا بأس به من الرجال العاديين. كما ان عدة وقائع قتل فردية قد حصلت نتيجة استغلال بعض العناصر للجو العام.*

*ـ ومن احداثيات تلك الفترة أن اشتباكاً قد وقع في زاروب الخبز، ماتت فيه متسوّلة، وصبيّ يبيع الكعك، ومسلّح، وبائع جرائد.*

حتى السقف المعتم صناديق زيتيّة اللون. مربعة ومستطيلة. خشبية ومعدنية. التماعاتها تتجاوب وارسالات الضوء الخافت. معدن أسود لأسلحة كثيرة ومتنوعة. ميوعة رائحة الزيت والشحم تعبق من خلل الصناديق.

تنبهتُ الى أنه تجاهلني لدقائق، وسلّم أحدهم ورقة. أخذها الآخر وانتظر. سمعت صوتاً لا يحايد:

«اسماؤهم وعناوينهم. لا ترجع دون عُهدتهم.».

ولـمّا رأى مني علامة السؤال، ردّ بتكشيرة ضاعفت من التثنيات بين حاجبيه الفاحمين:

«الجبناء!. كأننا بغينا من السلاح أن يتباهوا به في حضرة فروج نسائهم!».

صمتٌ.

أطرقتُ وقد وضحتْ صعوبة مهمتي. كيف أبدأ؟ انه عقاب الطالب وليس غيره. الرأي العنيد والألفاظ غير المحتشمة. المهمة صعبة. وصعب هو الطالب. قبل الجحيم طالبَ بالكثير ولم يكن القرار في يده. لكن الآن، والقرار والتنفيذ باتا في رأسه الصلب، وفي يديه الخشنتين؟!!.

لذتُ بأيامٍ مضت. لّجتْ بي رغبة لاعجة لأن أعرف كيف سيكون ردّ فعله. هل سيضرب الطاولة بقبضته، كما في أيام مفاوضات الاضراب، ويقول: لا!. تلك الأيام، كان عقاب الطالب أحد اثنين لا ثالث لهما. قال: النقابي العامل لا يهادن!. ردّ عليه الآخر: وأنت تتصرف كأن الثورة تنتظرك وراء هذا الباب!.

---

*ـ كذلك، وبعد مرور شهر تقريباً على الاشتباك الأخير، استيقظ سكان المدينة على أصوات مدوّية عند الفجر ظلت مستمرة حتى طلوع الشمس. وقال البعض منهم انهم سمعوا بأن اشتباكا كبيرا قد حصل عندما تحصّن فريق من الفريقين بطوابق فندق الشاي، مما اضطر الفريق الآخر الى منازلته بالرصاص والقذائف كي يجلوه ويخليه منه.*

*ـ قال أحد الذين ما يزالون يحتفظون بذكريات عن تلك الأيام، أنه شاهد بأُم عينيه رجلًا مبطوحاً على وجهه وسط البلد. وقال بأنه عندما اقترب منه، رأى رأسه محطمًا والدم ينزفُ منه. «لقد خفت في البداية.»، قال الرجل، وتابع قصته:*

ضرب الطاولة بقبضته، وقال: لا. لا للموقف من الاضراب. وأضاف: نعم. إن الثورة تنتظر وأنا لن أكون كسيحاً.

«عقاب الطالب تمادى»: قال البعض.

«هذا دلال الذي يعرف أنه مميّز»: أردف البعض الآخر. وثنّىٰ آخرون: «كون الطالب واحداً من عاملين نقابيين في التنظيم لا يُعطيه حق رفض قرار القيادة. هذه مصادرة خطيرة ينبغي عدم السكوت عليها!».

كتم الطالب غيظه وسكت. أفضى بما عنده وصمت. لم يُحاسب يومها. اكتفوا بلفت النظر الى ضرورة الانضباط. وبنقد ذاتي.

«جبناء!». ونظر الـيّ في الاضاءة الشاحبة.

«ها؟ اسأل وسأستمع.». باغتني.

«على انفراد.». قلت حاسماً ما كنتُ فيه. وتلفّتُّ الى مَن بقي في الحجرة.

أشار عليهم فانسحبوا. عبقت رائحة السلاح الـمُزيّت والشحم. نعم. هذا أوان الاحتكاك. خرجتُ عليه كأنما أُبادله المباغتة. قلت بسرعة:

«أفرجوا عن الرجل الكبير بالأمس.».

ردّ باقتضاب: «اعرف. كيف هو؟».

«كما تعرفه دائماً.». وأمسكتُ عن البقية لأرى كيف ستتغير ملامحه. ثم أكملت، بعد أن ظلّ ثابتاً، ضارباً على وتر الاحترام الذي يكنّه للرجل: «أرسلني لأبلغك أن تضبط هيجان مروان.». أطرق قليلاً قبل أن يقول: «سأحاول. ولكن

---

*«كان المنظر شنيعاً جداً. أول مرة أرى رجلاً ميتاً قتلاً! . خفتُ ونظرتُ في الناس الذين كانوا يركضون عندما يمرّون بالجثة. لم اعرف ماذا افعل. حزنتُ عليه. فردتُ الجريدة التي كنتُ أحملها، وغطّيت رأسه بها. ثم ركضتُ مع الناس الراكضين.».*

*ـ وفي قصة أخرى حكاها رجل من الذين عايشوا تلك الأيام السوداء انه قال: «لقد تحوّلت بعض الفنادق والمقاهي والزواريب الى مراصد والى مراكز تجمّع يتبادلونها حسب قدرتهم المتغيّرة، وحسب الليل والنهار.». هكذا قال الرجل.*

*كما انه أضاف: «كانت المدينة تفرغ شوارعها منذ الساعة الخامسة والنصف*

لا تراهن على النتيجة.».

قلتُ محاولاً جسّ موقفه من الاطروحات التي بدأت تنتشر: «يقولون أن من الأفضل لنا أن ننضم الى الجزء الكبير.».

عندها رأيته ينقلبُ هائجاً، إذ انفتل من مكانه الى موضع آخر في الحجرة. لاحقته بنظري فبدا مثل طريدة أُصيبت من مكمنٍ لم تحسب له حساباً. زمجر من أعماقه، وارتدّ بوجهه نحو جدار الصناديق. حسبتُ انني شهدتُ شرارة الغضب، لا بل القهر، تخرقُ ظهره العريض، وتشبُّ في رأسه. لم يقل شيئاً لوهلة. شعرت أنه بات مثل محتويات الصناديق. قابلاً للانفجار الآن. سينفجر عقاب الطالب لا بد. لا شيء يحول دون انفجاره. شالوا عنه ضاغط الأمان وطفقت اللحظات تمرّ. تمرُّ بصمت. بتثاقل. تمرّ بتسارع. تمرُّ كالصعق. ينقدحُ الصاعقُ، فينتثرُ ويواجهني بكامل التقاء حاجبيه الفاحمين على تغضنات جبينه المسوّد.

حدّق بي مخترقاً إيّاي الى نقطة أبعد. يمور. يفور. ثم فحّ:

«اسمع. لن نكون لأحدٍ غير ما كنّا عليه.».

ولـمّا لم يرَ مني سوى التحديق المماثل، أضاف:

«أرفض أن نذوب في أحدٍ ولو كان أكبر منّا!».

«والمعنى؟».

«بلّغْ بما سمعت.».

حاولتُ أن أجتهد: «في هذه المرحلة ينبغي ـ». فقاطعني باتراً:

---

*احياناً. خاصة في ايام الشتاء.».*

*ـ أشار أحد المطلعين الى انه سمع، عدة مرات، هتافات بعيدة عن اسواق المدينة، تنادي الناس بمكبرات الصوت الى الوقوف في وجه الموت والقتل. وقال هذا المطلع انه يعتقد بأنهم كانوا ينادون من مآذن المساجد في الضواحي. وانه سمع، أيضاً، في كل مرة، صليات الاسلحة تجيبُ على هذه النداءات.*

«ليس في هذه المرحلة ولا في سواها. سنقف من جديد.».

قلتُ مدركاً دلالة كل كلمة:

«أنت تعرف أن لا أحد غير الرجل الكبير بقي من القيادة، وأن ـ». وبتر جملتي، هذه المرة، نافضاً ذراعيه في هواء الحجرة العابق برائحة السلاح. ارتعشت بُقع الضوء. تخلخلت الموجودات:

«الى الجحيم. مثلهم مثل الجبناء الآخرين!».

وصمت مواصلاً تحديقه بي كأنه يخمّن بما أفكّر. ثم أخذني، فجأة، من كتفيّ بقبضتيه الصلبتين، وهزّني بعنف:

«كلهم على القائمة!».

القائمـة.

أراني ايّاها مروان، خلسة، ودسّها في جيبه. لحظتُ بعض الأسماء. قائمة طويلة تبدأ هنا، وتمتدّ عابرة حدوداً.. وبحراً.. ثم حدوداً.

«مشوارك طويل يا مروان.». فكّرتُ: «ولن تطالهم.». وأمسكتُ بذراعه قبل أن يبتعد.

«إلى أين؟».

«لا تتعب نفسك».

هتفتُ به من عمق الخوف الضارب فـيّ:

«هذا جنون! جنون!».

سخر مني، وتلفظ بلهجته شبه البدوية:

«ومن قال اننا في زمن عاقل؟».

تذكرتُ الرجل. فيلسوف الحرش. يوم العقرب.

«مروان!».

كانت كلمتي الأخيرة.

تبخّر مروان في الشوارع. في الروائح. في السحب المشـرّبة بلون الدم الذي ما جفّ من الطرقات بعد.

ختمت المدينة نهارها على هتافي: «مروان!». ثم كنسَّتْ آخر السائرين في شرايينها المتيّبسة. المتفحّمة.

كان حظر التجـوّل قد دخـل وقته. فحبس الخوف زفراته وراء الجدران والبيوت الواطئة.

وسقطت ظُلمة.

## 3

«حاجزان والموت يُمهل.

أخدعتهم، أم الموت يمدُّ لي خيط الخديعة ويسخر؟. قد تكون الصدفة. طالعي الحسن. تميمة أمي. شفاعة العذراء.

وجدتني، دون أن أفكر، أتمتمُ باسمها المقدس. يا شفيعة البشر. خلّصيني. هتفتُ في أعماقي. لذتُ بها. المكان موحش يبعث على الرهبة. بردٌ ينغلُ في مفاصلي، وحزيران لم ينته بعد. برد الخوف الذي اعتراني على الهضبة.

لكنك، يا أمي، قلت أن لا خوف عليّ. ها هديتك الذهبية عند القلب، حيث أودعتها، تحميني. لكن الخوف يظللني. يطبقُ عليّ مع كل خطوة محترسة أخطوها. في كل خطوة يشحنها الجزع.

يائس أنا؟.

ليس تماماً. لكنني بلا خيار.

باتت العودة مسيّجة بالمخاطر. تُريب. تثير فيهم شهوة الدم. دمي. ورائي جدار بنادق محشوّة بالموت. أمامي حواجز مكدّسة بالرهبة والجنون.

ولا خيار.

العدو أمامي. العدو خلفي. والسماء أظلمت أو تكاد. تتطايرُ في الفضاء شهبٌ حمراء. بعضها يتقوّس وينطفىء قبل أن يصل الى الأرض. بعضها يجزّ السماء في خطوط مستقيمة. تتقاطع. تتوازى. تجتمع وتفترق. كلها خالصة من

الصوت.

مصدرها بعيد. ربما من الزعتر. ربما يقتحمونه الليلة. ربما يسقط غداً. هذا ما قالـوه هنـاك. لا خيار سوى القتال حتى النهاية. حتى الهاوية. حتى السقوط. سيسقط الزعتر وربما يُسدـ!. معه رؤوساً كثيرة. رؤوساً نعرفها. ورؤوساً لا نعرفها. ربما لا يسقط.

اطـلاقـات خارقة حارقة تنير الليل المعلّق فوقي. أما طريقي فمظلمة. الشوارع القريبة. وكذلك النوافذ؛ شحيحة الاضاءة في كتلها الاسمنتية، تواري سكّانها في الأركان الأكثر أماناً.

ولا أمان.

تذكّـرتُ أمـراً. الـوصيّة. وصيّتي. لم اكتبها. لم أُملها على أحد هناك. شعرتُ، عندما ضمّوني الى صدورهم، وداعاً أخيراً يقومون به. تذكّرتُ أبا الحكم عندما غاب. لم يعانقه أحد غير أن العيون تعلقت به. خلِّ صوتك في داخلك. إحفظه في القلب. اقترحتُ على نفسي. فالأشياء الخاصة ليست للآخرين. لماذا الوصيّة؟. لا لزوم لها. فأنا غير عارف للوصية. لم يخطر لي شيء محدد. لكن، كان علـيّ أن أكتب شيئاً. أن أترك ما يقول عني الذي أحب أن يدوم. أبي. أمي. ثريا. آه ثريا. لن يصلها مني أي شيء وهي في نفيها عني. لماذا لم أستجب لطلب الطيّب، فأحمّله رسالة لثريا؟. ولو شفهية؟. أحبك. هي تعرف هذا. لا يكفي. تريدني. أتمنّى لو أملك من أجلها تعويضاً. تريدني وحسب. أعرف هذا. الكلام لا يُطعم ولا يُشبع. كانت تقول لِي. أنت شهي. سآكلك. كانت تقول لي. وكنتُ أرى الفرح قوة خفية تدخلنا فتُدخلنا ببعض. ذاك كان زمن ثريا.

والآن؟

حزيران آخر. وأنا في جُبّ الضباع. بين أنياب الذئاب المتحفزة. عيونها تخبّىء هلعاً اذا خدشته سيندلع قتلاً بلا هوادة. خائفون. وخائف أنا.

غريب!. تلفحني رغبة لاعجة للكتابة. أتوقُ أن أكتب. تلك الصور التي تمرّ على خاطري كالخطف. كالشهب الحمراء في السماء المستباحة. تأتي. تمرّ. تومض. ثم تهوي في الفضاء وتذوب. لا!. يجب أن لا أدعها تذوب. علـيّ أن ألتقطها في كفّي أولاً. أسجّلها. وأدعها، بعد ذلك، تذوي في انطفائها.

وانطفائي؟.

قد تحكي السماء عن ذلك. لا. سأحكيه أنا. تماماً مثلما فعلت غبّ معارك الجولان. في الرواية. الدفتر الذي بدأته منذ زمن. ظلّ ناقصاً. لم أزد فيه حرفاً. لم أضف للرواية جديدا. لكنني كتبتُ الكثير. تركتُ نفسي لثريا اكتب لها وعنها. أجّلتُ الرواية، وقلتُ لنفسي: ها تجربة رائعة فلا تفلتها. سجّلها. سجّل دقائقها. ستلزمك في الرواية. استفد منها.

ثريا رواية.

رويتُ لها عن مخطط الدفتر الذي لم يكتمل. لم تفهم. قالت: كيف تريد أن تتحدث عن السياسة والحرب والجنود والرفاق والموت دون أن تذكرهم صراحة؟. هل يمكن أن تُنطق الأشياء الجامدة كل هذا الكلام؟. لا أفهم. كيف يمكن أن يعبّر النصب النحاسي في ميدان المدينة عن المحبة التي تقصدها؟. المحبة المُهشمة كما تقول؟. لا تريد أن تذكر السياسة وتذكرها في وصف الخريف ومياه البرك المتجمدة المغطاة بأوراق الشجر اليابسة!.. أنت غريب. نذير. لن يفهمك أحد.

كنتُ أضحك عندما ترفعُ عينيها المفتوحتين على استفهام.

أقولُ لها جاذباً هازّاً جذعها نحوي: أنتِ شهيّة في سؤالك الساذج.

فتتساقطُ عليّ وقد لكزتني بمرفقها النحيل، وتقول: لا تسرق تعبيري. وتغنج ماطةً نصفها العلوي عليّ. تدسُّ وجهها الصغير في صدري. يفيقُ كسلي. أضغطها اليّ. فتشخرُ ضحكتها عند قلبي. تكون ذراعي قد غطّت فخذها. تتلمّس أصابعي ربوته الخلفية. وتنسلُّ قابضة على ربلة ساقها نزولاً حتى الكعب.

نفيقُ من صعود الموجة ونؤوب. على رموشها عسل اللذة ما زال يقطر. أمسحه بفمي فيما تبحث أصابعي عن علبة السجائر.

«اشعل لي واحدة.».

ومع أول الدخان: «هل ستكتب هذا في الرواية؟».

«اكتبُ ماذا؟».

«نحن. ما نفعله الآن.».

«ربما.».

تسحقُ سيجارتها في المنفضة. تواجهني وقد ثنت ساقيها تحت فخذيها، مثل الحكيم الفرعوني، فيبرقان منضغطين عند الركبتين والربلتين. ليست عابئة بعريها.

تقول غارسة نظرتها في عينيّ: «أفهمك يا نذير. أفهمك جيداً.».

تنحني مادّةً عنقها نحوي. تلتقط الصليب بأسنانها. تتراجع بجذعها الى الوراء. تمتدّ السلسلة الذهبية بيننا كالوتر المشدود. تلتمع بيننا. تلتمعُ بين شفتي ثريا. يكون صمت غبيّ. أو حافل بالمعنى. ترجعُ برأسها الى الخلف. ببطء. تحزُّ السلسلة رقبتي. أتألّم. لا. لم أتألّم. نخزة خاطفة. وتخرج الكلمة متفلتة، متقطعة، من بين أسنانها: «سأخنقك!».

أضحكُ فيما يشبه الغباء: «شهيدك».

تفلتُ الصليب فجأة، فيرتطم بصدري مبللاً بريقها.

«هذا الصليب هديتي».

قالت له أمه. كان أبوه يرمقهما من وراء الكتاب المقدس، المفتوح أمام عينيه. لم يتكلّم. تركها تتبسطُ في الحديث مع ابنهما. سمعها:

«.. عشرون سنة. عمرك الآن. صرت رجلاً يا نذير. لا تدع الشباب ينسيك المحبة. لا تغرنك الفتوة. ما شاء الله! ها صدرك تغطى بالشعر. دعني ألمسه بيدي. لا تضحك. أنا أمك. أتعرف؟.. انه ناعم ما يزال. سأعلقُ الصليب في هذا المكان. هنا. قريباً من قلبك كي لا تنساه. تذكّره. تذكّرني. هُسْ. لا تقل شيئاً. أراك ستعترض. لا تفعل. انها سُنّة الحياة يا نذير. لكنني سأبقى أمك. مهما ابتعدت سأكون هنا. معك. كهذا الصليب. دعواتي من أجلك والرب يسمع. يحميك من شر أعدائك. آمنْ به وسيتكفّل بنجاتك. تذكّر ان القلب الصالح هو المهم. لا تكره أحداً. لا تكر...».

اختنقت بدموع بغتتها. أخذها نذير الى صدره حائراً. ركن الأب الكتاب المقدس جانباً. تنحنح مدركاً حراجة الموقف. قال: «كفى يا روز. لا تثقلي عليه وعلى نفسك!».

نشلتْ نفسها من صدر ابنها. توجّهت الى الأب: «دعني يا باسيل أقول ما عندي. أنا أعرفك لا تحب المواعظ. لكنني سأقول ما عندي. وسأصمت بعدها. حلمتُ بهذه الهدية منذ سنين. أجّلتها حتى يكون لها معناها الذي نعرفه

نحن. أنت وأنا. وها نذير كبر. صار ناضجاً ليفهم هو أيضاً.».

قاطعها برفق: «لكننا ربّيناه على المحبّة يا روز.».

نشقت. خطت باتجاهه وجلست على مقعد قريب. أراحت أصابعها في حضنها. ورفعت رأسها الى نذير الذي ظلّ واقفاً أمامهما.

«لا بأس. الكلام لا يضرّ.

نذير. نحن لسنا أفضل الناس. الجميع فيهم الخير. وربما لا نكون الأهل الذين استطاعوا تحقيق ما أملوا به. لا بأس أيضاً. المهم القلب الصالح كما قلتُ لك مراراً. والصليب رمز محبّة وفداء. ليس أكثر. محبّة البشر. وفداء للبشر وخلاصهم. في سبيل خيرهم. دمُ المسيح جاء ليغسل الخطايا. كل الخطايا. كل خطايا البشر. كل البشر. هذا معنى الصليب. وهذا مغزى الصلب. لا تنسَ هذا أبداً. وصيّتي لك في عيدك العشرين. فليبارك الرب خطواتك أنّى ذهبت. ها أنت كبرت والدنيا واسعة. سترحل يوماً. أعرف هذا وأراه كما أراك. فليجعل الله لك في كل خطوةٍ تخطوها سلامة وأماناً..

هذا كل ما أردت أن أقوله.».

ونظرت الأم الى زوجها الصامت. كانت عيناها تزفّان بكاءً سيجيء.

«والآن..»، قالتها من حلقٍ يحترق: «اقترب، وتعال لأقبلك يا نذير.».

انحنى لصيقاً من ثوبها. أخذت رأسه الى وجهها. ضمّته، مقربة وجهه من حضنها، وكانت أصابعها ترتجف.

«كل سنة وأنتَ سالم».

ارتعشت السلسلة بين أصابعها ومؤخرة عنقه.

كان المكان يدخل في ضوء تغزوه خيالات العتمة. بدا الاثنان كأنهما تمثال مريم وهي تريحُ ابنها في حضنها، حين أنزلوه عن الصليب!.

وبعدها؛ جاء صوت الأب وهو يقرأ بعضاً من نشيد الانشاد.

«في كل دقيقة قذيفتان.

في كل خطوة أخطوها سلامة وأمن!

آه يا أمي. لو تدرين عن صغيرك.

آه، لو أدري.

أرى في كل خطوة دمي. أدخلُ فيه. أوغل. بوابات الجحيم شُرعت. نوافذ السماء أوصدت. لا أحد يسمع. لا أحد يأتي. وحدى. على العتبة في ساحة الكنائس لا نواقيس ولا صلوات. وحدي. الله في الأعالي وعلى الأرض تزحف الحرب. أصوات. تتحسس أصابعي شعر صدري. تفتله. تمسك بالصليب الصغير. أهتف ولا يطلع الصوت. أراهم من كل الجهات والأركان. يركضون. الى كل الجهات والأركان. يركضون. وحدى في المنتصف. المردة يُحدقون بي. الأصوات تحاصرني. سقفي جحيم يندلق. يقعُ قلبي على الأرض. يقع. لكنني أقذفُ الصوت الذي لا يطلع: أرى في خطوتي دمي. أرى دمي. أراه. ولا يصل القلب الذي يقع.

تصلني الأصوات الراكضة من كل الجهات والأركان.

تصلني وتمسك بي.

يصلُ القلبُ الذي وقع. فتميدُ الأرض.».

□

«لم يكن حاجزاً. أبداً. بل أشباحاً خرجت من بطون المردة المغلّفة بالعتمة. أشباح تركض. وتزعق. وتأتيني. لم أتحرّك. بقيتُ واقفاً في نقطتي لا أتحرّك. غيرُ قادر على شيء. هربت القوة، وخارت العزيمة؛ إذ وقع القلب على الأرض. ظل الصليب في مكانه. بقي معلّقا من عنقي، يخفقُ عند موضع القلب.

الصليب يخفق.

وأنا أخفق.

والشارع يخفق.

اصطبغت السماء بجميع الأعيرة والرصاص والقذائف الخطّاطة تخطُّ عليها انجيلاً آخر بلا لغة. تتنبأ بمعجزات يصنعها أنبياء لا أعرفهم. لم أسمع بهم. لم تحدّثني أمي عنهم. وها حرابهم الصقيلة تُرفَعُ في وجهي كتاباً لا أعترف به.

أنا كافر وهم المؤمنون.

وها المخيّـم يصبّون عليه نار كبريتهم جزاء عصيانه.

ويقـولـون: أتـرى؟.. أتـرى عقـاب الذين يديرون ظهورهم للتعاليم العليا؟!. سيذوبون. سنحيلهم في الغد الى موات من كبريت لا يطير فوقه طير. سيزالون بالكبريت والسيف. سنطهّر الأرض من رجسهم. أترى؟.. اتعظ وهات هذا القديم الذهبي الذي تعلقه على صدرك. هاته. سنستبدله بالذي هو من دمك. هات. لا تنظر الى الخلف حيث الكبريت يزغرد بيوم احتفاله. لا تنظر والا، وإلاّ ستكون تمثالاً من ملح!.».

أنتم ملح الأرض، فاتبعوني. هذا ما قاله المعلّم قبل أن يرتفع على الصليب.

«اذن. ستكون جديدنا». صرخوا. وكانوا في جلال الحكماء.

وأكملوا: «ارفعوه»!.

غابوا عن المشهد، وانقلبوا يمشون على رؤوسهم. هكذا لمحتهم. هكذا لمحتُ شيب رؤوسهم تغطيه تيجان من ذهب. التيجان تختفي بين ذراعيّ المتدليين.

وأقبلت الأشباح فتياناً يلفهم اللون الخاكي.

قرع جرس قريب. تغلغل صليله فـيّ. وتلاشيتُ في سُحب بلا وزن.

. . . . . .

أنت لن تصل. ستبقى مسافراً بين بحر وبحر. لن تدوس يوماً على أرض. لن تدوس ارضاً يبوساً أبداً. في الماء ولدت وفي الماء ستكون. أمك أم العرّافة ذات الثـوب الأسود كالليل؟.. المرأتان. كانتا معاً حين دخلت عليهما. وكُنّ يتهامسن. وكنتَ صبيّاً يلهث وراء اللعب وكانت تنتظرك، في الغيب، اللعبة التي وصلتها الآن. لن تُجديك السخرية هذه الدقائق. لن تنفعك. لن تقوى عليها. قدمـاك مشبـوحتان فوق رأسك، وصليبك الذهبي يتأرجح بين عينيك وفمك المشطور. أأنت عَطِشٌ؟.. أنت ظـمآن وحلقك صحراء، فلم المكابرة؟. أطلب ماء يطفيء احتراقك ويرجعك الى توازن الوعي. لا تريد؟. تخشى أن يكون حنظلاً أو خلاًّ لا ماء؟. خيارك. تُفضّلُ هذا السكون المتسرب فيك؟. انه الدم يا نذير يحتشد في رأسك. ليس سكوناً. انه الاحتشاد المميت. الاحتشاد القاتل. بردان؟. انه الدم أيضاً. أنت مشلول ومشبوح والبرد برد الدم والخوف. لا؟.

أتقول لا؟. ليس الخوف. اذن ماذا؟. هل عاد اليك قلبك؟. هل رجع من الشارع واتخذ موضعه فيك من جديد؟. خائف. حسناً. أنت خائف لكنك تستجمع شجاعتك من هدير المعركة التي تصل اليك أصواتها. لا تأمل. سيخسرون. رجال المخيّم. لا تراهن. انها نار الكبريت. لا أحد بمقدوره الصمود أمامها. سيتفتت لحمهم وتبتلعه الأرض. كُنْ متيقناً من هذا.

.. أراك تنفض رأسك. حاذر. سيدفق الدم من فمك. إجعل من ساعاتك المتبقية راحة. سيأتيك النفير قريباً. استعد له. لن يطول. سيأتيك.

.. .. ..

وتصدع الجسد على قرعة واحدة للجرس القريب.

اهتز الحبل كأن اعصاراً اخترقه.

انفلشتْ بقعة دم على الأرض، أسفل الرأس بقليل.

دوت في المكان صرخة لم يسمعها سواه: «خوفي عليك، نذيرا.. هل تحتمل؟!..».

وكان الصوتُ خليطاً من أمه.. والحبيبة.

# 4

صباح القاهرة المكتظّ.

ترجّل من سيارة التاكسي عند جامعة الدول العربية. وقف قبالة مبناها ذي الحجر الكبير الـمُصفَّر. يتمشى الحارس أمام بوابتها الحديدية العالية. سيل من السيارات والحافلات والضجيج. نخلة عتيقة تظلله.

بدأ يسير باتجاه ميدان التحرير. بدا له الكوبري الفولاذي المعلّق، من بعيد، مثل مارد اسطوري يلتفُّ على المدينة ويربض. اقترب من احدى جوانبه وحـارَ: هل يصعد، أم يعبر الميدان نحو الجانب الآخر من تحته؟. كان سيل السيارات لا ينضب. صعدَ الدرجات المعدنية واعتلى الكوبري. باتَ واحداً من الاكتظاظ البشري الزاحف. الوجوه السُمـر المتعرّقة. الفتيات بأثوابهن الصيفية الخفيفـة، والفـلاحات بالملاءات السود. يهدرُ السيلُ من أسفل، والسماء، في الأعلى، مفتوحة على القيظ المبكر. التفت نحو اليسار، فرأى فندق هيلتون، وعلى واجهته الضخمة تراءى له رمز الحياة الفرعوني.

هبط، وعـبّر نحـو بداية شارع طلعت حرب. مرّ أمام مكاتب شركات الطيران متباطئاً. عاينَ صورته في واجهاتها الزجاجية النظيفة. لم يحن موعد السفر الى العاصمة: فكّر. وخطا واثقاً إذ تأكّد من أنه يملك الوقت في يديه.

دلفَ الى قاعة جروبي تاركاً الباب ينغلق خلفه بنعومة. تقدم باحثاً عن طاولة تُطلُّ على الشارع. لم يجد. اختار الأقرب وجلس. كان المكان يضجُّ بأصوات

الروّاد الذين توزعوا أرجاءه. لحظَ عيني امرأة تتفحّصه. تبسّم لها، فحوّلتْ نظرتها الى الزجاج المشرف على الشارع. تنهد، وتناول علبة سجائره من المحفظة الصغيرة. أشعلَ واحدة وانتظر مجيء النادل.

ابتسم لوجه الرجل الودود، وقال بأنه يريد قهوة. هزّ الآخر رأسه. غير أن خالد الطيّب سأله، قبل أن يهمّ بالتراجع، عن امكانية اجراء مكالمة هاتفية. طلب النادل أن يتبعه ففعل. بدأت ضربات قلبه تتسارع، وأحسّ بالعرق يتنزّى تحت ابطيه.

أدارت أصابعه المرتجفة القرص. انتظر بعد الرقم الأخير. أتاه الأزيز المتواصل. مشغول. أعاد السماعة، وأخذت عيناه تمسحان القاعة بقلق. وجد المرأة تنظرُ اليه بثبات. ابتسم لها، فلم تحوّل نظرتها هذه المرة. كانت تجلس مع طفلة مشغولة بمعالجة قطعة حلوى بشوكة أكبر من أصابعها. ازدادت ابتسامته ترسخاً، غير أنه اكتشف في المرآة الكبيرة، حين حوّل عينيه، أنه انما يرسم ابتسامة باهتة. أزالها، وعاد ليجرّب الرقم من جديد. أتاه الصوت. عادت ضربات قلبه تتسارع. سأل، متلعثماً، إن كان يستطيع محادثة ثريا. وانتظر.

كانت المحادثة قصيرة. قالت له بأنها ترحب به، وذكّرته بالشيء الذي يحمله لها من نذير. طبعاً طبعاً: كذب ثانية، وتأكد من الموعدُ، "الساعة سبعه"، قالت. وأضافت موضحة: عازماك عالعشا!. حاول أن يفهم أكثر، وسألها غامزاً: خلص؟ كل شيء صافي؟. فردّت بجديّة: هوه فيه حاجه لا سمح الله؟. ثم أنت صديق نذير. أهلاً وسهلاً.

صديق نذير! أنا مجرد صديق لنذير!. اللعنة!: فكّر مغيظاً.

وجدَ أن قهوته قد فترت. رشفَ من الفنجان الأبيض، وأشعلَ سيجارة بأصابع تزايدت ارتجافاتها. أراح ظهره على المقعد، وجال بنظره الى أن وصل الى طاولة المرأة. كانت خاوية. التفت يبحث عنها. تساءل كيف غادرت هي والطفلة دون أن يراهما. وراحت عيناه ترحلان الى ما وراء الزجاج المطلّ على الشارع. دخلَ رجلٌ يحملُ جريدة تحت ابطه، فدخلت ضجة الشارع الى المكان. أحسّ بلمسة خفيفة على كتفه مع صوت يناديه باسمه: خالد؟.. التفت، ورأى وجهاً ليس غريباً عنه. رحّب به، ودعاه للجلوس.

«تفضّل!».

وجلسَ صاحب الوجه.

«أظنك لم تعرفني.». قاله الشاب بكلمات سريعة.

«بالضبط لا. إنما وجهك ليس غريباً. ذكّرني.». قال خالد الطيّب حائراً.

«حاول أن تتذكر يا رفيق خالد.».

رنّتْ كلمة رفيق في أُذنَي الطيّب رنيناً أيقظ فيه ما حاول نسيانه. أعمل ذاكرته: أين؟ من هو؟.. أفي مكتب الاعلام؟!. وابتسم وقد اتسعت حيرته:

«لا أتذكّر. أنتَ...»، وطالت فترة الصمت.

«اسمي لا يهم. أنا صديق لزاهر. من التنظيم الطلابي. جئت لزيارتكم في الاعلام أكثر من مرة. ألم تتذكرني؟. ربما تذكرك المقالة التي حاولت نشرها في المجلة. لقد قرأتها أنتَ و...»

وصمتَ فجأة، غير أن الطيّب تذكّره. أجل. انه صاحب المقالة التي لم يوافقوا على نشرها. قرأها نذير الحلبي، وقال عنها انها قنبلة! كان متحمساً لها. وصفها بأصبع توما الذي أولجه في ثقوب يدي المسيح حيث دُقتا بالمسامير الى خشبة الصليب!. قال انها شهادة على وعي الجيل الجديد. الوعي بالجدل في العلاقة بين القومية والاشتراكية العلمية. لكنهم لم ينشروها. أجل. انه يتذكّره الآن. لقد تم حذف فكرة المقالة من الأساس. أحتجّ نذير الحلبي، ودخل مكتب رئيس التحرير. وعندما خرج سأله الطيّب عما جرى، فقال أنهم يؤمنون بالاجتهاد. هكذا قالوا يا سيدي: قال الحلبي هازئاً. وأضاف: ولكنهم يفضّلون الاجتهاد ضمن الاجتماعات وليس على ورق المجلة الرسمية!.

«نعم، اني أتذكّرك الآن. أنتَ صاحب المقالة التي أفرحت نذير. الرفيق نذير...».

قال خالد الطيّب متفحصاً وجه الشاب الذي رآه وقد شحب بغتةً. تساءل عما ألـمَّ به هكذا، وقال:

«لا أظنكَ ما تزال غاضباً بسبب عدم النشر. هيه؟!. ما بك؟».

وهزّه من ذراعه المستندة على سطح الطاولة: «قُل لي. هل حدث شيء؟».

كانت بيروت تركض في رأسه.

«لا شيء.».

تنبّه الى أن الشاب قد قطع حديثه عن مقالته، عندما وصل به الى ذكر

نذير. انه نذير اذن!: فكّر الطيّب. وهزّه من جديد، لكن بعصبيّة:
«قل لي. هل حدث شيء للرفيق نذير؟. قُلْ!».
أشاحَ الشاب بوجهه.
«ماذا؟»، وبدأت الأشياء تتداخل في وعي خالد الطيب. وتذكّر أمراً، فعادَ يستنطق الشاب:
«لكن، متى وصلت أنت الى هنا؟».
رفع رأسه، وقال بخفوت:
«أمس.».
«كيف؟». وأتبع ملهوجاً مستدركاً ان الزمن لم يمرّ سريعاً كما يتراءى له:
«عن أي طريق وبهذه السرعة؟. هل سقط الزعتر حقاً؟».
كان في سؤاله الأخير كمن يؤكد لنفسه حقيقة. وسمعَ الشاب:
«الى قبرص، ثم الى هنا بالطائرة.».
صمتَ الطيب لوهلة، ثم دمدم كأنما يحدّثُ نفسهُ لا الآخر:
«حسناً. حسناً. هلاّ حدّثتني يا رفيق عـمّا جرى.».
وعلى وقع الكلمات الخفيضة أخذت قاعة جروبي تميدُ به وكأنه فوق موجة. تنعكس في عينيه الذاهلتين أشباح المارة، من وراء الزجاج، كأنما طيوف بلا وزن. تقرعُ الكلمات في أُذنيه أجراسها، فيختلطُ الحاضر بالماضـي، بيروت بالعاصمة بصور بالموج المصطدم بجسم السفينة. تتداخل الأزمنة في وعيه، وتحتلُّ الأمكنة أماكن بعضها. ويسمع من أعماقٍ غوّرها وغوّرها، لكنها مثل الطلقة، لا تحتاج سوى لضغطة اصبع كي تنطلق وتُسمع. يسمع ما كان قد سمعه منذ خمس سنوات:
قال: تظنك قادراً على المواصلة؟.
ودّ لو يملك الشجاعة. ودّ. لكن «لو» خائنة لهذا الزمن. وهكذا ضاعت عليه فرصة الامساك برقبته الغليظة وخنقه. تمنّىٰ أن يعثر على الشجاعة القديمة. الشجاعة التي ولّتْ. أن يفعلها مرة واحدة. مرة واحدة وينتهي. يقتله ويذهب بعدها في خبرٍ كانَ وكفّ مبتدؤه عن أن يكون. لكنه لم يقوَ على الجواب. لم يفتقد الجواب؟.
كان وجه الرجل هو وجهه. غاضت تقاسيمه في شحم طارىء. صغرت

عيناه حتى نفذ منهما الخبث المستتر. ظلت كلماته هي هي . تقرع في رأسه الضربات الموجعة . تذكرهُ بالذي يعجز عن النطق به . وسمعه :

«عاجز عن التقرير؟» .

«أنت تعرف . » . قال دون تفكير.

وضحك مستخفاً : «أعرف ماذا؟ . ها؟ . ماذا أعرف؟» .

وبلا مواربة قال لنفسه أولاً ، ثم نقل هذا الى وجه القائد :

«أنت تعرف أن لا خيار . » .

«خيارك كان أن تبقى هناك . لماذا أتيت؟» . قال بجديّة ثقيلة .

هُم أتوا . بيروت . البحر . البحر يغسل الخطايا ويمحو الأخطاء . تكون صفحة جديدة . قالوا وقال . صفحة جديدة له . ربما يغفر مروان ويرضى . خمّن أنه سيرضى . مروان سوف يغفر. قال مؤكداً لنفسه . غير ان رضا مروان منالٌ بعيد في قلب الحرش .

قال لوجه القائد :

«أنا هنا . » .

وانتظر قراره بينما جاست عيناه خلال المكان . الستارة المنفوخة كقلع . حبل الضوء النافذ من فرجتي الستارة . صفحات المجلة التي تتقلب تحت ثقل الستارة . الشعار المكوّن من بندقيتين وخريطة . خريطة البلاد على الحائط . البلاد على الحائط . خيالات على الحائط . بُقع من الضوء . أصوات . يدخل مسلّح فيرفع رأسه . تتطاير أوراق القائد . يدعها ترفرف أمامه . تهوي بلا صوت . لم يطلع صوت المسلّح وهو ينحني على اذن القائد . سمع صوت الشارع . تصل المدينة الى المكان رغم الجدران الأربعة . الحارس عند الباب في الخارج . قال له أريد القائد . قال مَن أنت؟ قال أنا خالد الطيّب . لا يكفي : قال لنفسه : ما قلته لا يكفي ولم يُشبع رعشات عيني الحارس . عينا الحارس في وجهه . ترتعشان بأسئلة لم يُجب عليها . اسئلة لم تُسأل . قال انتظر . وانتظر.

لم أنتظر، كنتُ أركض في الشوارع أطلب الدم من أي عابر. أقطع المدينة مهرولاً . راكضاً . سائراً . أنظر في وجوه الناس ولا أبصر سوى الدم . الدم . يا للجحيم ! . قليل من الدم ويعيش مروان . كنتُ أتقاذف . يخرقني الذهول وتصرخُ بي الفاجعة . أراها تقترب رغم ركضي . أراها رغم أن الناس يملأون الشوارع .

رغم ان الدم يملأ الشوارع. نزفَ من الجميع على الجميع ولطّخ الجميع. وبقي. بقي عليها حتى جفّ وبات طبقة متيبّسة تخثّرت وتخثّرت فما عاد للذباب ما يمتصّه. ما يلعقه. الدم في الشوارع. يطلبه مروان ولا يجده!. ألهثُ خلفه ولا أطاله.

مروان على قماش أبيض. كان أبيض. ذهب الأبيض في الأحمر واختفتْ من وجه مروان كل الوجوه. تماماً مثلما توارتْ وجوه الذين على قائمته. أتراهم فرّوا؟.. لجأوا؟.. رحلوا الى ـ وغارت وجوههم في أسرار المدن والعواصم الأخرى؟. جبناء!: قال مروان مثل عقاب الطالب. أكانوا في أقبية لا ينالها الرصاص؟.. مجارير الجرذان! جهنم الحمراء!: قال مروان وأمسكت بكيانه قبضة ألم. تحشرج. انهم خلف جدران، وأبواب، وحرّاس.. لذا نجوا.

مروان! قلت: مروان! لست وحدك من يحمل في جيبه قائمة. لست وحدك مَن نجا من الرصاص الأول. أنتم كُثر وهُم كُثر. أنتم هنا وهُم هناك. بعيدون. أنتم في العاصفة وهُم على اليابسة.

ونالتكَ رصاصة: في الكتف من أعلى تواربت وغزت الرئة.

وتفجّرت أُخرى: في تلافيف الداخل، فانتثرت أشياء في حدود الجسد.

ثم تشظّت ثالثة: على لحم الرقبة الملتمعة. نفذت الى حيث لا تعلم. الى مكمنٍ أخير انعدم التيقظ فيه وهمد.

كانت الرصاصة الرابعة توكيداً للسقطة التالية. لم تُبال بها. ترنحت قليلا. أطلقت رصاصة او اكثر من مسدسك ـ نقل مزعوم اذ انني عندما تسلمته كانت رصاصاته كاملة! ـ. خطوة أو أكثر. الى الأمام أو الى الخلف. لا أحد يجزم. إلاّك. ثم انكفأت تحت مظلة الشرطي، في قلب العاصمة، فما ظلّلتك. ربما استندت الى عمودها، دون وعي، وانفرطت مثل تفاحة أثقل نضجها الغصن، فأسلمك. وربما أهاجك شوق ما، فما قويتَ على مغالبة الرغبة.. أو الوهن.. فهبطتَ الى الشيء الذي لا يتبدّل. الى الأرض.

نالتكَ أربع رصاصات.

تناولتك التي تقبل الجميع، وترضى. هل ترضى. مروان، هل ترضى؟!.

بين الرصاصات وسقوطك، أنا.

بين الهبوط وارتطامك، أنا. أنا الذي ما بين الأشياء قابع معلّق لا أرتجي الموت ولا الحياة تقبل بي. انا الحاضر الغائب. وأنت؛ أنت الغائب عني الحاضر

فـيّ دوماً أراك وتكون في الأمكنة والأزمنة الأخرى ويكون البحر يتنفس ويموج. اسمعك في صوته العميق اللامتناهي. أحسُّ بك مثله ترفعني وتحطُّ بي عبر تتالٍ من الصعود والهبوط لا ينتهي.

الوقت منتصف الليل. المدى احتمالات في مثل لونه: ظلماء بلا يقين.

برودة حديد السفينة تمنع عني النوم. تبعده كلما اقترب. أواصلُ التحديق في العالم المعتم حولي. أرصدُ النجوم وكيف تضيء فسحة صغيرة في السواد. أرقب حركة الحقائب وهي تنزاح ذات اليمين وذات اليسار. تتوزع طرطشة الموج على حديد السفينة في الأسفل. دمدمة البحّارة وأصوات الساهرين الخافتة.

وأنا: خالٍ من أية فكرة، أستقبلُ الآتي.

رائحة البحر تعبق. يفوحُ الملحُ المترطب من حولي، وأنا في بطن زورق الانقاذ. يحرقُ جلد قدميّ المتورمتين. تتصاعدُ دمدمةُ البحّارة. أراهم يروحون ويجيئـون وقـد تملكهم اضـطراب. أرفعُ جذعي. يتجمعون بالقرب من قمرة القبـطان. تعلو أصـواتهم فيتحـرك زاهـر. أقفُ على قدميّ. تصمتُ أصوات الساهرين ولا يبقى الّا البحر وتنفسّه العظيم.

رانَ سكون كالصعقة على سطح السفينة المكشوف.

ها هو الآتي قد أتى. ها الصدعُ جاء.

يتقدم زاهر من تجمع البحّارة. أهبطُ من الزورق. ألحقُ به.

«هناك!». أشار بحار طويل بيده صوب نقطة في البحر المعتم. نظرنا الى حيث أشار. لم نتبيّـن الشيء في الحال. لكننا، حين دققنا، اكتشفنا وميضاً متقطعاً يخرق الليل ويتقدم. ارتعش وجهُ البحر.

«ما هذا؟!». قلت.

أجاب بحّار آخر دون أن يلتفت، مواصلاً تحديقه في نقطة الومض المتقطع:

«زوارقهم.».

«زوارق مَن!». سألت وقد طفق الخوف يتسربُ الـيّ.

«الاسرائيليين!». كان صوته باتراً، بارداً، ووقع في نفسي مثل لطمة مباغتة.

«الاسرائيليون هنا!. حتى في البحر! ماذا يريدون بعد؟!».

كانت الأضواء تقترب وتتضح. كان الخوف يهجم ويكبر. شعرتُ بأننا وقعنا في مصيدة لا منجاة منها. شرك بحري وستبتلعنا مياه البحر. لا منجاة. ووجدتني

ألتصقُ بدائرة البحّارة. كانت الشعشعة تقترب.

قال زاهر: «ها هم كالقدر المكتوب! في الضفة يسرحون. وفي البحر يسرحون.».

صرخ القبطان: «مَن لديه أية أوراق فليرمها في البحر! هيّا!».

كان النبأ قد سرى في جموع المسافرين. استيقظت السفينة على قدوم الزوارق.

«ماذا تعني؟» طلع صوت من أسفل.

«بطاقة تنظيمية. رسالة. منشور. أي شيء. اتلفوها قبل أن يصعد الاسرائيليون الى ظهر السفينة. أسرعوا!.».

همس زاهر: «هل سيصعدون الينا!».

«يفعلونها. أبناء العاهرة. من سيمنعهم؟. ليست المرة الأولى.».

«اصمت!». هتف القبطان. «اصعد يا ابراهيم وقُل لي ماذا يقولون!».

ها هي اشارات تومض وتختفي. بعضها سريع وبعضها أطول. ومضات تبزغ في العتمة.

هتف ابراهيم الذي صعد فوق سطح قمرة القبطان:

«يطلبون منّا ايقاف المحرّك.».

«أوقفوه.». صاح القبطان. اسرع اثنان من بحّارته يركضان، فيما عَلَتْ موجة أصوات في الأسفل. هيمن صمت مشحون بالتوتر اثر توقف المحرّك. علا صوتُ البحر. لا صوت سواه. توالى الوميض الاسرائيلي. تتابعت اشاراتهم الضوئية. طلع صوت البحار ابراهيم:

«هوية السفينة.».

اتخذ موقعه وراء كشاف كبير. تناثرت بعض الأوراق فأخذها الهواء الى عتمة البحر. وما ان سمع السؤال حتى بدأ يرسل الاجابات من كشّافه. كان يردد بصوت مسموع مع كل ارسال يبعث به:

لبنانية /علمها؟/ لبناني/ اسمها؟/ مروان/(انتترتُ كأنما رجفة هزّتني) الحمولة؟/ مهاجرون/ مرفأ الانطلاق؟/ صور/ مرفأ الهدف؟/ الاسكندرية. / أية أسلحة؟/ لا يوجد/ سنقترب.

خيّمت على المجموعة القريبة من الكشّاف زوبعة تململ عصبيّ.

«لا يتحرك أحد.». هتف القبطان. رأيناهم يمخرون وجه البحر بصوت محركاتهم. سريعون كالقذائف. ثلاثة زوارق. توزعوا جهات البحر مثل رأس سهم. تقدم أحدهم مصوّباً كشافاته، فأضاء البحر كالنهار. أحاط به الآخران، على مبعدة، ليلتفا حول السفينة.

«صُرنا في طوق.». قال القبطان. كان ما يزال محتفظاً برباطة جأشه.

صار الزورق الحامل للكشّاف قريباً. أما الآخران، فكانا يمرقان من حول السفينة بحركة دائرية، كأنهما يجسّان جسماً مشكوكاً فيه. سبحت السفينة في إنارة باهرة. تراقصت الخيالات على الوجوه الصامتة والأشياء. صمت رهيب. بحر رهيب. جسّ الضوء القوي جميع جوانب السفينة. ثم انتهى كل شيء.

«شغّل المحرّك.». قال ابراهيم البحّار. وتخافت الضوء الاسرائيلي المبتعد.

«تابع سيرك».

أصدر القبطان أوامره بتشغيل المحرّك. لم يبق من الزوارق الّا ثلاثة حبال بيضاء من زَبَد خطّت سواد البحر.

كانت خطوط الزَبَد قد ابتلعها الموج والظلمة حين استدرتُ منفتلاً على نفسي. لم أعد أشعر بالأشياء والأصوات. دخلتني غيمة تشبه الحزن وليست بحزن. كنتُ أنت. مرارة أشنّها على نفسي. أهو جلد الذات؟.

هي الهزائم تطلُّ برأسها من حدبة الأفق. تذكّر بوجودها. تلطمُ لطمتها. في الروح. في القلب. وتذهب.

مُترعٌ بهذا. مليء الى درجة الطفح. يصلُ اللهبُ الى تخوم حلقي. يدخل فيه ويشعله حريقاً.

اذن: لا مهرب من اطلاق الدخان.

انفلتت دموع حبيسة من أيام تعود الى سنوات وسنوات. يُقبل الزمن الجاف المكسوّ بطلاء الدم. الدم المتخثّر. الجبال الحجرية التي تُطلق آذان مساجدها في الفجر المشرّب بالأحمر. يتسرّب الصوت المكبّر في ترجيعات الرصاص الموحش!

زمن الحجر لا يستريح. أجل. وأنا لا أستريح!

عاد صوت القبطان يهزّني من بؤرة لم يدفنها نسيج العنكبوت. يتجدد جرحك: مروان!

دار البحر في رأسي. انقلب العالم في روحي. وقفز قلبي متخبطاً ليصعد

الى حيث وصل اللهب. حتى الحلق.

تراكضت صوب الحاجز المسوّر لسطح السفينة. عند الجؤجؤ. وأخرجتُ الدوار ملطخاً صدري، وذقني، والهواء، والبحر.

لم أسترِح.

تكوّرتُ على بعضـي ملتصقاً بالحقائب. عند خاصرة زورق النجاة. غير قادر على الدخول فيه.

التقطتُ لهاث الروح وأطلقتها بحجم العذاب: ناديتك: هتفتُ باسمك: مروان! أأحملك في داخلي أبداً! أم انك سفينة تبحر بي الى ضياع بلا فجر ولا مرفأ!!.

لم يسمعني أحد.

أخذ محرّك السفينة صوتي في هديره.

## 5

يتناوب العالم على المجيء.

يظهر بين نار الوجع والمرئيات المقلوبة. أسمعه وسط الأصوات الرهيبة، الصاخبة، الآتية من الخارج. يترجّع صداها على الجدران حولي. أرى الجدران تحاصرني. السقف المبقّع. المنقّع. الراشح بالرطوبة فوقي. السقفُ يتأرجح. لا. أتأرجح أنا. تختفي الأرض تحتي. لا أراها. أشعرُ بها ولا أراها. عليها يستقرُّ دمي. أسمعُ قطراته تدّقها قطرة قطرة. انني أنزف. من أنفي يتقطّر الدم. من فمي الذي تعب. شدقي الذي يحتاج الى قوة غائبة حتى أستطيع أن أحرّكه. ان أغلقه. أين غابت القوة؟.

يتناوب العالم على المجيء.

يأتيني محفوفاً بصور جديدة. بأصوات أخرى. بأزمنة ليست هي التي كانت. ربما نزول الدم الى الرأس هو السبب. ربما. الرأس. رأسي الزاخر بالصور المنداحة. كيف ألملمها؟. ها هي تأتيني على هواها. تتزاحم عليّ مثل الانفجارات التي تولد هناك، في أمكنة لا حصر لها، ثم تنتهي لتحطّ الرحال عندي. أنا الرأس الحافل بضجة العالم. المحتفل برهبة الآتي.

ماذا سيقولون عني؟. ذهبَ ثمناً لحياة الآخرين؟. لكنني لم أفعل. لم أستطع الوصول اليهم. وقعتُ في المصيدة. في منتصف الطريق. لم يحمني ديني. كنت قريباً من الكنيسة. من كنيسة ما. وبعدها: بدأت الأجراس بالقرع قرعة تلو

قرعة. يدقُّ الجرس دقةً واحدة عند انصرام كل دقيقة. يودّعها. يودّعُ ما ذهبَ مني ومن الوقت. ينبضُ دمي. تحضرُ الطفولة وينبجسُ الماضـي. تُقرع الأجراس. هللويا. ولد ببنطال قصير يرى صورته في مرآة خزانة. أمه الى جانبه ترمقه بفخار. انه العيد. الفصح. هللويا. قيامة المصلوب الميّت من بين الأموات. لم يمت وإنما خُيّل لهم. عيد. تقرع الأجراس. هللويا. المسيح قام. هللويا. حقاً قام. ينبضُ دمي. يضجُّ رأسي. يلفّني البرد ولا أحسّ بأطرافي المشبوحة فوقي. لم أمت بعد حتى أقـوم. أصـير جثة تشهد، وترى، ولا تعرف كيف تفكر. لا تقوى على الكُره!.. عجيب!.

لا، يا سيدي الناهض من بين الأموات. المنتصب فوق صخرة قبرك. الدائس للموت بالموت. إن صلبك عاجز عن أن يكره أحداً. أهي المحبّة التي تركتها لنا؟ وصيّتك الأخيرة؟ ابتهالات أمي؟ جوهر الانسانية الدائم في كل التعاليم السماوية، والتعاليم غير السماوية؟!.

يصطرعُ الدمُ مع الوجع الآخذ بجماع الجسم، فأنتفض. يرتجُّ الصليبُ الذهبي الصغير ويحتكّ بذقني. ها اني أراه. أراه وميضاً ذهبياً كالغشاوة التي لا تُمسك. شَّفَ تصالبه وتداخل في انسفاح المنظورات الذائبة في بعضها. لم يعد من حدود تعيّـن الأشياء..

تنصهرُ الأصوات بالأمكنة المقلوبة. تندغم بالأزمنة الفالتة من قوانينها. تلتصقُ بالوجوه الطليقة خارج أماكنها. تتوحدُ بالوجع المنهمر مثل ندف الثلج دون انقطاع..

الأصـوات!

قال لي أبي اننـا الآكـل والمأكول. أننا أرغفة المسيح الخمسة وسمكتاه. ونحن، في الوقت نفسه، الخمسة آلاف رجل، عدا النساء والأولاد، نأكل ونشبع بالقليل اذا أردنا. فهززتُ رأسي إذ فهمتُ المعنى. وأضاف: ونحن المأكول إذا لم نرد. لا نشبع فيصيرُ لحمنا هو الطعام غير الـمُشبِع. الطعام المغري بغيره دون توقف ودون رحمة.

الأصـوات!

أسمعها تتذبذب بكلمات مفكّكة متفرقة لا رابط بينها غير أن صوت أبي الحكم ونبرته يأتياني عبرها. ها أحسُّ به يجتاح الضجيج وكلمات صفحات كتاب

أبي المقدس التي طالعتها عيناي ولم أكن أقدر على الجزم الاّ انني واثق انه هو هو أبو الحكم المنفي عن بيروت الى بقاع لا تبرح مطارحها ونحن هنا على أرضٍ تأبى السكون فالثابت ضدها ونحن ضد ثباتها ولكن من يدري كيف تسير عجلة الحركة خارج حدود الصفحات المكتوبة داخل أزقّة التراب الـمُحمّلة بالأسىٰ وبالجثث المنسيّة والجدران المكسوّة بالوجوه العاديّة تُطلُّ على المارة بابتسامات حلوة وبتقطيبات لا أحد يجزم لماذا هي ونحن يافعين ما نزال. سؤال سألني إيّاه صديق أيام سهرات الثرثرات السريّة في السياسة وما كانت سريّة ولم أستطع أن أجيب عليه الاّ انني كابرتُ وقلتُ هو الحزن المقيمُ منذ الولادة وقبل الولادة وبعد الولادة فولدت على وجهه علامة الهزء تستخفّ بجوابي، تمّنيتُ لحظتها أن أتخفف من العالم لأرىٰ البحر أمامي، لأدخل فيه الاّ أن المطهر ليس في هذا العالم ولن يكون، قالت لي أمي، ودربُ الحياة شوك وشوق الى دنيا ليس فيها نار ولا ماء ولا أرض ولا بنادق؛ قلتُ ما هي يا أمي، فقالت أمي هي فضاء معبأٌ بالفرح، وأخذتني من يدي الى كتاب وقالت هنا المعنى وما قلت لصديقي ان هذا سبب التقطيبة الأبدية لبني البشر الموعودين بالفرح خارج مدارات هذا الزمان وهذا المكان لكن الصوت يأتي ولا أمنعه ولا أستطيع. يسألني هل أنت فَرِحٌ، لم أُجبْ إذ كنتُ فرحاً ورأيتُ في فرحي تكذيباً لقول أمي الخجلى من عُريي مع ثريا النائمة الى جانبي والنور يشهدُ والشهادة على ديني سلسلة من ذهب وصليب من ذهب وشعور بالخطيئة يخرج من جلدي مع المتفصّد منه ذي الرائحة كبخور الكنائس. تبتعد الخطيئة من جنتي مطرودة بالسيف الملتهب نحو المنافي ولا أكون خاطئاً لا أكون خاطئاً لا أكون إلاّ أنا الذي فرح بالجسد الصغير. يُفرحه ويغمرهُ ويحتويه بالإقدام الجريء ويقبّله بقبلات فمه لأن حبّه أطيبُ من الخمر ويفتحُ له مغاليق بكارات الأشياء. فينغمرُ العالم بغمر الفرحِ وبين ثديي ثريا أبيتُ وعلى سرير أخضر كالحقول في الربيع يكون الاكتشاف كشفاً للمحرمات الجميلة إذ تحت ظلّ جسدها الصغير اشتهيتُ أن أجلس وكانت ثمرته حلوة لحلقي فأنّتْ أمي خوفاً علـيّ وأتذكّر بعد هذا ان ثريا ليست حبيبتي التي حلمتُ باختطافها من على أسوار القلعة وأن أفرُّ بها فوق حصان القديس جاورجيوس الأبيض طاعن التنين نحو غيوم السماء وأعرف عندها أن ثريا امرأة عاشرت كثيرين غيري وضاجعتْ عديدين قبلي فأنفرُ منها وآخذ الأرضَ ملاذاً من جسدها الشيطاني الذي تفتّح علـيّ كالوردة كالسـرّ المكنوز في ألف أمنية

تصهـلُ ويختلطُ علـيّ وأصيـرُ كالمصلوب على خشبة تسلقتها النار فكانت جمراً يقذفني الى التوبة تارة والى التعبّد لجسدها تارة ولا أوقنُ ما هو الكُفر. .

تأتيني الصور إذ أن شعوري بالهوة الفاصلة يباغت. يكون هذا حين يتضاءل حضـورها المتحرّك، وأبقى وحيداً بلا حيويتها التي تكتنف موجودات المكان. أنفاسها الموزّعة المنتشرة في الهواء. عندها يبغتني الشعور بالافتراق. بانشطار يفصلني عنها. بتميّز غير ملموس. غير مُدْرك. بلا هوية. غامض. الاّ انه الصوت الآخر. المزلزل. الخارجُ من داخلي. الرافض للتبرير، ولتسويات الوعي الغافي.

أنزوي نائياً عنها بعيداً عن الفراش. لستُ أدري أين أستقرّ دون إحساسي بها. انها لا تحتكُّ بي إن بالكتف أو بالساق، أو حتى بوصول تنفسها المنتظم الى بشرتي. يفجؤني شعور عارم كاسح بأنها أشبه ما تكون بوباء لا شفاء منه. سحر لا فكاك من إساره. أنقذفُ خارج السرير. في الظلمة. أروحُ أراوح في الغرفة. ليست أشياؤها بخافية علـيّ. أدركُ وجودها الحي، المحسوس، المادي، المدرك حدّ الحضور القسري. لا أراها، الاّ انني أعرف انه بعد نصف خطوة، الى اليسار، يكـون باب الحـمّام: كم اغتسلنا في حوضه معاً!. بعد خطوة، على اليمين، أستـطيع التقاط علبة الكبريت وإشعال احدى عيني طبّاخ الغاز الصغير. من مكاني، وراء ظهري، بمقدوري أن أستند على حافة الكومدينو حيث تنفرش أشياء زينتهـا: أحمـر الشفاه وغطاؤه الـمُلقىٰ غير بعيد عني: فرشاة شعرها بقبضتها الـزرقاء، وخيوط شعر ناشته رؤوسها البلاستيكية المطواعة، وأبقته في خرومها الدقيقة: علبة بودرة الخدود، كم أكرهها. بغيضة كمومس تقوّدت: مرآة صغيرة لتزجيج الحاجبين تقشّرت صورة «الحسناء» على ظهرها: الكولون النايلون الذي يرتفع الى بطنها ويحزّها في مستوى سُـرّتها: ذاك الذي أذكرُ كل حزٍّ فيه: لونه الرمادي الضارب الى البنّي والخافي بياض جلدها: تحته قطعة الحرير المخرّمة التي في حجم كفّي، الساترة لعانتها: والحوض: وملتقىٰ الطراوة في منبت الفخذين: تحديد نقطة المزق الدقيق فيه، حيث حدّت من امتداده بأن فرشت فوقه خطّاً من دهان أظافرها البرتقالي: على الفخذ الأيسر: فوق الركبة بامتداد أصبع: بجوار الشامة الكبيرة التي باستدارة نصف قرش. .

يدهمني صعود الغثيان من رأس معدتي حتى تخوم حلقي. أهتزّ نحو الوراء. أترنّحُ الى الأمام. أعود لأستقرّ على حافة الكومدينو. يرشح العرق من أطرافي.

عرق بارد كأنها ينبيء بمرض. حُمّىٰ. لا أدري. أرتعش وأرتعش. الجو حار. الليلُ خانق. تنفسها حارق أمامي رغم بعدها عني. لأول مرة يدفعني الغثيان الى تحديد موقفي منهـا. المـرأة. اكتشاف أوّل. ربما لأنني استطعت تمييز الذي يثير فـيّ الاشمئزاز. دهان الأظافر. كم أبغض هذا الدهان. رائحته الأثيرية. حامضٌ. قلوي. كم أشرفتُ على التقيّؤ حين كنت أرى أظافرها البرتقالية. أظافر قدميها خاصة. مومس!.. وفزعتُ الى فراغ خاوٍ من أي شيء. منضدة أو مقعد. مرآة أو سرير.

أحسستُ ببرودة الجدار تنسربُ الى ضلوعي. لا: ليس هكذا يكون الرقاد. هذا تكوّم! علـيّ أن أرقد جيداً. أن أستلقي كما ينبغي حتى أرتاح. هنا! أأجدُ راحتي في هذا المكـان!.. يصـل الـيّ صوت تنفّسهـا المنتظم. الغافل عني. المحايد. أبتعدُ عن الجدار وأنا على وضعي المتكوّم. أتزحزحُ قليلاً، مثل تدحرج كُرة، وأهدأ.

تهبُّ نسمة الفجر من النافذة المشـرّعة. أتحرّك في الزاوية ملازماً لها. طفلٌ هجر أمه معاتباً وراجياً وتائقاً الى كسر إعراضها بالتهديد بإعراض مقابل: بعيداً عن سريرها: خارج فراشها: وأغفو.

لا أسمعُ صوتَ تنفّسها.

أنـام.

ينتفضُ رأسي. تسقطُ قطرة جديدة من الدم على الأرض. دمي يفرُّ مني، والبرودة تغزوني للمرة العاشرة، ربما، فأحسبُ أن الصفر درجة حرارتي.

يتناوبُ العالم على المجيء.

ها موعد الصفر حان وعلـيّ أن أستعد للآتي!

أصرخُ خائفاً، فتكون البريّة فضاء الصوت.

يقرعُ الجرس مصلصلاً.

يدخلون علـيّ..

فيهبُّ الجحيمُ الصاخب.

[illegible]

نظر الشاب اليه وهزّ رأسه.

«اذن هيا نبحث عن خمرة أو مقبرة.»!.

قالها بلا تفكير.

وكانت السيارات التي تمرّ بهما سوداء، وقد انعكست الشمس على معدنها المطفأ.

# 7

بيني وبينهم مساحة معبّأة بالخوف المتكثف. أشعر به في خطواتهم الوئيدة، الثقيلة، وهي تدوس الأرض غير البائنة. ظلام. أشعر بالخوف وأسمع قرع طبوله المتسارعة في قلبي. أرى الموت في الهواء الذي لا يُرى. أشم رائحته القديمة تعبق محلّقة في فضاء المكان. تتحرّك فوقنا. فوق رأسي. انها رائحته الأولى التي عرفتها هناك، على الهضبة، في وجه الجندي الفلاّح. على مخاط شاربه الكث، وفي ذقنه النابتة.

رائحة الموت الهابط. الدم المتقطّر على صدر القميص. ونتقدم.

بيني وبينهم صمت يُفصح دون صوت الشفاه. صمت ينتظر الانفجار.

حلّوا وثاقي، فارتخت الأعضاء، ودهمتني غيبوبة صاعقة. عاد الدم يجري في مسالكه. يبللها. يعيد فيها الحياة. يُغمى عليّ. لكنهم يتجمعون حولي، ويأخذون بجسدي الى الخارج. أعود الى العالم. تكون سماء صارخة بالقذائف والنار. أشجار تشقُّ الظلام. ضوء القمر ينفذُ من طبقات الأغصان، والعتمة، ووجوههم المسحوبة الى قرار لا رجعة عنه. في وجوههم ملامح مَن رأى الموت. أراه، أنا أيضاً، وأرى في عيونهم ادراك الذين يعرفون أنهم أصحاب الروح.

أسقطُ على أذرعهم.

اذن: هكذا يكون الأمر!. كل الأشياء صامتة. ملجومة. تتحشرج. ترتجّ الـدنيا بمدافع الليل الملوّن بالنار والكبريت. تلوذ المخلوقات بنفسها. تداري

أجسادها من احتمال اصابتها بالهلاك المُوزّع في الاتجاهات. ترتعش مثلما الأشجار ترتعش. مثلما الأرض ترتجف. مثلي وقد رأيت أننا وسط بستان كنيسة! حدّقتُ مُتعباً، فتبيّنتُ قبوراً بيضاء!.

القمرُ معلّق في السواد.

المكان فضاء من صلبان حجرية.

أتعثّرُ، أقعُ على ملاكٍ انكسر أحد جناحيه، فلم يعد قادراً على التحليق خارج حَجَره!.

لم أقل شيئاً إذ انعقد لساني. خوفي من الموتى. انهم لا يحبّون الكلام على أرض مملكتهم.

قرعَ الجرسُ قرعةً واحدة، فانغرستْ في خاصرتي طعنة!. صرختُ مصعوقاً وتفلتُّ من أذرعهم، ورحتُ أتعثر. فوجئت. فوجئت بسرعتهم. فرَّ خوفي مني. صرتُ داخل الحلبة اذن. تفرّستُ فيهم والدمُ يشخبُ من مُزع الطعنة. رأيتهم توقفوا في أماكنهم وكأنهم أُخذوا بالمشهد وبما فعلوا. غير انهم أفاقوا، بعد توانٍ، على ما في أيديهم، فعاودوا التقدّم صوبي. تراجعتُ خائراً. واصلوا متقدمين مصممين. كانوا أربعة، وثمة أسلحة تلتمع في أعشاب المكان اليابسة.

انهم مأخوذون بي. تساءلتُ: ضحية أنا، أم شهادة على شجاعتهم؟.

لم امتلك شجاعتي المعزولة بعيداً عني. لكنني، مع ذلك، لستُ بخائف. ستكون الخطوات كما ينبغي أن تكون. لستُ بقادرٍ على حرفها. أو ردّها. أو تأخيرها. أو الافلات منها. اذن: عليّ أن أصلّي.

نظرت اليهم يقتربون. يلوّحون بأذرعهم فيما يشبه الرقص!. تُحدقُ بي أشداقُ نمورٍ مرسومة على قمصانهم. تمتدُّ يدي بوهنٍ لتسدّ فتحة الطعنة في خاصرتي. ثم تأخذُ الأخرى طريقها الى صدري المعْروض أمامهم. أُمسكُ بصليبي البارد. لا تأتيني الكلمات. ذهبت الصلوات في شقوق القلب وذابت. لم يبقَ لي سوى هذا الصليب البارد. هل يكفي؟

وصلوا إليّ.

كان ظهري مسنوداً بساق شجرة. جداري الأخير.

أحاطوا بي ولم أنبس. كنتُ أحسّ بانسياح دمي الفاتر على الخاصرة وجانب الحوض. وفجأة التمع سلاحٌ في عينيّ وبرق. تزلزلتْ الدنيا في داخلي وتصدّع

أنين. ظلّ حلقي ناشفاً. كنت جسداً ينكفيء فأرى سيقانهم من حولي منفرجة. رأيتُ دمي في لون الفضة. داكناً يقطر على حذاء أحدهم.

اذن: هي الخطوات هكذا!.

ثقلٌ يحطُّ عليّ، وإذ ببرودة صاعقة تنفذ في كتفي وتُشعل الجحيم! يهيجُ العالم ويجنُّ الرأس منسحباً الى الوراء. تصدّه الشجرةُ فيرتجّ. تجحظُ عيناي. أرى فيهما ذلك الشيء البشع. ذلك الشيء العادي جداً. أرى سكيناً كبيرة سوّد دمي شفرتها وبدنها المعدني الرهيف. انها، تماماً، مثل سكين المطبخ التي لمحتُ أمي تعالجُ بها لحم الطعام، ذات يوم.

بدأت الأشياء بالانسحاب حال أن تقدم الهدوء متسارعاً. لم يعد جسدي يبالي بالضربات التي توالت عليه. طعنات تدخلُ فيه بقوة ولهاث. تتدلى النجوم قطوفاً وعناقيد. تتدلى وتنفرط عليّ. أرزحُ تحت حبّاتها الباردة. ايقاعُ اللهاث يخترقني داخلاً بصعوبة. ينفذ فيّ. لا أتألم. أحسُّ به ولا أتوجّع! أهكذا يكون الموت؟. بلا احتجاج؟!..

ربما كان هذا ما أفقدهم صوابهم. رأيتهم وقد خلعوا عنهم التردد واستباحوني. أباحوني لأعضائهم المكتسحة المنقضّة. كانوا أثقالاً لا تطاق. سقطتُ تحتهم. ليست بي ارادة الدفاع عن شيء. لا شيء يُعمل؛ قررتُ، سوى أن أدلف إلى الدرب الجديد.

سلكتُ انعطافي الأول عندما حزّوا وجعاً كان مختبئاً في العنق. صرختُ على إثر ضربة سكين تلقيتها فيه. جاءت من الخلف بين الرأس والظهر، فانتثر جسدي وتكوّم على جنبه. تسارعت الذرات بلملمة نفسها والمثول أمامي. التراب. العشب اليابس المرشوق بالدم. النجوم المرتعشة تهوي وتنطفىء في فضاء الصلبان الحجرية الباردة. تبتعدُ عني أحذيتهم الملطّخة بدمي والتراب. أراها وكأن بيننا عدسة مقعّرة. أرى أحدهم يتحدث، فيخرج صوتُه منسوجاً كحبل يتذبذب في المسافة بيننا. أرى كلامه يأمر: خذوا صليبه!. أسمع خطوات آخر تدنو مني. يشهرُ سكينه الكبيرة ويأخذ السلسلة برأسها. يجذبها مرتين، وينشلها بقوة. تتطوّح السلسلةُ والصليب ويقعان عند أحذيتهم. يصوّتُ العشب. أرى يداً تجمعهما وتصعد. لا أقوى على رؤية المزيد: انطفأت الحواس الأولى.

تسربت القوة من الجسد وراحت تجوب سهوب الذاكرة. تسترجعها وتبثُّ

الصحوة فيها. تشكّلُ ثريا، وأمي، وأبي، والبحر. وجه ثريا ما زال يانعاً لم يبلّله الدم. تطلعُ منه موسيقى أراها تتراقص مثل تمشيحات البخور في هيكل الكنيسة. أرى ضحكتها تغور في عذاب خوفها من ذهابي الى المنطقة الأخرى. لا شيء يحميني. أجل. حتى دعواتك يا أمي. والسيد الذهبي الصغير. لم يحمني هو الآخر. صلّيتُ له. صلّيت له دون كلام، لكنهم خطفوه مني وسرقوه. ربما يعلّقونه حول رقبة عشيقة لهم قائلين: كان لواحد لم يقدّره حق قدره فذبحناه!. وربما يصلبونه من جديد على مواسير بنادقهم. وربما يبيعونه في سوق الذهب عندما تُفتح الحوانيت.

انفتح البحرُ لي واتضح. هتفَ بي: تعال الـيّ. سأطهّرك من أدران التراب والنـار. مائي سـرّ الحياة. أمـواجي كتـابُ الخلق المتجـدد. مُتّ؟. لا يهم. أمّـك؟.. ستبكي كثـيراً وسيتكفّل زوجها المحزون بطيّك في صمت الذهول الخـاشـع. ها اني آخذكَ بعيداً عن الجميع. عن ضجيج الحرب. في قراري ستستريح. سيضمك شعرُ ثريا أنـىّ تحملك أمواجي. ستناجيها، وستبثها الكلام الذي لم تقله هناك. في حياتكما المتقطعة بين الطلقات. المقذوفة الى حُمّىٰ انفجارات البارود وصقيع المحرّمات. ثمة الوقت الكافي لذلك. اطمئن. ثمة الوقت كله.

وشففتُ: فرأيتُ نفسي رؤية العين البصيرة مكسوّاً بدمي وبجراحي: ألجُ عالماً مندحراً نحو عُمق بلا نهاية: أنحدرُ في جرف الجوف العجيب: جوف مضاء حدّ اعشاء العيون: باهر الى درجة الذهول. ألجُ عالماً بخطوة أسمعها وأخرى توقعُ في قلبي صدمة من يتخلى العالم عنه. أحسُّ بانخلاع أثقال العالم عن روحي: ضوضاء شارع البيت: كبوةُ بدني حين تُمتَصُ ذكورة التواصل مع دفـء ثريا: اشتهاء خالد الطيّب الأحمق لها: خالد الطيّب الذي لا يعرف ثريا ولا يعرف طريقه: طعنة السكين في الخاصرة وحزّها لمؤخرة عنقي: حدّة الروائح العابقة أبداً. ثم ألجُ فرسخاً آخر في هذا الجرف الجوف. أهو جرف، أم دهليز بلا نهاية، أم جوف لا قاع له!!. وطفقتُ أردد منغمّا بصوت جديد علـيّ، منجذباً لسحر مفردة قديمة: جوف الحوت جوفُ الحوت جوفـ!! ثم سمعتُ صوتي يطلعُ عالياً، زاعقاً، مرجّعاً صدى عنيفاً كمن يرتطم بجدران بئر حلزونية: إيليا يا إيليا. خُضْها تجربة وعاينْ نفسك. هوذا عالم ليس كما العالم. هوذا عالم في جوف العالم. خُضه ولا تخف. خُضه واطلع وأخبرنا. أخبرنا يا إيليا...

وفي المقابل غير المحدّد ولا المعيّـن كنتُ أحسّ إحساساً خشناً بأن إيليا خرج من حوته أما أنا فلن . . لن أخرج!.

ذاك كان رجلاً رأته عين الله. أما أنا فلن أكون.

□

«وهل من الضروري أن يمرّ القديس بمراحل ثقيلة من المعاناة النفسية والبدنية حتى يصبح قديساً؟»

«كأن الأمر كذلك.». قالت ثريّا.

«لا. ان مثاليات الحضارة تكمن في الانسان بمواقع متضاربة. وهذه تخلق منه قدّيساً خلال بحثه عن الخلاص. ثم يا حبيبتي مَن منّا لم يُعان نفسياً وبدنياً؟».

«أي خلاص؟».

«أي خلاص.».

«ومعنى هذا؟».

«ان كل انسان قدّيس على طريقته الخاصة.».

عرفتُ أن ثريا حاضرة رغم الموت. انها تخرقُ الزمان المظلم، والسكاكين، والأمكنة الراسخة بدمي وبقانونها، وتأتيني. تمزّق العتمة التي تلفّني شيئاً فشيئاً، وتناديني هاتفة أن أقف. أن أنتظرها لنمضـي معاً. فرحتُ وحزنتُ: لن يكون ما تريد: أنا أعرف هذا. لكنني أرخيتُ لروحي ان تقول نداءها والبحر ما يزال فاتحاً ذراعيه: سوف أحيطكِ بأطرافي، وأظلّلك بجسمي الممزّق الذي لا تعرفين: الذي لم يتخلّق لك مثيله في لحظة انبطاح كسلك على فراش ما. لن يكون هو الذي تتوقين اليه: جسم آخر: رجل آخر: اسم آخر.

لا يهم.

سأكون نخلة وارفة تغطّيك بظلّها: تلامسُ رهافة جسدك كالمروحة: فيهبُّ عليك الهواء: تنتعشين وتستيقظ فيك الحواس الممنوعة. تسدلين رموشك على ومضة الاشتعال التي تفتقتْ مثل وردة النار. في عينيك مائة سـرٍّ يتحلّل ويتحلّل: تتسـرّبُ بلوراته الشفافة وتتوزّع في أنحاء جسمك: يلتمعُ صدرك: يتعرّق إبطاكِ: فيعبقُ دغلا الشعر عبقاً حريفاً يلفّك ويذهب بكِ الى أعالي سماء الله: تستلّين

جُمَعَ الأحلام المبعثرة مثل نُتف الثلج على أرز «فاريّا» حين سرقنا يوماً من آحاد شتاءات بيروت: تقبضين عليها فوق ارتعاشة بطنك الصغير الذي يتأهّب لاهتزازات الأرض تحته: تنكمشُ أصابعك الخمسة وتنفردُ على محيط السرّة: تغوصُ أصابعُ قدميك في سخونة الرمل: تحت أمواج الرملِ: تنبشُ: تتوفزُ: تصطدمُ الأظافر الناعمة بانسيال ذرّاتها المتزاحمة: تنبشُ: تنبشُ..

لا ماء يتفجّر من أرضٍ أنت عليها وحيدة.

تظلّلك النخلةُ وتضمّكِ. أسوّركِ بأطرافي الذابلة وبجسمي الجريح. أحميكِ من موتي: من هبوب الريح الحرّ: من نفخ الزوبعة في الرمل. أنتِ أميرتي المنبطحة على طرف العالم والأرض بوار. وحدكِ لا تفجّرين الماء. أهبطُ عليك مثلما الطيف. أحاذي أصابعكِ المرتعشة فوق بطنك. ألامسها بفمي: فتنبسطُ كفّك على وسعها الصغير. أُقبّلُ كفّك. أدفنُ فيها وجهي. أحيي عليها توقي وأذكيها شعلة لا تخبو. تذهبُ أصابعك في رأسي فيدور العالم ويدور: لا أعي ما أنا فاعل: لا أفعل سوى ما يفعله الزارع: أُلقي بشتلة الماء على مساحتك. أسهرُ معك الى طلوع الفجر كي نلتئم في انفجار السدّ الذي سنطفو على مائه ميمّمين شطر مصبّاته.

لا خوف علينا من صلادة الصخر.

صدري كهفك تأوين اليه، وكفّك المفتوحة ملجأي أستترُ بها من برودة الآتي.

لسنا ملاحقين بلعنة الملائكة وسيوفهم المتأججة ناراً. لسنا بمطرودين من غابة عدن. عاريان كما أرادنا الخالق أن نكون. خالقان للشيء من الشيء كما شاء. زارعان للجنة نحن. مغفورة لنا أفعالنا في العالم. مباركة مداساتنا في العالم. جنتنا العالم. عالمنا الجنة. عدن على الأرض لا في الكتاب. وأنتِ معي لا في التفاحة. أنتِ التفاحة. فاكهةُ الروح وملح الجسد.

من التراب الى التراب.

منكِ اليكِ.

والطوفان سربُ طيورٍ يطلقُ أحدها ليحطّ على كتفينا.

انه علامة حب. صك مباركة وتعميد.

ها البحرُ يقترب ليأخذني. بردٌ. دمي في جسدي على قاعدة الملاك المكسور الجناح. امّحىٰ الألم وانطفأ. غار الدم في الأرض. تشربته التربة المتشقّقة. ذهب الوجود وراء الحواس.

طفقتْ الدنيا تتصدع بصرير واصرار. تتمايلُ دكنةُ السماء المخروقة بنجوم متناثرة. يصيـرُ التحدب تقعراً وينقلبُ التقعر تحدباً. تصفو الألوان في الأعلى وتتحوّل الى ما هو ليس هي. تبوخُ الدكنةُ لتدخل فيما هو نيلـيّ. يشفُّ تدريجياً ليستقر في الأزرق الصافي من شائبة غيمة.

يرتجُّ الرأس ويغور في انفلاق الأرض ذات الأخاديد!

تعتكرُ الرؤية وتزوغ العينان. لا تبصران ما في الخارج. تدلفان الى الداخل السرّي فتريان الى ما كان مبطناً خافياً. تحدّقان في الجوهرة الكامنة عميقاً. لا خوف. تنشَقُّ الجوهرة، أخيراً، فيخرجُ منها طائر أبيض يصفق بجناحين فتيّين. يندفعُ الى صفاء الأزرق برأسٍ دقيق وجسم كالسهم. يقطع المسافة. يخترق غمرة الأوجاع. ويحلّق عفيّاً سامقاً نحو السمت.

يسموُّ رغم لطخ التراب على جسمه.

يسمو مع وشح الدم على جناحيه.

فيهتفُ صوت انسرب في العشب الناشف: هوذا أنا!. أراني هناك!. . ها الطائر الأبيض ذاب!. . ها البرزخ ابتدأ.

قرع جرس الكنيسة فكان كالحشرجة. حرّكته الريح التي عصفت.

تناهت الانفجارات الى الملاك مكسور الجناح أصواتاً تسلقته. لم يتحرك. احتوته وهزّته. غير أنه ظلّ ثابتاً على قاعدته. جناحه مكسور. منافذ الفردوس قصية. بوابات الجحيم مُشرعة. والمعركة، على التلّ، في أوّلها.

# 8

اذن هكذا؟!.

اذن هكذا كنتَ تريد الأمر أن يتم!. أليس كذلك؟. حسناً. ولكن.. ولكن هل فكّرت بأنك إنما كنت مجرد مهرّج. آسف، لكنك مهرّج في سيرك لا يلعبون فيه. هل فهمت هذا الآن؟. فاتَ الأوان يا بطلي. انتهى. قمت بدورك وقاموا بدورهم لكنني لا أستطيع أن أقول على أحسن وجه فأنا لم أرَ شيئاً. فقط سمعت. طوال النهار وأنا أسمع. سمعتُ أنهم ذبحوك. أجل. ذبحوك من الوريد الى الوريد. وسمعت، أيضاً، أنهم سحلوك وسحبوك من قدميك في شوارعهم. صرتَ فرجتهم. برافو. هذه زجاجة أخرى على شرف النجاح. نجاحك ونجاحهم.

كنتُ أحدسُ دائماً بأنك تهيءُ نفسك لدور الشهيد. مسيحٌ آخر. برافو. خذها مني: لقد نجحت تماماً. نجحت ورأيتُ نجاحك واضحاً في وجه الطالب المتحمس الذي كان مذهولاً مأخوذاً بك. لا ليس بك يا عزيزي بل بموتك. نهايتك الفاجعة. أنا لم أقل. إذ أنت تعرف انني لا استخدم مثل هذه المصطلحات. هو قال ان نهايتك كانت فاجعة. بكى على حاجز المشرب مثل طفل فاضطررت لأن أهدهده وأوصله الى فندقه البائس. طالب ملتزم. برافو.

حسناً. إن نهايتك فاجعة ومفجعة وسأذهب الآن لأحتفل بامتلائي بهذا النهار الاستثنائي. سأفرغه في المكان المناسب وسأنزلِ الماء على نتاج الزجاجة

العاشرة ربما أو الأكثر. عندما تحتفل عليك ألاّ تعدّ. انتظرني وسأعود حالاً فلا تهتز أو تتمايل. لا تهتز. قلت لك سأرجع. لن أغيب طويلاً. لا تصدّقني!!. أنا لا أكذب. أكذب قليلاً لكنني لا أكذب دائماً. صدّقني. سأعود. ها ورقة الايجار أمامك فاقرأها. أرأيت؟ لن أغادر هذا المكان قبل ثلاثين يوماً الاّ يومين. لا تخف. سنكون معاً طوال الوقت.

أووه أنتَ تهتز من جديد. قلتُ لك سأعود بعد أن أفرغ هذا الامتلاء اللعين. أجل سأعود، وها قد تركتُ لك زجاجة كاملة كي تصبر على الانتظار. لا تعترض. زجاجتي معي. سآخذها معي ولكن لا تظن بأنني أريد شيئاً آخر أفعله هناك. لا. أنا لست مثل صاحبك الملتزم الاشتراكي العلمي على القومي. الطالب المتحمس الذي بكى. أنا لن أبكي في الحمام هناك. فقط سأبول وأعود لأحتفل معك فانتظرني.

أجل سأعود اليه في الحال.

وهذه المرآة تشهدُ على صدقي. إن وجهي لا يشي بالدجل. أرى صورتي فيها وقد تهدّل بنطالي حتى ركبتّي. أرتجف!! أرى ركبتّي ترتجفان فاهتزّ في المرآة. وجهي ليس وجهي الـذي أعـرفـه. انه جاد وصارم. هأهأ. هذا وجه صارم وسخيف. ها هو يكشّـر ويتلوّىٰ.. أوووف.. يا لهذه المعدة القذرة كم تحتوي على فضلات.. أووف.. هذا جيد. الآن أنا جيد وأرى وجهي قد استراح بعض الشيء ولم أعد أهتز. لا لم أعد أهتزّ أبداً. صاحٍ وها قد قبضتُ على اللحظة. سأسجّل الآن كل شيء كي اثبت لابن باسيل المهرّج البطل أن المسائل كل المسائل واضحة في ذهني تمام الوضوح. سأبدأ من نفسي.

أنا خالد الطيّب ابن الأكارم وأبي يُدعى حسب شهادة الميلاد وجواز السفر ـ لا. ليس من نفع من ذكر اسمه. قبضتُ على اللحظة التي سأقول فيها ما ليس بمقدوري ان اعرف الآن ما هو. انه يومي وها أنا ماض فيه. لم يتبق شيء. انها آخر قطرة في خابية التجربة. هكذا أسمّيها. أجل. التجربة. ولكن: أهي مجرد تجربة؟. لن أدخل في دائرة التفلسف ولن أفصّل في المسائل. قلبي خاوٍ ورأسي مستودع بقايا العالم. تفتت العالم وسأنجو ومَن قال بعكس هذا مخبول أو جاهل أحمق. أما بيروت، فما عادت تعني لأحلامي الآن شيئاً أبعد من الأُفق. لا اضافة بعد اليوم. تكرار للكتاب من الصفحة الأخيرة حتى الصفحة الأولى. ولا بأس

إن بدأت من الصفحات الوسطى في منتصف الفصل الذي يقع في وسط رواية الكتاب. لا اضافة بعد اليوم. رتابة كأنها هي أنا. أو كأنها أنا الرتابة. لا فرق. لكنني سأنجو.

متى بدأ هذا؟. متى حدث؟. ليس اليوم. ليس أمس. ربما قبل شهر. ربما أكثر. ربما أعمق في الزمان. ولكن: هل بلغتُ مدى الأُفق حقاً، كي أنجو من حافته الهاوية؟!.

فلأعترف. ما عاد الرجال هُم الرجال. ما عادت المدينة تستدعي أحلاماً. انطفأت في السماء نجومها القديمة. ليس ثمة نجوم تولد.

غريب!. منذ متى كانت الكلمات تقول الحقيقة؟ هل أكف عن ـ لا. هذا الكلام لي أنا. لا أحد سيتجسّس على أفكاري ولن يفكر أحد بالذي أُفكر فيه سواي. فلأحاول الاقتراب أكثر، فربما يبتعد نذير بن باسيل عني ويبقى ماكثاً في موته آمناً مطمئناً لا يخشى طعنات أُخرى ولا يخشاني. ها أنا أضحك على نفسي وأقلب الصورة لأراها كما أريد أن أراها. لقد رأيتها وأنا لم أنسَ موعدي معها هذه الثريا. أجل رأيتها، وكانت تعبر الشارع مع العابرين. ركّزتُ عيني عليها وكانت هي. ثريا صاحبة نذير بن باسيل سمعان الحلبي وصاحبة موعد الساعة السابعة وسأذهب. لم تلحظني عندما كنت أقف في طرف الميدان. جعلتها تمرّ وتذهب ولكنها لن تفلت مني في الساعة السابعة. عشاء ثريا سيكون عشاء لذيذاً ولن أخبر المهرّج نذيراً عن هذا. لا أريد. ولكن، ماذا أريد؟. ان أفعل بنفسي قاصداً متعمداً ما فعله بنفسه على غفلة وجهل!. مرة أخرى أدور في الدائرة والدائرة مرايا. أرى وجهي يضحك لي باستخفاف. يهزأ. يسخر من كل الكلام الذي أحاوله وان لم يبارح رأسي. يقول وجهي انني أكذب. أضحك أنا أيضاً وأمدّ لساني: أعرف أنني أكذب. أعرف أكثر منك فلا تستخف. أنتَ أنا فلا تدّعي الانفصال عني فلن تقدر. عليك أن تجرّب اللعبة. اذهب الى المرآة وقُلْ لها ان ابن باسيل، نذير بن باسيل، الرفيق نذير بن باسيل الحلبيّ قد قضىٰ على نفسه بنفسه وهو من يتحمّل مسؤولية موته. قُلْ هذا واسترحْ، أرتح أنا. حاولْ أن تلعب اللعبة فهو لن يأتي ليكذّبك أبداً. الموتى مغلولون بموتهم والموت نهاية. لا تدع ذكراه تزعزع ثقتك بنفسك وأنهار أنا. أنت تقضي عليّ بترددك الدائم. بخوفك الخروج من نقطة الوسط. أتعرف؟. أنتَ في الوسط، وأنا. أنا أريدك أن تقفز

معي الى النقطة الأخرى. لكنك تكبّلني. فلا أقدر على المغادرة. أنت وأنا معاً في المكان الواحد والزمان الواحد ولكننا لسنا بواحد. عليك أن تقتنع. ما بكَ تعود للضحك؟. تسخر؟!. تقول لي أننا واحد؟. أجل. نحن واحد وإنما أنا أجرّد المحسوس كي تفهم. عليك أن تفهم. أنا لم أفعل شيئاً ضد نذير ابن باسيل الحلبي. أنا لم أدفعه الى هناك كي يموت. ما كان الأمر بيدي وما كان لي الخيار. تضحكُ ثانية؟... كل الخيارات لي ولا خيار غير الموت له؟. حسناً. هذا أنت، ولكنني سأقتلك حتى لا أكونك. أتفهم؟. سألحقك برفيقك نذير وأنجو أنا من لعنتك ولعنته. ليس هو وحده. هناك الآخر القديم. نذير الحلبي ومروان بن مُهجة. رغم السنين الطويلة الاّ انه ما يزال موجوداً فيك. يا الهي!. ست سنوات على موته وها إنك تحتفظ به في أدقّ خلايا ذاكرتك! كيف أنت؟.. ألم ترتوِ ذاكرتك العاهرة من ايلاج الوجوه التي تسبب لِي العذاب؟!. ألم تكتفِ؟. سَحقاً لك ولذاكرتك العاهرة. سوف أقتلك أخيراً. أتسمع؟ أتسمعني؟.. لا تذهب. لا تذهب. أتهرب مني؟ تختفي في عتمة المرآة؟... سألاحقك وأقتلك عند نقطة جبنك. عند نقطة الوسط أيها الجبان. أيها الجبان. لن تفلت مني مهما هربت. وسوف أقبرك معه. معهما؛ ليختفي وجهك وصوتك مثلما على وجهيهما وصوتيهما أن يختفيا. هذا وعــد. أنت لست بعيداً عني مهـما ابتعـدت. أتسمـع؟. يا للعنة!... أنت لست بعيداً مهما ابتعدتَ! تتحدّى؟ تتحداني يا جبان! حسناً. سأريك الآن من أنت، وسأكشفُ عن حقيقتك، وسأهشّمُ رأسك اللعين.

أرأيت!

ها أنت هشيم مُفتت والدم يقطر من وجهك المشظّىٰ. ألم أقل انني سأقتلك وأقبرك معهما. ها دمك يسيل على أصابعي ورسغي. يغمرهما. سأشرب الآن نخبك يا جبان. يا مَن كنت جباناً ومُت. انتهى.

لا توجد زجاجة. يوجد زجاج. زجاج في يدي! ماذا حدث؟. أجل، انني أتذكّر. لا بأس. ثمنك ثمن زجاجة رخيصة. لا فرق. زجاجة رخيصة أم رصاصة رخيصة كتلك التي حاضر عنها الرجل الحكيم في معسكر الحرش. تحرّج مروان يومها وسكت، لكنني لم أسكت. جادلته ولم أسكت. قال أبي عندما سمعني أجادل انني لا أنفع. العجوز قال أنا لا أنفع. أراه الآن بوجهه العظمي الصموت يرسل لي الاشارة. ' أنت لا شيء. ' يقول. ومروان قال في السفينة إنه لن يرضىٰ.

وذاك المهرّج العاشق لا يقول شيئاً.

سحقاً! ماذا يقول عني نذير بن باسيل الحلبي الآن؟!.

خائن؟!

جبان؟!

لا أنفع؟!

لا أستقر وبدني يرتعش. لا أرى وجهي إلاّ حطاماً والدم يقطر من أصابعي. دوار يلفُّ رأسي وركبتيّ. أجل إن ركبتيّ ترتعشان. سأجلس وأستريح. أجل. هذا جيد ولكن ماذا حصل؟. أشمّ رائحة قويّة قريبة من أنفي! ماذا! ألم أُنزل الماء. المكان أبيض. الأرض بلاط أبيض. والدم أحمر على أصابعي المفرودة على الأرض. الدم. الدم ايّاه. دم مروان هو الأول ودمي هو الآن الأخير. دمي أنا أم دمه هو الذي هشمت وجهه في المرآة!.

الاثنان. دمنا نحن الاثنين. أجل. ولكن مروان يأتيني من الشوارع ويقف قبالتي عند الباب! انه قريب. أسمعه يهمس لي قائلاً بأنه زمن الصخب. لماذا يهمس؟!. لا. ليس من صخب أسمعه هنا. كل الأصوات تموت. تخفت. تذوب في أزيز رأسي.

أنا بين المرحاض والمغسلة.

أرى هذا جيداً ولكن لا صوت. أنا ما بين الشيئين الأبيضين المغسولين بدمي. بين الأزيز وبين السكون المتسرب الى رأسي. بيني وبينهم. هُم الكثر الذين ذهبوا وبقيت. بقيتُ بعدهم لأرث كل ما تركوه. لكنني لا أقبض على شيء. تفرُّ الأشياء مني. يتركونني بعدهم وحيدا مع دمي بين المرحاض والمغسلة. دمي ليس الأول. كان مروان هو الأول. وها نذير ليس الثاني وليس الأخير، فهل أبقى بعد الأخير!. يا الهي!.. أشعر بسكون وعذاب. لا. لن أكون شاهدهم علـيّ. لن أبقى لأكون الشاهد علـيّ. لن أنتظر. هل يرضى مروان. هل يرضى نذير. هل يرضى أبو الحكم، وزاهر، والعجوز، والمدام، وأمي!!.

هل يرضون!

أرفعُ عينيّ لأرىٰ إن كانت السماء تعلو هامتي، أرى بياضاً وأرى وجوههم تمرُّ من وراء زجاج. تعبرُ دون أن تقول كلمة. لا صوت سوى خطواتهم المكتومة

الماضية في الهواء. أسمعُ صوتاً فـيّ يتكسّـرُ في أذنيّ وينتشـرُ. يملأني. يدفعني نحوهم. يهمُّ بي اليهم. يجذبني الى السكون الذي خلّفوه لي فأنظرُ في الأبيض ولا أرى سواي سواي سواي سواي سو. . . .

أيـــار / مايـو ١٩٨٣
شباط / فبراير ١٩٨٧
عمّـان

## صدر للمؤلف

- **الصفعة**: مجموعة قصص. وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد ـ ١٩٧٨.
- **طيور عمّان تحلّق منخفضة**: مجموعة قصص. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨١.
- **احدى وعشرون طلقة للنبي**: مجموعة قصص. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت.
  دار المهد للنشر والتوزيع ـ عمان ـ ١٩٨٢.
- **موسيقيو مدينة بريمن**: قصة للاطفال / ترجمة: دار ابن رشد للنشر والتوزيع ـ عمان ـ ١٩٨٤.
- **من يحرث البحر**: **مجموعة قصص. دار منارات للنشر ـ عمان ـ ١٩٨٦.**



# مقامات الزبد

يمكن لنا أن نسمّيها رواية الخراب... حيث كل شيء في انقضاض على كل شيء. وحيث تتجلى الحياة في نقائضها، وتنقذف بشكل زلزالي ضد ذاتها وتجلياتها؛ ضمن هذا الخراب تتحرك الشخصيات باتجاه حلم غامض؛ انها شخصيات مشردة تحاول حلمها الخاص بشكل أو بآخر؛ وتفيق على واقع واحد هو الخراب، ثم تنتهي أو تنوس في غمرة موات حقيقي يطحنها.

وتتناسل حركة القص دائما بشكل فيوضات سردية عارمة، منتجة شخصيات مشظّاة وزمنا متشرخا وأحداثا هبائية ومكانا شبحيا متفلتا، وتبدو الرواية في الظاهر خليطا غير مبرر من كل شيء ونقيضه، لكنها في الحقيقة ترسم الزمن العربي الرسمي الحاضر باحداثياته اللازمة، بدءا من فلسطين ومرورا ببيروت وانتهاءاً بالذات الفردية العربية، التي أنتجها الموات وأنتجته.

ان حلم الثورة هو اللامكان الوحيد الذي اسمه بيروت، وهو اللازمان الوحيد الذي أهيأ نذير الحليبي للموت بيد طائفية، وخالد الطيب للموات بيد الذات التي اكتشفت ذاتها الهروبية على غير فجأة، وزاهر النابلسي للنوارس والانضباب خلف حجاب الحلم المتسف. وهكذا يتفقّع كل ذلك السيل الذي كان منذوراً للبشارة والثورة والعتق من الخراب، يتفقّع زبداً جفاءاً، ويتكشف عن صمت برزخي يرين على الأشياء.

ان «مقامات الزبد» رواية ترصد «الواقع» وتترصد حركته الباطنة لتجلو خواءه العميم. وهي حين تسافر في حركة الواقع بلغتها وبنيتها الحكائية السافرة، انما تسافر لتسفر، وانما تستبطن لتجلو مرحلة ما سنعيشها.

زهير ابو شايب

دار منارات للنشر
هاتف ٦٦١٣٢٨ ـ ص.ب ٩٢٥٠٦٢ عمان ـ الأردن

مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.
ص.ب: ٥٠٥٧-١٣ (شوران) بيروت - لبنان